الفصل الثاني

حكومات العرب القحطانية

أقدم حكومات قحطان : جرهم ـ خزاعة ـ قضاعة ـ لخم وجذام والغساسنة ـ كندة ـ الاوس والخزرج

---

١ ــ الحكومات الاولى (١)

أصل العرب القحطانية من اليمن ولا ندرى على وجه الصحة الزمان الذى قامت فيه أولى حكوماتهم . غير أن المتواتر أن أوائل قحطان أدركت أواخر عاد وثمود ونازعتها السلطان وورثتها بعد زوال سيطرتها وفناء حكمها . ويمكن ارجاع تاريخ أولى الدول القحطانية الى بضعة آلاف من السنين غير أننا هنا لن نذكر من هذه الدول إلا ما كان له علاقة مباشرة بموضوعنا ومن أجل ذلك فاننا لن نذكر شيئا عما علم من أخبار دولة المعينيين ـ أقدم الحكومات العربية التى وصلت الينا أخبارها من الآثار التى خلفتها فى معين وظفار وحضرموت ـ كما أننا لن نذكر أخبار الدولة السبائية التى لها اسم عظيم فى التاريخ العربى وفى بعض التاريخ اليهودى الخاص بسليمان بن داود ، وسنكتفى هنا بالاشارة الى أن

---

(١) ورد ذكر معين وسبأ فى كتابات سترابو . ثم اكتشف جوزيف هاليفي كتابات صخرية عديدة فى الجوف ، ونجران وحل العلماء مغلقها فعلم منها الشيء الكثير عن تاريخ معين وسبأ والآثار التى تركوها . وفى القرآن الكريم سورة باسم سبأ جاء فيها ذكر بلدتهم وغناها وذكر سيل العرم الاية ١٥ ـ ١٨ ويظن المستشرق غلايزر ان دولة سبأ قامت ما بين ٨٥٠ ـ ١٥٠ قبل الميلاد . واما دولة حمير فالمعتقد انها قامت على اثر زوال سبأ عام ١٥٠ قبل الميلاد ودام حكمها الى قرب عصر الرسالة .

ملك سبأ قد اتسع نطاقه الى أن كاد يشمل كافة أنحاء الجزيرة العربية ومن ضمن ذلك المملكة التى نحن الآن بصدد دراسة تاريخها .

وسنُغفل كذلك أخبار الدولة الحميرية وملوكها بالرغم عن امتداد سيطرتهم على كافة أنحاء الجزيرة وفرضهم الجزية على طسم وجديس فى نجد [1] والعمالقة فى الحجاز لان تاريخهم يدخل ضمن تاريخ اليمن . وبناء على ذلك فاننا نشرع فى درس أطوار الحكومات القحطانيــة التى قامت فى أنحاء البــلاد التى تتألف منها المملكة الحالية . وقد لانكون مخطئين اذا حسبنا أن مدة هذه الحقبة من التاريخ العربى تمتد من القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد الى أوائل القرن السابع بعده أى الى عصر الرسالة .

٢ — جرهم [2]

لايعلم الزمن الذى حلت فيه جرهم الثانية فى مكة . وتعرض لنا فى هذا الباب ثلاث روايات : الاولى : ان اسماعيل حينما نشأ وشب وجد نفسه وسط الجراهمة فصاهرهم وأقام بينهم [3] والثانية ان جرهما جاءت من اليمن الى الحجاز فوجدت اسماعيل فيه [4] والثالثة وهى التى نراها أقرب الى الصواب ؛ ان قدوم جرهم الى الحجاز كان قبــل قدوم ابراهيم بولده اسماعيل على زمن العمالقــة وأنهم كانوا فى الأودية التى بأطراف مكة الى أن حُفرت بئر زمزم فانتقلوا الى المكان الذى فيه مكة [5] .

أما قدوم جرهم الى مكة فيعزى الى سببين الاول ان يعرب بن قحطان حينما فاز وقومه على عاد وثمود واستولى على بلادهمــا وعلى بلاد العمالقــة أرسل اخوته .

---

(١) انظر البحث عن طسم وجديس فى الفصل الاول .
(٢) هى جرهم الثانية التى اشرنا اليها فى الفصل الاول
(٣) ابن خلدون م ٢ ص ٣٧ ، ابن هشام ص ٧١ ، الطبرى ص ١٣٢ .
(٤) ابن خلدون م ٢ ص ٣٧ ابن هشام ص ٧١
(٥) رواية ابن عباس فى ابن خلدون م ٢ ص ٣٧ والطبري ص ١٣٢

جرهماً الى الحجاز لانتزاع السلطة لأنفسهم من أيدى العماليق [١] . والثانى أنه حصل تنافس شديد بين القحطانيين من حمير وسبأ وجرهم كما يقع دائماً بين المقيمين فى مكان واحد من التنافس فى حب الظهور والزعامة وطلب الرزق والسيطرة على الآخرين ، أدى الى تكاتف قحطان على أبناء عمومتهم من جرهم ونفيهم ونفى أحلافهم بنى قيطون من البلاد اليمانيـة . فرحلوا الى الحجاز وحلوا به وانتزعوا حكمه من أيدى العماليق [٢] .

وحلت جرهم وكبيرها مضاض بن عمرو فى أعلى مكة وقيطون وكبيرها السميدع فى أجياد من مكة . وكانت جرهم تُعَشِّر مايدخل مكة من أعلاها وقيطون تعشر مايدخل من أسفلها [٣] .

وتزوج اسماعيل ابنة مضاض ورزق منها اثنى عشر ولداً . وكان اسماعيل يلى أمر مكة الى أن توفى فوليها اثنان من أبنائه نابت ثم قيـدار ويقال العكس . ثم انتقل الامر بعـدهما الى جدهما مضاض بن عمرو الجرهمى وبقى أمر ولاية البيت فى أولاد اسماعيل .

وتنافس الحيان اليمانيان بعـد اقامتهما فى مكة وأدى تنافسهما الى القتال . فالتقى الفريقـان جرهم وقيطون فى فاضح فغلب القيطونيون وقتل كبيرهم [٤] . وظل حكم جرهم فى مكة الى زمن عدنان فضعف أمرها بدليل ماجاء بمناسبة غزو بختنصر للعرب فى ذات عرق فان قائد العرب فى الموقعة لم يكن جرهمياً وهذا دليل على ضعف جرهم إذ ذاك . وروى الطبرى أنه بعد عودة مَعد الى مكة خرج الى ريسوب فاستخرج أهلها وسأل عن لقمان ولد الحارث بن مضاض الجرهمى وهو الذى قاتل دوس العتق فأفنى أكثر جرهم على يديه فقيل له بقى جرشم بن جلاهمة

---

(١) سيديو ص ٢٢ وابن خلدون م ٢ ص ٣٠ — ٤٧ .
(٢) اخبار عبيد ص ٣٩٨ ولم يذكر المؤرخون وقت جلاء العمالقة عن الحجاز .
(٣) ابن هشام ص ٧١ .
(٤) ياقوت مادة مكة .

فتزوج معد ابنته معانة فولدت له نزار بن معد [١] و ذكر اليعقوبى ان اضمحلال سلطة جرهم عن مكة كان من أيام ادد و الد عدنان [٢] .

وساء أمر جرهم فى مكة بعد ذلك وضاقت أحوالهم فظلموا الوافدين اليها واستحلوا مال الكعبة فأكلوه ، فنقم عليهم جيرانهم من نسل عدنان بطون كنانة ومن قحطان خزاعة واحتربوا معهم الى أن أجلوهم عن مكة فى أوائل القرن الميلادى الثالث وبناء على ذلك فان مجموع اقامتهم فى مكة تبلغ الواحد والعشرين قرنا .

قال ابن اسحاق «فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى بغزالى الكعبة وبحجر الركن فدفنهما فى زمزم وانطلق هو ومن معه من جرهم الى اليمن فحزنوا على مافارقوا من أمر مكة وملكها حزنا شديدا» [٣] وقال عمرو شعره المشهور الذى منه :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وكانت جرهم حنيفية على سنة ابراهيم الخليل ولم تعبد الاوثان كسائر العرب إلا أنها فى عصورها الاخيرة تحولت الى شكل تقليدى بعيد عن جوهر الدين الحنيف ولبابه .

وقد أدرك أحد الجراهمة المسمى عبيد بن شرية الخليفة معاوية بن أبى سفيان وحدثه عن أخبار المتقدمين ودوّن ذلك برواية ابن هشام فى كتاب التيجان [٤] .

٣ — خزاعة

جاءت قبيلة خزاعة الى الحجاز من اليمن قبيل سيل العرم ، ولمجيئها قصة مشهورة [٥] وكان رئيسها يوم هجرتها عمرو بن لحى مزيقياء ونزلت فى مرالظهران [٦] أول الأمر ، ثم انها بمعونة بطون عربية أخرى من نسل عدنان حاربت جرهم

(١) الطبرى م ١ ص ٢٩٣ .
(٢) اليعقوبى م ١ ص ٢٥٤ .
(٣) ابن هشام ص ٧٢ .
(٤) للاستاذ محب الدين الخطيب بحث طويل عن عهد جرهم بمكة نشره فى الزهراء جمع فيه خلاصة ماورد عن هذه الحقبة من تاريخ مكة .
(٥) ابن هشام ص ٧ وابن خلدون م ٢ ص ٢٤٨ و ٢٥٣ .
(٦) ابن خلدون م ٢ ص ٢٥٣ ومر الظهران هو وادى فاطمة .

وتغلبت عليهم واستولت على مكة كما مرّ . ثم حصل نزاع بين خزاعة وبطون كنانة أدى آخر الأمر الى قسمة المناصب الحكومية بين أفرادهما فكان الحكم وما الى ذلك من مناصب السؤدد والرفعة فى خزاعة والمناصب القضائية والدينية فى أيدى كنانة من العدنانية . ودامت الحال بينهما على هذا المنوال ما شاء الله أن تدوم الى أن كثرت بطون كنانة واشتدت عصبيتها فنازعت خزاعة ثانية السؤدد والمجد وتمكنت بزعامة قصى بن كلاب فى أواخر القرن الرابع للميلاد (٤٤٠ ميلادية) من الاستيلاء على مناصب الحكم فى مكة ونوال سدانة البيت والعناية بشؤون الحج دون خزاعة [١] . وذكر ياقوت أن ولاية خزاعة على مكة ٣٠٠ سنة [٢] .

٤ — قضاعة

يختلف النسابون فى نسب قضاعة ، ويدعى بعضهم أنها من عدنان والحقيقة أنها يمانية [٣] اضطرت تحت تأثير العوامل المختلفة الى ترك ديارها الاصلية فى اليمن وذلك حو الى القرن الميلادى الثالث والهجرة الى أنحاء أخرى فى بلاد العرب [٤]

وكان نزول بطون قضاعة بعد هجرتها من اليمن على ساحل البحر بين عك [٥] وجدة على ساحل تهامة وحصلت بين من نزل منهم فى هذه الارض وبين مجاوريهم من عدنان حروب وفتن وغزوات كما يحدث فى زماننا الحاضر بين قبائل البادية ويَغلب على الظن أن أسباب الهجرة البدوية في غالب الاحيان تنشأ إما عن اجلاء

---

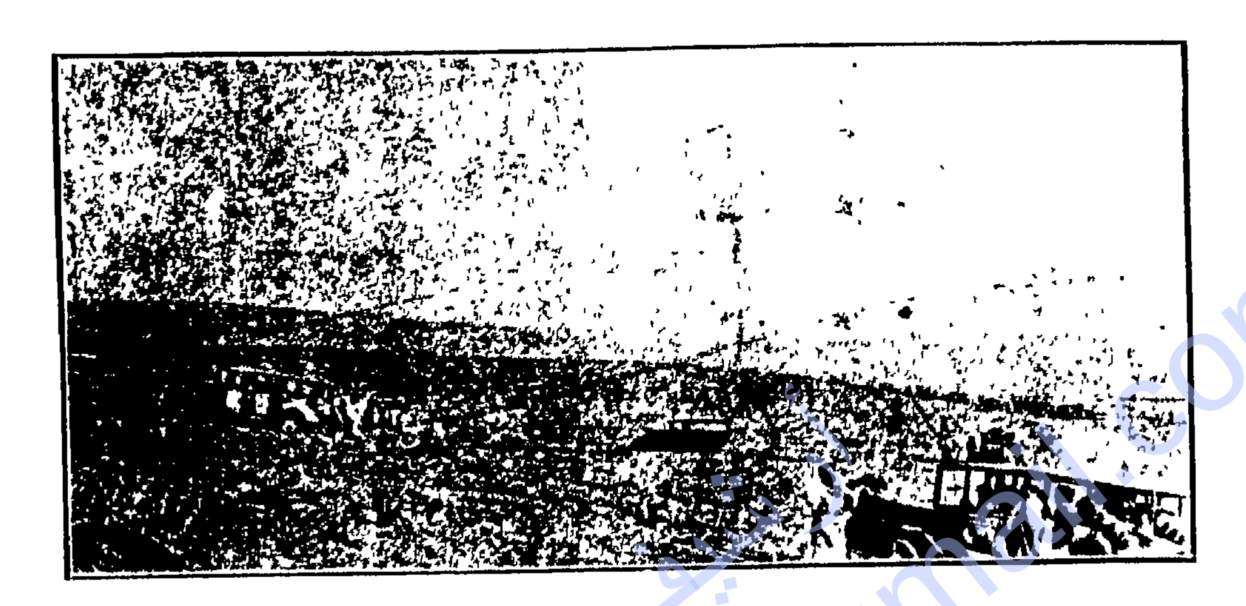
(١) ابن خلدون م ٢ ص ٣٣٤ — ٣٣٥ وابن هشام ص ٧٤ — ٧٥

(٢) ياقوت مادة مكة .

(٣) جاء فى صبح الاعشى م ١ ص ٣١٥ ما يأتى : والصحيح أن أم قضاعة وهى جكرة ، مات عنها مالك بن حمير وهى حامل فتزوجها معد بن عدنان فولدت قضاعة على فراشه فتبناه فنسب اليه انظر أيضا ابن خلدون م ٢ ص ٢٤٧

(٤) ذكرت الهجرات العربية التي حصلت قبيل خراب سد مأرب وبعيده بالتفصيل فى ابن خلدون والطبرى وغيرهما ومنها هجرة الازد وغسان وقضاعة .

(٥) اطلق فى الاصل على قبيلة حميرية ثم نقل الاستعمال حتى صار علما للبلاد التي كانت فيها



١٢ — السيارات تجتاز نفود السر بكل صعوبة



١٣ — واحة تربة

قبيلة لقبيلة أخرى وإما عن ضيق سبل المعاش والسير فى الارض للتحرى عن منتجعات ومراع للانعام، وإما عن الرغبة فى الغزو والفتح. ولذلك فاننا نجد بطونا من قضاعة قد انتقلت من اليمن الى الحجاز وأقامت فيه. وأهم بطون قضاعة جهينة وبلى[1] القبيلتان اللتان ما زالت ديارهما نفس الديار التى أحتلها آباؤهما الاقدمون ممتدة من ينبع الى قرب العقبة شمالا ومن ساحل البحر الى سلسلة جبال الحجاز شرقا. ويقال ان أصل ثقيف من قضاعة، وهنالك عدة بطون من قضاعة كان لها أهم الأثر فى الزمان الذى نبحث الآن فى تاريخه، منها تنوخ من الازد من قضاعة كانت ما بين نجد والحسا ثم انتقلت الى العراق فالشام حيث لاتزال بقايا منها موجودة الى يومنا هذا ومنها سليح التى كانت معروفة باسم الضجاعمة فى الشام. ومنها كلب فانها أنشأت دولة مستقلة فى دومة الجندل حتى تبوك وتيماء[2]

٥ — لخم وجذام والغساسنة

اشتهرت هذه القبائل فى الاماكن التى سكنت فيها بعد رحلتها نهائياً من اواسط الجزيرة وليس من برنامجنا ادخالها هنا الا ان كونها من الدول اليمانية التى هاجرت من اليمن وأقامت فى بعض جهات عسير والحجاز ونجد قبل انتقالها الى الحيرة والشام يجعلنا نشير اليها اشارة بسيطة لاسيما لان الدولتين الكبيرتين دولة الروم ودولة فارس اللتين كانتا مصاقبتين لها استعملتا لها لبسط نفوذهما على سكان الجزيرة العربية وفرض السيطرة عليهم. فالمناذرة اللخميون من البطون القحطانية التى هاجرت أثناء سيل العرم فى القرن الثالث الميلادى الى جهات نجد ثم ذهبت شمالا الى أن استقرت فى الحيرة وأنشأت هنالك دولة المناذرة ربيبة فارس وعميلتها

---

(١) ذكر صاحب صبح الاعشى م ١ ص ٣١٦ ان المشهور من قضاعة سبعة احياء: بلى وجهينة وكلب وعذرة وبهراء ونهد وجرم.

(٢) انظر تفصيل خبر قضاعة فى ابن خلدون م ٢ ص ٢٤٧ — ٢٤٩.

فى اخضاع من والاها من العرب[١] والغساسنة من قحطان أيضاً انتقلوا من اليمن الى جهات الحجاز وعسير ونزلوا فى مكان فيه ماء يُعرف بغسان[٢] فعرفوا بعد رحيلهم عنه به . وكان قدومهم الى الحجاز فى نفس الزمن الذى جاء فيه الازد وقضاعة والاوس والخزرج .

٦ — كندة

نزلت كندة بعد رحيلها عن اليمن فى جهات البحرين وهجر ، غير ان ازدياد شوكة المناذرة أبناء عمومتهم فى جهات العراق وأطراف نجد والبحرين الشمالية وضغطهم عليهم حملهم على هجر البحرين الى حضرموت حيث أقاموا وقتاً غير قصير[٣]. ومعلوم أن التنافس بين البادية والتنازع على المراعى والمياه يؤدى حتما الى الضغائن لاسيما فى سنوات الجدب والقحط . ولذلك فان كندة لم تستطع أن تقيم طويلا فى جوار حمير فى حضرموت ووقعت بين الفريقين حروب انتهت باخراج كندة منها ونزولها فى نجد ثانية . ويذكر المؤرخون لصيرورة أمراء كندة أمراء على كافة نجد وقبائلها العدنانى منها والقحطانى أسباباً كثيرة أهمها نزاع قبائل نجد على الرآسة وعدم اتفاقها على سيادة فريق على فريق فاتفقت الكلمة على تمليك واحد من غيرها وراجعت القبائل حسان بن تبع ملك اليمن فولى عليها زعيم كندة ونزل فى بطن عاقل[٤] . وعظم شأن الحارث بن عمرو ابن حجر حفيد مؤسس دولة كندة وخضعت له العرب ونافس لخما فى الحيرة منافسة جعلت له المكان الاسمى فى عيون القبائل فطلبت منه أن يولى عليها من يريده من أبنائه فأرسل اليها أمراء أمرهم على أسد وغطفان وعلى بكر بن وائل

(١) ابن خلدون م ٢ ص ٢٥٤
(٢) المسعودي ٢٩٨ وابن خلدون م ٢ ص ٥٠
(٣) تاريخ العرب قبل الاسلام ص ٢١٤
(٤) ابن خلدون م ٢ ص ٢٧٢

بأسرها وعلى قبائل قيس غيلان وواحداً منهم على تغلب والنمر وقد استولى هذا الملك أيضاً على الحيرة بموافقة قباذ الفارسي [١] الذى غضب على اللخميين غير أن حكم كندة للحيرة لم يطل واختلف الناس بعد موت الحارث قتيلا من قبل كلب وقاموا على الامراء من أبنائه وأخصهم حجر والد امرئ القيس الشاعر الشهير.
والمظنون أن مدة حكم هذه الدولة لم يطل سوى مئة عام أو أزيد بقليل. فقد بدأت عام ٤٥٠ للميلاد تقريباً وتوفى امرؤ القيس الشاعر حوالى عام ٥٦٠ للميلاد قبل ولادة الرسول ﷺ بوقت قصير، وكانت ولادته فى بلدة مرات بقرب نفود السر.

٧ — الاوس والخزرج

من القبائل القحطانية التى هاجرت من اليمن بعد سيل العرم من كهلان رهط ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر ابن أخى عمران أمير كهلان فى اليمن [٢]. وقد ارتحل هذا الرهط ونزل فى يثرب وكان منه الاوس والخزرج [٣]. ومن المتعذر تعيين زمن وصول هذين البطنين الى المدينة كما أنه من المتعذر معرفة من السابق للاستقرار فيها أهما أم اليهود من بنى قريظة والنضير؟

ويقول صاحب الاغانى ما يفهم منه أن الاوس والخزرج نزلوا على اليهود الذين كانوا هنالك من قبل بزمن طويل وكانت الحال بين الجانبين فى أثناء اقامتهم الاولى حسنة، ويقول السمهودى مؤرخ المدينة « وقد وجد الاوس والخزرج

---

(١) ابن خلدون م ٢ ص ٢٧٢
(٢) ابن خلدون م ٢ ص ٢٨٦
(٣) من أغرب ماسمعت اثناء زيارتى لمدينة انقرة فى صيف عام ١٩٣٢ ان مجلس التاريخ التركي فيها وجد من الدلائل والبراهين ماجعله يعتقد اعتقادا جازما بان هذين البطنين من الاصل الطوراني! وقد كان محدثي، وهو من أشهر رجال تركيا الحديثة، يتكلم بحرارة زائدة وثقة عظيمة فيما يقول.

الاموال والآطام بأيدي اليهود والعدد والقوة معهم فمكثوا ماشاء الله ثم سألوهم أن يعقدوا بينهم جواراً وحلفا يأمن به بعضهم من بعض ويمتنعون به من سواهم فتحالفوا وتعاملوا ولم يزالوا كذلك زمانا طويلا وأثرت الاوس والخزرج وصار لهم مال وعدد وخافت قريظة والنضير أن يغلبوهم على دورهم فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف »[1] ودخل اليهود بين الحيين الى أن تمكنوا من ايجاد نار العداوة والفتنة بينهما فأمنوا بذلك شرهما معا وحصلت بين الاوس والخزرج وقائع عديدة أهمها يوم بعاث وجاء الاسلام والمنافسة بين الجانبين باقية والعداوة بينهم وبين اليهود لم تخمد .

---

(١) وفاء الوفا ص ٨٢

الفصل الثالث

الحكومات الاسماعيلية والعدنانية

الاسماعيليون ـ الانباط ـ الحكومات العدنانية
حكومة مضر

---

١ ـ الاسماعيليون

أصل ابراهيم من بلاد ما بين النهرين [١]، هاجر منها الى فلسطين ومصر ثم قدم فى وقت من الاوقات الى الحجاز وترك فيه ابنه اسماعيل من جاريته هاجر المصرية [٢] فشب اسماعيل وتزوج من جرهم كما ذكرنا ورزق اثنى عشر ولداً كان منهم جذم العرب العظيم عدنان.

وقد ولي اسماعيل زعامة مكة وولاية البيت وخلفه فيهما اثنان من أولاده ثم انتقلت الزعامة الى جرهم وظلت فى أيديهم ـ مع بقاء أولاد اسماعيل ولاة للبيت ـ الى أن كثرت بطون اسماعيل فاتفقت كنانة العدنانية وخزاعة القحطانية

---

(١) أوضحنا فى النبذة ١٣ من الفصل الاول من هذا القسم ان أصل الكلدانيين من جزيرة العرب هاجروا الى مابين النهرين فى الاعصر القديمة وانشأوا فيها دولتهم المعلومة. فابراهيم اذن ليس بغريب عن الحجاز وعودته اليه من قبيل عودة المهاجر الى بلاده الاصلية.

(٢) ذكر الطبري ان ابراهيم جاء الى مكة ثلاث مرات : الاولى ترك فيها هاجر وطفلها اسماعيل والثانية بعد ان أدرك اسماعيل وتزوج من جرهم زيجته الاولى والمرة الثالثة بعد زواج اسماعيل بزوجته سيدة بنت مضاض الجرهمى وفى هذه المرة رفع ابراهيم واسماعيل القواعد من البيت. ذكر هذا فى م ١ ص ١٣١

على انتزاعها من جرهم كما أوضحناه فى موضعه من هذا الكتاب .

وقد سبق لنا أن أوضحنا أيضاً أن نجم عدنان السياسى أخذ يتألق من العصر الذى هاجم فيه بختنصرُ العربَ فى ذات عرق ، وقد كان هذا النفوذ بادىء بدء نفوذاً دينياً أساسه حرمة العرب لولاة البيت من نسل اسماعيل وكون الدين دين ابراهيم جد العدنانية ، ثم حينما ضعف شأن جُرهم ازداد نفوذ كنانة لانها شريكة خزاعة فى طرد جرهم ولذلك رأيناها تقتسم الوظائف الحكومية معها و تنال منها قسطاً غير قليل .

والمعلوم من تاريخ هذه الحقب البعيدة ضئيل جداً لا يمكن الاعتماد عليه ، غير أننا ورثنا منه آثاراً مهمة جداً هى : ١) البيت ، ٢) بئر زمزم ، ٣) مقام اسماعيل ، ٤) المناسك والمشاعر التى قبلها الدين الاسلامى الحنيف .

وما يقال عن تاريخ تلك الأزمنة يقال عن تاريخ نسل اسماعيل وانتشار فروعه وهجرتها الى الشمال والشرق والجنوب .

٢ — الانباط

يقال ان الانباط من أصل نابت بن اسماعيل ، كانوا فى مكة وأطرافها ثم رحلوا عنها الى الشمال بسبب دواع غير معلومة وأقاموا أول أمرهم فى ديار ثمود [١] ، ثم توغلوا فى الشمال الى أن استولوا على بلاد مدين وبلاد الأدوميين ، وأنشأوا لانفسهم مملكة عظيمة ذات مدنية باهرة كانت عاصمتها البطراء فى وادى موسى ولا ندرى زمن هجرتهم من الحجاز الى هذه البلاد غير أن المظنون كونهم استقروا فى مواطنهم الجديدة زمن غزوات بختنصر للاسرائيليين والعرب وقد ورد ذكر قيدار أبناء عم نابت فى سفر أرميا .

(١) واقعة فى وادي القرى من العلا الى تبوك فى شمال الحجاز .

ذكر الرحلة دوتي والمستشرق موزيل ان الكتابات والنقوش وآثار البناء التى عثرا عليها فى مدائن صالح والعلا وبلاد مدين والنوافة هى من أثر الأنباط نظراً لحداثة عهدها وكونها باللغة النبطية .

ولم يرد فى كتب العرب شيء عن الانباط الذين نقصدهم . وانما ذكر المؤرخون قوما يسمون بالانباط كانوا فى صدر الاسلام فى جهات العراق . ولا ندرى الصلة بين هؤلاء وأولئك أهى صلة اسمية أم ان هنالك روابط عرقية تجمعها ومع اننا لاندرى بالدقة ما كان من أمر الانباط قبل حلولهم فى بلادهم الجديدة ولا ما كان من حروبهم التى أسفرت عن استيلائهم على البلاد وطرد سكانها الاصليين منها فان التوراة ذكرت حروب الادوميين لاسرائيل واتفاقهم مع بختنصر ضد الاسرائيليين والعرب فكان من جراء ذلك على مايظهر أن نقم العرب عليهم لمحالفتهم لعدوهم واهتبلوا الفرصة الملائمة للتنكيل بهم وتم لهم ذلك على مايظهر على يد الانباط حوالى القرن الرابع السابق للميلاد . ودامت دولة الانباط الى أن أزالها الفاتحون الرومان عام ١٠٦ بعد الميلاد .

وقد عرف العرب بعد الاسلام مدينة الانباط الكبرى البطراء وسموها الرقيم[1] .

وورد ذكر الانباط باسم الاسماعيليين فى مواضع عديدة من تواريخ المصريين والبابليين والاشوريين والفرس والاسرائيليين . فقد ذكر ديودورس الصقلى أن الملك سزوستريس فرعون مصر الذى حكم حوالى عام ١٣٠٠ قبل الميلاد كان يخشى العرب[2] ولذلك أنشأ خطوط دفاع عظيمة فى صحراء سيناء لصد هجماتهم[3] . وذكرهم سنحاريب واشور بانيبال وبلسيس كما ذكرهم زنوفون وسترابو الا أن

(١) انظر ياقوت والبكرى والمقدسي

(٢) نعتقد ان الاشارة هنا للعمالقة وليس للانباط لان رحلة الانباط من الحجاز تقع بعد معارك بختنصر فهى متأخرة جدا عن هذا التاريخ .

(٣) كريشتون ص ١٠٤

ذكرهم الحقيقي يبدأ على زمن الاسكندر وخليفته بطليموس ثم تكررت الوقائع بينهم و بين الرومان وانتهى الامر بغلبتهم .

وأكثر أسماء ملوك الانباط أسماء عربية صريحة منها الحارث وعبادة ومالك والذى عرف من تاريخهم يدل على تمدنهم ورقيهم ، فقد شادوا القصور وعمروا الآثار وسكوا النقود باسمهم واستوزروا الوزراء ، وعلى الاجمال كانوا مملكة مستقلة لها جميع خواص الملك ومميزاته [1] .

٣ — حكومات قبائل عدنان

أدى تكاثر نسل عدنان وتوالده الى نشوء قبائل عديدة اقتسمت البلاد العربية فيما بينها . وصارت القبيلة حكومة مصغرة أساس كيانها السياسى الوحدة العصبية والمنافع المتبادلة فى حماية الأرض ودفع العدوان عنها . ولم تنجح هذه القبائل فى انشاء المدن وتأسيس الممالك بل كان اجتماعها اجتماعاً بدوياً القصد منه التعاضد والتآلف ضد العدو فى مراتع القبيلة وصد هجمات المغيرين عنها .

وأهم حكومات هذه القبائل أورده العلامة الحكيم ابن خلدون [2] فى كتابه وقد لخصنا عنه أخبار الحكومات القبائلية الآتية :

الاولى : حكومة أنمار التى أنشئت على أثر رحيل قبيلة أنمار من تهامة الحجاز الى سراة عسير بين الحجاز واليمن وبقى من آثارها قبيلتا خثعم وبجيلة [3] .

الثانية : حكومة إياد بن نزار بن معدّ فانها تنازعت السلطة فى الحرم وما

---

(١) فى تاريخ العرب قبل الاسلام لزيدان بحث طويل عن الانباط ومملكتهم ورقيهم من صفحة ٦٨ — ٨٣ وكتب المستشرق موزيل مجلدا ضخما عن رحلاته فى بلاد الانباط اسماه العربية الحجرية Arabia Patrea

(٢) ابن خلدون م ٢ ص ٣٠ وما يليها .

(٣) انظر بحث القبائل العربية فيما تقدم .

جاوره مع ربيعة ومضر واضطرت آخر الامر الى الرحيل عن الحجاز الى جهات العراق[1] ووقعت بينها وبين الفرس وقائع كان آخرها على يد الملك سابور ذى الاكتاف فانه استلحمهم وأفناهم .

الثالثة : حكومة ربيعة ، وهى من أعظم الحكومات العدنانية وأقواها . فقد تنازعت السلطة وقتاً طويلا على الحجاز مع حكومة مضر ، ثم انها بعد نزوحها عن الحجاز استولت على أماكن عديدة فى الجزيرة منها نجد والبحرين وهجر . وهذه الحكومة هى أولى الحكومات العدنانية التى نجحت فى رفع نير الحكومات القحطانية عن نجد بزعامة كليب سيد وائل .

ومن بقايا ربيعة التى ما تزال الى يومنا هذا عظيمة الجانب منيعته قبيلة عنزة بكاملها ، ومنها آل سعود الذين منهم الملك عبد العزيز آل سعود ملك البلاد العربية السعودية .

الرابعة : حكومة مُضَر التى آثرنا ذكرها فى نبذة مستقلة ويكفيها شرفا أن منها الرسول الأعظم ﷺ .

٤ — حكومة مضر

استقلت قبائل مضر بعد نزوح ربيعة بسائر الحجاز ، وانتشرت فروعها وأفخاذها فى أطرافه . وكان منها حيان مشهوران خِندِف وقَيس غيلان وغالب الحيين بدو رعاة إلا من كان فى مكة وأطرافها . ولذلك فان تاريخ حكومة مضر يكاد ينحصر فى مكة وما كان فيها وفيما جاورها من الاحداث .

---

(١) ذكر ابن خلدون ان ايادا حينما رحلوا عن الحرم قلعوا الحجر الاسود ودفنوه فى بعض المواضع فاستدلت خزاعة عليه وارجع الى مكانه م ٢ ص ٣٣٣ .

وقد ازدهرت مكة على أيام حكومة مضر وأصبح لها شأن عظيم ما زال لها الى يومنا هذا ويبدأ تاريخها الفعلى بقيام قُصَىّ بن كِلاب على حكومة خُزاعة واستئثاره دونها بمقاليد الحكم وبولاية البيت .

أما قيام قصى فالمتواتر فى كتب العرب عنه هو أنه فى أيام خزاعة كان لمضر ثلاث خصال الاولى : الاجازة بالناس يوم عرفة . والثانى : الافاضة بهم غداة النحر من جَمْع الى مِنَى . والثالث : نسء الشهور الحرم [١] . غير أن قصياً تمكن من التقرب الى حُلَيل كبير خزاعة وتزوج ابنته وصار له عنده مقام جعله يؤثره على ولده ، فأوصى له بولاية البيت من بعده . ويروى فى ذلك خبر آخر هو أن قصياً اشترى المفتاح من أبى غبشان بن حليل بزق خمر ، وولى قصى البيت وقر بمكة وجمع قريشاً حوله وأقطعها مواضعها التى كانت لها حين ظهور الاسلام .

قال ابن خلدون : « فصار له (أى قصى) لواء الحرب وحجابة البيت وتيمنت قريش برأيه فصرفوا مشورتهم اليه فى قليل أمورهم وكثيرها . فاتخذوا دار الندوة[٢] إزاء الكعبة فى مشاوراتهم وجعل بابها الى المسجد فكانت مجتمع الملأ من قريش فى مشاوراتهم ومعاقدهم ، ثم تصدّى لاطعام الحاج وسقايته لما رأى أنهم ضيف الله وزوار بيته ، وفرض على قريش خراجاً يؤدونه اليه زيادة على ذلك كانوا يردفونه به ، فحاز شرفهم كلهم . وكانت الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء له [٣] . »

فبعد وفاة قصى خلفه فى أمور الحكومة ابنه عبد الدار ، وفى أمور الدين ابنه عبدُ مناف . ونشأ بين نسل الفريقين تنافس شديد أدى الى قسمة الوظائف.

---

(١) ابن خلدون م ٢ ص ٣٣٣ .
(٢) كانت موضع مقام الحنفى مقابل الكعبة من الشمال .
(٣) ابن خلدون م ٢ ص ٣٣٥

الحكومية هذه على بيوت قريش المختلفة وجُعلت السقاية والرفادة لبنى عبد مناف كما جعلت الحجابة واللواء لبنى عبد الدار .

وقد حفرت زمزم على عهد عبد المطلب جد رسول الله ﷺ وكانت جُرهُم طمرتها يوم خروجها من مكة ، كما ذكرناه فى موضعه . وفى زمانه حصلت غزوة الحبشة على مكة بقيادة أبرهة ودلالة أبى رغال الهذلى . فأهلكها الله فى وادى النار ما بين مكة وعرفات . وفى تلك السنة ولد سيد الكائنات ﷺ عام ٥٧١ للميلاد المسيحى .

وقد جاء الاسلام وحكومة مضر فى مكة على النحو الذى أسلفنا ولم يكن لها فى أطراف الجهات الا نفوذ دينى يخالطه بعض السلطان الدنيوى .

الفصل الرابع

غزو الأجانب للبلاد

استقلال العرب الدائمى ـ المصريون ـ بابل واشور ـ الفرس
الاغريق والرومان ـ اليهود ـ الاحباش .

١ — استقلال العرب الدائمى

ظلت هذه البلاد فى غالب عصورها بعيدة عن مداخلة الاجنبي ، مستقلة تمام الاستقلال فى شؤونها لا يهددها فاتح ولا ينتهك حرماتها غالب . وقد قضت طبيعة تكوينها بأن تكون مصدراً للفاتحين والغزاة ، ومنبعاً لتغذية البلاد المجاورة لها بالسكان الذين تبعثهم بين فترة وأخرى . وفضلا عن ذلك فانه لا يوجد فيها ما يشتهي الفاتح الاجنبى الحصول عليه أو يأمل فى نواله .

وهذه القاعدة أصبحت حقيقه ثابتة تصدق على جميع أدوار البلاد التاريخية وأطوارها الاجتماعية . نعم اننا لا ننكر وجود محاولات عديدة قام بها الفاتحون الاقدمون بقصد استعبادها أو نوال خيراتها الا أن محاولاتهم ظلت عقيمة لم تثمر للقائمين بها ما حلموا به ، أو طمعوا فى الحصول عليه ، ولم يدم فتح الأجنبى لصقع من أصقاعها الا برهة يسيرة مرت مرور السحاب .

هنالك فتح واحد اجتماعى وعرقى ـ يصح من حيث نتائجه أن ندعوه فتحاً بيناً بالرغم عن أن حقيقته تختلف عن الفتوح المعهودة ـ ذلك هو الفتح الاسماعيلى

الذى تمكن فى البلاد و بعث لها منه الأقوام العدنانية . غير أننا اذا نظرنا الى أن مهد الساميين فى جزيرة العرب ، وان الكلدانيين من العرب البائدة الذين هاجروا فى أزمنة ما قبل التاريخ من بلاد العرب ، الى العراق ، وان ابراهيم الخليل قد أرجع ابنه اسماعيل الى مهد آبائه وأجداده ، فاننا عندئذ لايمكننا أن نعتبر قدوم اسماعيل الى مكة فتحاً فهو لم يحضر بقوة السيف وانما جاء مهاجراً الى وطنه الاصلى وترك نسله فيه .

٢ — المصريون

بالرغم عن امتداد سيطرة فراعنة مصر الى معظم الأنحاء المجاورة لهم ، فانهم لم يتمكنوا من فتح هذا القسم من بلاد العرب ولا اخضاع أهله الى سلطانهم .

ذكر الدكتور بروكش (١) أن الغزوات بين المصريين وعرب الجزيرة كانت متقابلة منذ عهد مينا الاول مؤسس الحكم الفرعونى .

وقد نقلنا حين بحثنا عن العمالقة ما ذكره يوسيفوس اليهودى عن هجوم الرعاة على مصر واستيلائهم على الوجه البحرى منها وانشائهم حكومة فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد عاصرت ست عائلات من العائلات الفرعونية . وبعد طرد الرعاة من مصر شرع المصريون فى تجريد حملات تأديبية على سائر العرب المجاورين لهم بقيادة أحمس مؤسس العائلة المصرية الثامنة عشرة حوالى عام ١٧٠٠ قبل الميلاد ، وتمكن تحتمس الثالث فى القرن التالى من فتح أعالى البلاد العربية .

وروى ديودورس الصقلى أن الملك سيزوستريس كان يخشى غزوات العرب

---

(١) مجلد ١ صفحة ٥١٦

على مصر فانشأ سلسلة من خطوط الدفاع فى برية سينا وكان ذلك حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

وأعظم الفراعنة توغلا فى بلاد العرب رعسيس الثالث ، فانه غزا بلاد العرب من شمالها وجهز عليها حملة بحرية من البحر الاحمر أيضاً ، وكان غرضه من ذلك اخضاع العرب أولا وتأمين طريق القوافل من المحيط الهندى الى مصر ثانياً .

٣ — بابل واشور

غزا الملك كدرلعومر ملك عيلام شمال الحجاز على زمن ابراهيم الخليل وقد أشرنا الى هذه الغزوة من قبل فى النبذة العائدة لمدين والعمالقة [١] .

وفى القرن التاسع قبل الميلاد غزا الملك تغلات بلصر الاشورى شمال بلاد العرب ونكل بالقبائل العربية الموجودة هنالك [٢] .

وبعد ذلك بنحو قرن حمل سرجون الثانى على العرب المقيمين فى شمال الحجاز ونكل بهم لاعتدائهم على المستعمرات التى كان يحميها فى فلسطين ، ونقل قسما منهم الى قرب عسقلان وأسكنهم فيها وفى السامرة [٣] .

وحينما خلفه سنحاريب فى الملك سار على خطته فى تأديب العرب الذين كانوا يهددون طريق القوافل . ونقل زيدان فى كتابه تاريخ العرب قبل الاسلام أخبار غزوات أشورية قام بها بعد ذلك الملك أسرحدون واشوربانيبال فى جهات خليج فارس وخليج العقبة فى القرن السابع قبل الميلاد .

وقد اقتصرت الحملات البابلية الاشورية السالفة الذكر على تأديب القبائل

---

(١) انظر سفر التكوين ص ١٤ عدد ٦ والنبذة عن العمالقة ومدين .
(٢) نقلة زيدان عن رولنسون ص ٩٧
(٣) انظر ما نقلناه فى النبذة الخاصة بثمود .

العربية التى كانت فى أطراف الجزيرة من شمالها ولم تتوغل فى داخل الصحراء حتى كان زمن بختنصر فانه تقدم بقواته الى الحجاز حتى بلغ ذات عرق مهل أهل العراق للاحرام ووقعت بينه وبين العرب بقيادة عدنان جد العدنانية حرب شديدة دارت فيها الدوائر على العرب الأن نتائجها بالنسبة للاشوريين لم تكن مهمة أيضاً.

ولم يعرف مؤرخو العرب من غزوات بابل وأشور الا غزو بختنصر[1] هذا ، لان أخبار الغزوات الاخرى لم تعلم حتى الازمنة الاخيرة بعد العثور على قطع الآجر الذى دونت عليه أعمال الفاتحين الاشوريين فى خرابات بابل ونينوى .

ذكر الطبرى[2] غزوة بختنصر وكيفية حصولها فقال : انها بدأت بحجز المذكور للعرب الموجودين فى بلاده وحبسه لهم فى العراق . ثم انه بعد انتهائه من خراب هيكل اليهود فى بيت المقدس توجه الى الجنوب لغزو بلاد العرب ، فوصل الى ذات عرق حيث التقى بقوات القبائل المجتمعة بقيادة عدنان . وأسفرت المعركة عن انكسار قوات العرب فارتحلوا هاربين الى حضورا ، ولحقهم بختنصر اليها. ولم يقع بين الفريقين قتال فانصرف الاشورى الى بلاده دون طائل . وكان ذلك مقدمة لتسلط معد بن عدنان على سائر العرب واستئثاره بزعامتهم دون جرهم والعمالقة .

٤ — الفرس

بعد استيلاء قورش الفارسى على مملكة أشور وجد نفسه مجاوراً للقبائل العربية المستوطنة فى بادية العراق وما والاها . قال ابن خلدون فى حديثه عن ازدشير « ثم رجع الى أمر العرب وكانت بيوتهم على ريف العراق ينزلون الحيرة وكانوا ثلاث فرق الاولى تنوخ ومنهم قضاعة.. والثانية العباد الذين كانوا يسكنون

(١) انظر الطبرى م ١ ص ٢٩١ وابن خلدون م ٢ ص ١٠ .
(٢) « « م ١ ص ٢٩١

الحيرة وأوطنوها ، والثالثة الاحلاف الذين نزلوا بهم من غير نسبهم » [١]

وقد استعمل ملوك فارس هذه القبائل العربية فى حروبهم العديدة فى سوريا ومصر وبلاد اليونان . ولكن العرب شقوا عصا الطاعة على الفرس زمن سابور ابن ازدشير . فكان من نتيجة ذلك أن جهز سابور حملة عظيمة لتدويخهم فى بلادهم ومواطنهم . فتقدم من مشارف العراق الى البحرين ووصل الى الحسا والقطيف وديار ربيعة فى قلب نجد عند وادى اليمامة .

وسمى سابور هذا ، ذا الاكتاف لانه كان يخلع أكتاف العرب الذين يقعون تحت طائلة يده . قال ابن خلدون نقلا عن السهلى « انه كان يخلع أكتاف العرب ولذلك لقبه العرب ذا الاكتاف وأنه أخذ عمرو بن تميم بأرضهم بالبحرين وأنه قال انما أقتلكم معاشر العرب لانكم تزعمون أن لكم دولة فقال له عمرو بن تميم : ليس هذا من الحزم أيها الملك فان يكن حقا فليس قتالك إياهم بدافعه وتكون قد اتخذت يدا عندهم ينتفع بها ولدك وأعقاب قومه [٢] » .

ولم يتوغل الفرس بعد سابور فى بلاد العرب لمخاطرها وكثرة مفاوزها ولكنهم كانوا يستعملون عرب العراق المجاورين لهم ضد اخوانهم عرب الجزيرة وكانوا يحكمون هؤلاء بأولئك .

٥ — الاغريق والرومان

لم يحاول الاغريق فتح بلاد العرب . ويروى أن الاسكندر المكدونى كان ينتوى ذلك فلم تمهله منيته . وكانت حال خلفائه فى مصر وسوريا غير مساعدة لهم على زيادة التوغل فى البادية .

وظل الرومان بعيدين عن العرب الى أن اتسعت رقعة ملكهم بافتتاح مصر

---

(١) ابن خلدون م ٢ ص ١٧٠
(٢) ابن خلدون م ٢ ص ١٧٣

وسوريا وضمها الى روما فجاوروا الانباط فى شمال الجزيرة ثم حاربوهم واستولوا على بلادهم فى البطراء ومايواليها من المقاطعات فى شمال الحجاز عام ١٠٦ بعد الميلاد .

لم يحاول الرومان الايغال فى داخل البلاد العربية حتى زمن الامبراطور اغسطس قيصر أوكتافيانوس . فقد طمع أحد ولاته على مصر المدعو أليوس غَالُوس بما كان يسمعه عن خيرات بلاد العرب وكثرة ذهبها فجرد عليها حملة عظيمة قادها بنفسه وكان مرشده فيها بعض خونة العرب من أنباط الشمال . وقد جهل مؤرخو العرب أخبار هذه الغزوة فلم يذكرها أحد منهم . واورد سترابو صديق القائد غالوس تفاصيل الحملة على الوجه الآتى :

أتم غالوس معداته للرحيل بعد جهد وتعب عظيمين ، فانه أنشأ عمارة بحرية مؤلفة من ٨٠ سفينة كبيرة و ١٣٠ ساعية وجعل فيها عشرة آلاف رومانى والف نبطى و ٥٠٠ اسرائيلى . وتحركت العمارة من السويس يرشدها سيليوس النبطى أحد قواد عبادة ملك الأنباط فوصلت الى المويلح بعد أن خسرت عدداً غير قليل من السفن والرجال . ثم سارت الحملة براً فوصلت بعد مسيرة ثمانين يوما الى نجران واحتلتها بعد حرب شديدة . وسار أليوس غالوس من نجران مدة ستة أيام أخرى فوصل الى بلدة مأرب وحاصرها وافتتحها عنوة بعد أن قتل من أهلها ما يقرب من عشرة آلاف ، وقد بلغه حينما كان فى مأرب أن على مسيرة يومين مدناً عامرة يخرج منها المرّ واللّبْدَن . فعزم على فتحها غير أن الغربة وطول مدة السفر والفاقة أنهكت قوى جنده وظهر التذمر بينهم فاضطر الى العودة الى نجران وسار منها الى الحجر (مدائن صالح) فوصلها فى ٦٠ يوما ، وانطلق من الحجر الى شاطىء البحر ثم اجتاز الى العدوة المصرية فى ١١ يوما أخرى . وقد لقى

غالوس وجنده من المصاعب ما جعله يعتقد أن الدليل النبطى خانه فاستصحبه معه الى روما حيث حوكم وأعدم بسبب خيانته[1] .

ويختلف المؤرخون فى البلدة التى وصلت اليها حملة اليوس غاليوس ، ولكن يفهم من كتابات سترابو وبلينى ووصفهما لمصاعب الطريق وطولها والمسافة التى استغرقها السير اليها أنها مدينة مأرب فى الجوف بلاد المعينيين .

ويوجد مَن يروى خبر وصول غالوس بحملته حين العودة الى أواسط نجد بقرب بلدة سَدُوس وانه أحدث فيها أثراً رومانياً ظلت بقاياه الى الاعصر الأخيرة ثم لاشاه السكان .

ويروى أيضاً أن الحملة مرت بقرب الطائف فى طريقها الى الجنوب واطلقت اسم غرُنيت على جبل الشفا تشبيهاً له بشكل التاج .

٦ — اليهود

لليهود ثلاثة أدوار مثلوها فى الجزيرة ، الدور الاول : هجرة قبائل شمعون ، من فلسطين الى شمال الحجاز[2] قبل عهد الملك داود ، ثم تلى ذلك فتوح الملك سليمان بن داود فى قلب الجزيرة وجنوبها . قال ابن خلدون : « وفى الاخبار للمؤرخين أنه (يقصد سليمان) تجهز للحج فوافى الحرم وأقام به ما شاء الله .... ثم سما الى ملك اليمن وسار اليه فوافى صنعاء من يومه[3] » .

وزاد ابن خلدون على ذلك فقال : ان علماء بنى اسرائيل ينكرون وصوله الى الحجاز واليمن وانما ملك اليمن عندهم بمراسلة ملكة سبأ .

(١) كريشتون ص ١٠٧ — ١٠٨ وهوغارث ص ١٢ — ١٤ .
(٢) أخبار الايام الاول اصحاح ٤ فقرة ٣٨ — ٤٣ .
(٣) ابن خلدون م ٢ ص ٩٨ .

الدور الثانى : هو الذى كان على عهد الفتوح البابلية والاشورية فى فلسطين فقد نشأ عن الضغط على اليهود وعن تخريب بلادهم وتدمير هيكلهم على يد الملك بختنصر، وسبى أكثرهم الى بابل ، ان قسما منهم هجر البلاد الفلسطينية الى الحجاز وتوطن فى ربوعها الشمالية .

والدور الثالث : يبدأ من احتلال الرومان لفلسطين فى القرن الميلادى الاول فقد نشأ عن ضغط الرومان على اليهود وعن تخريب الهيكل وتدميره ، وعن اغراق عدد كبير من اليهود فى بحيرة لوط بأمر القائد الرومانى تيطس فى السنة ٧٠ بعد الميلاد ، ان قبائل يهودية عديدة رحلت الى الحجاز وسكنت فى جوار اليهود الاولين الذين هاجروا فى الدور الثانى . وقد استقرت القبائل اليهودية الجديدة في يثرب وخيبر وتيماء وأنشأت فيها القرى والآطام والقلاع وأصبح لها شأن يذكر فى الحوادث السياسية التى سبقت ظهور الاسلام والتى حدثت فى صدره . وحينما جاء الاسلام كانت القبائل اليهودية المشهورة هى خيبر والنضير والمصطلق وقريظة وقينقاع . وذكر السمهودى فى كتابه وفاء الوفا ان عدد القبائل اليهودية يزيد عن العشرين[1] .

وقد كان لليهود أثر واضح فى ادخال الديانة الموسوية الى قلب الجزيرة وكان من جراء ذلك نقمة النصرانية الناشطة الى الفتح والتوسع تحت قيادة امبراطرة الرومان على بلاد العرب وتحريض الاحباش على غزو اليمن وفتحه والتجهيز على الحجاز لفتح مكة وهدم الكعبة كما سنبينه فى النبذة الآتية .

٧ — الاحباش

الصلات بين الجزء الجنوبى الغربى من جزيرة العرب وبين الحبشة والعدوة

---

(١) وفاء الوفا ص ١١٦

الافريقية قديمة وقوية معا. وكان من قوتها وقدمها ماحمل كثيرين من العلماء على الاعتقاد بأن مهد الساميين فى الحبشة[1]. وقد اعتنقت الحبشة النصرانيـة ومنها انتقلت على الغالب الى اليمن فى وقت كانت اليهودية عاملة فيه على التوسع والانتشار. فاصطدمت الديانتان اصطداماً أدى الى مداخلة الحبشة النصرانية ربيبة روما فى شئون اليمن فافتتحه القائد ارياط باسم النجاشي[2].

وتولى حكم اليمن بعد ارياط، ابرهة الاشرم الذى أراد أن يصرف العرب عن بيت الله بمكة الى كنيسة بناها فى صنعاء وحينما رأى أن العرب لن تنصرف الى كنيسته القليس، حلف ليسيرَنَّ الى البيت ليهدمه[3]. وسار أبرهة بمن عنده من الجند فى اليمن قاصداً مكة وقد حاربه فى طريقه اليها كثيرون من العرب منهم ذو نفر الحميرى ونفيل بن حبيب الخثعمى فى قومه شهران وناهس فأسر الاول واستأجر الثانى دليلا يرشده[4].

وحينما وصل الى الطائف خرجت اليـه ثقيف ترجوه أن يترك لها صنمها اللات مقابل ارشاده الى مكة فقبل منها ذلك ورافقه من ثقيف أبو رغال الخائن حتى وصل الى مكان اسمه المُغَمَّس[5] فمات فيه وقبره ترجمه العرب.

وأرسل أبرهة سَرِيَّةً نهبت أموال قريش فثارت ثائرة قريش وكنانة وهذيل وعزمت على حربه. ثم علمت أنها لاتقدر عليه فتركت ذلك. وبعث أبرهة الى

---

(١) انظر بحث أصول السكان فى القسم الثانى من الكتاب
(٢) ابن خلدون م ٢ ص ٦٠ والطبري م ٢ ص ١٠٦
(٣) الطبري م ٢ ص ١١٠ وابن خلدون م ٢ ص ١٠٦
(٤) الطبريّ م ٢ ص ١١١
(٥) قال ياقوت مجلد ٨ ص ١٠ المغمس موضع قرب مكة فى طريق الطائف ... مات فيه ابو رغال وهو على ثلثي فرسخ من مكة

أهل مكة انه لا يريد بهم شرا ولكنه يريدهدم البيت . فلم تقو قريش على مجابهته وتركت الامر لله واعتصمت بالجبال .[١]

وسلط الله على الاحباش أعاصير قوية وسيولا وأبابيل قبل دخولهم الى مكة فأهلكت منهم خلقاً عظيما وخاف الآخرون ففروا يتلمسون طريقهم التى قدموا منها وانتهت الغزوة الحبشية بنهاية فجيعة ونالت قريش بسببها مكانة عظمى . وفى تلك السنة ولد الرسول الاعظم ﷺ .

---

(١) الطبرى ٢ ص ١١٢ — ١١٣

الفصل الخامس

احوال العرب فى الجاهلية

الحالة الدينية ـ الحالة الاجتماعية ـ الحالة السياسية

١ ـ الحالة الدينية

كان أهل الجاهلية قُبيل الاسلام يدّعون أنهم على دين ابراهيم الخليل ، وهو الدين الحنيف الذى دعاهم اسماعيل أبو العدنانية اليه ثم جاء النبى ﷺ مجدداً له .

بيد أنهم كانوا بعيدين عن نواهى شريعة ابراهيم ومهملين ما أتت به من مكارم الاخلاق والدعوة التوحيدية الخالصة لوجه الله ، فكثرت معاصيهم واتخذوا وسطاء يتقربون بالزلفى اليه عن طريقهم كما قال الله تعالى فى القرآن « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيقَرِّبونا إلى اللهِ زُلْفَى » فانقلبوا عبدة أصنام ليس لهم من ديانة إبراهيم إلا بعض المراسم والمناسك مثل الحج والطواف والسعى والوقوف بعرفة أو بمزدلفة ورمى الجمار والنحر ، وكانوا يعظمون الكعبة ويتبارون فى تزيينها وتكريمها ، ونصبوا عليها بعض أصنامهم وعلقوا عليها غرر قصائدهم وكان منهم أفراد قليلون يوحدون الله توحيداً خالصاً على طريقة ابراهيم دون أن ينغمسوا فى عبادة الاوثان والاصنام .

وانتشرت الديانة اليهودية بين قسم منهم فى أوائل القرون الميلادية عن طريق

مهاجرة اليهود الذين حلوا فى يثرب وشمال الحجاز وكان لها أثر واضح فى الحياة الدينية فى العصور التى تقدمت البعثة ، حتى أن أحد ملوك التبابعة الحميريين وهو ذو نواس هاد وهوّد أكثر أتباعه .

وأما الديانة النصرانية فقد جاءت الى بلاد العرب عن طريق الحبشة وطريق الرومان ، ولكنها لم تنل من قلوب العرب مبلغاً عظيما لبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التى ألفوها والتى هى خاصة مخصوصة بهم لا يستطيعون الابتعاد عنها .

وأما أصنام العرب فانها كثيرة وكان لكل قبيلة صنم تتقرب به الى المعبود بلغ عدد ما كان فى الكعبة من الاصنام على ما يقال أكثر من ثلاثمائة وستين صنما وأشهرها عند العرب اللات والعُزّى ومَناة والهُبَل الأكبر وَود وسُواع ويَغوث ويَعوق ، ورافق عبادة الاصنام ما ينشأ عادة بين الوثنيين من عوائد وهمية أصبحت على توالى الازمان جزءاً متمما لما كانوا عليه من اعتقاد وجرت هذه العوائد مجرى الخرافات الدينية وأثرت فى الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيراً بالغاً جداً .

٢ — الحالة الاجتماعية

كان السلطان السائد فى الحياة الاجتماعية فى الجاهلية سلطان القوة القاهرة المستندة على قوة العضل والعصبية . وكان يخفف من حدتها وصرامتها الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين الدين والخرافة ، وتدعمها العصبية الجنسية وما تستلزمه ضرورات الاجتماع البدوى من شرائط مخصوصة لاتقوم الا بها .

ومن أبلغ الامور فى تكييف الحياة الاجتماعية وطبعها بطابعها المخصوص ما كان وجوده ضروريا من التنافس والتنازع على مادة الحياة فى بلاد فقيرة مجدبة ، والرغبة فى اكتساب المفاخر وحسن الذكر ، والاخذ بالثار وتجنب العار والفاقة والضعة ، وحب السؤدد والرياسة والكرم والشجاعة والنجدة ، ونصرة المظلوم

والوفاء والاعتراف بالجميل .

وأساس النظام الاجتماعى فى الجاهلية العصبية الجنسية والرحم . وفى بعض الحالات كان الحلف والموالاة والتبعية نغنى عن ذلك ، وفى حالات أخرى كانت العقيدة وما هو فى معنى الدين سببا كافيا للاجتماع .

قال صاحب صبح الاعشى [1] ان ما كانت عليه العرب فى الجاهلية قد يكون على وجه من ثلاثة وجوه : الاول ما يجرى مجرى الديانات ، والثانى ما يجرى مجرى الاصطلاحات والعادات ، والثالث ما يجرى مجرى الخرافات والاوهام . وقد جاء الاسلام بإبطال ذلك كله ونذكر منه أشهره :

فالكهانة طريقة للاخبار عن أمور غيبية ماضية أو مستقبلة .

والزجر والطيرة انتواء العمل الذي يماثل حركة اصطلح على أنها المقصودة بحركة طائر أو غراب .

والميسر والقداح ضرب من ضروب القمار كانوا يقتسمون به لحم الجزور التى يذبحونها بحسب القداح .

والازلام نوع من الطِّيرة تعمل بواسطة القداح التى يكتب عليها ما يقصد عمله أو ضده .

والبَحيرة والسائبة والوسيلة والحامى امور خاصة بالحيوانات وخصوصا الابل اذا تم لها امر معين مثل ولادة بطون بمعينة او بلوغ سن مخصوصة .

ونكاح المقت وهو زواج الرجل زوجة أبيه .

ومنها رمى البعرة على الزوجة التى يموت بعلها ، ومنها قتل البنات خشية العار أو الاولاد خشية الفقر .

ومنها الهامة وهى طريقة خاصة بأخذ الثأر . ومنهاتصفيق من يضل فى البادية .

ومنها ضرب الثور وتعليق كعب الارنب .

---

(١) صبح الاعشى م ١ ص ٣٩٨

ومنها استعمال طرق مخصوصة فى انارة النيران للدلالة على أى نوع هو المقصود منها بالذات و نيران العرب ثلاثة عشر منها المُزدلفة التى توقد لهداية الحاج من عرفة الى مزدلفة ، ونار الحلف والاستمطار والطرد والحرب والصيد والقرى والغداء.

ومن أهم عادات العرب المناظرة وانشاد الشعر والمفاخرة .

ومنها الاجتماع فى مواسم مخصوصة فى أسواق معلومة يقيمونها فى أماكن معينة لتبادل السلع وحل الخصومات وقول الشعر وفداء الاسرى . وأهم الأسواق : دومة الجندل (١) وذو المجاز (٢) والمجنة (٣) وعكاظ (٤) وهو أشهرها .

ومن عادات العرب التى أبطلها الاسلام النسيء أى تأخير شهر من الأشهر الحرم الى شهر حل أو الغاؤه جملة .

ومنها عدم التقيد بحد محدود فى الزواج والتبنى والتسرى .

٣ — الحالة السياسية

كانت الاقطار المجاورة للبلاد العربية خاضعة لنفوذ ثلاث حكومات قوية قاسرة : الروم وهم متسلطون على الشام ومشارفه حتى شمال هذه البلاد ، والفرس وهم متسلطون على العراق وماجاورها من البلاد العربية ، والأحباش وهم متسلطون على اليمن . وكانت حالة تلك الاقطار السياسية فى تضعضع وانحطاط لامزيد عليه وعرب الجزيرة مذبذبون تتقاذفهم الاهواء والاغراض ، مرة يدخلون فى أهل العراق ومرة فى أهل الشام ، ولم يكن لهم فى أواسط جزيرتهم مُلك يدعم استقلالهم أو مرجع يرجعون اليه ويعتمدون وقت الشدائد عليه ، وكانت أحوال القبائل

(١) الجوف فى وادي السرحان .
(٢) موضع سوق بعرفة على ناحية جبل كبكب .
(٣) سوق بموضع مر الظهران أي وادي فاطمة بقرب مكة .
(٤) قال ياقوت عن الاصمعى : نخل فى واد بينه وبين الطائف ليلة وبين مكة ثلاث ليال .

مفككة الاوصال تغلب عليها المنازعات القبائلية والاختلافات العنصرية والدينية
ولهم فى الحجاز حكومة لحماية الحرم والمحافظة على أصنام العرب وأوثانها وتسهيل الحج
وخدمة الحرم والبيت ولكنها كانت ضعيفة لا تقدر على حمل العبء كما وضح يوم
غزو الاحباش . وقد شعر كثيرون منهم بضعفهم السياسى وحاجتهم الى مدبر قدير
يقوم على تعهد كيانهم ودفع العدوان عنهم . وظهر ذلك الشعور على أتمه يوم
غزو أبرهة الحبشى للحرم المكى حين اجتمعت العرب من جميع الأقطار ، لافرق
بين العدنانى والقحطانى و وحدت كلمتها تحت زعامة شيخ قريش المسيطر على الحرم
لرد عادية ذلك الفاتح عنهم .

وقد كان من أثر ذلك ظهور رغبة القبائل لتناسى الاحقاد القبائلية ، وترك
النعرات المختلفة والتمسك بحبل العروبة المكين . فذهب وفد من قريش بزعامة
عبد المطلب الى اليمن لتهنئة اخوانه الحميريين بخلاصهم من ربقة الاحباش وشكر
الفرس على ما قدموا من مساعدة للوصول الى ذلك الغرض .

أما حكومة قريش فى مكة المكرمة فكانت فى الحقيقة خليطا من الزعامة
الدينية والصدارة الدنيوية والحكومية . حكمت بين العرب ونشرت نفوذها عليهم
باسم الزعامة الدينية وحرمة الكعبة والحرم الشريف . وحكمت فى الحرم وما والاه
بصفتها حكومة تشرف على مصالح الوافدين الى البيت وتنفذ حكم شريعة ابراهيم
فيه . وحكمت على مكة بصفتها سادنة البيت ومسؤولة عن تسهيل سبيل الناس الى
الحج . وكانت لها من الدوائر والتشكيلات الحكومية ما يشابه فى عصرنا هذا
الوزارات والادارات والمصالح . فكانت هناك سدانة الكعبة يتولاها حى من
أحياء قريش وهنالك رئاسة دار الندوة التى تشبه فى وقتنا الحاضر مجلساً من
المجالس الادارية والبرلمانية . وهناك وظائف متعددة : من قيادة الجيوش ، وحمل

اللواء ، والعناية بالحاج من سقاية ورفادة ، الى دائرة لحل المنازعات القضائية والحكم بين الناس فى مصالحهم وغير ذلك من الوظائف .

واذا استثنينا هذه الحكومة وجدنا أن سائر عرب المملكة كانوا فى حال من التفكك السياسى والتشتت الاجتماعى يستحيل معه دوام الامر الى ما شاء الله وكان الناس كشأنهم فى جميع أوقات الشدائد يفتشون عن مخرج يلجون منه ويأملون فى حصول تبدل فى حياتهم ينجيهم من شرور ما هم فيه . وتم ذلك لهم ببعثة سيد المرسلين ، صلوات الله عليه .

الفصل السادس

محمد ﷺ والاسلام

الدور الاول — من البعثة الى الهجرة — من الهجرة الى الفتح — من الفتح الى الوفاة — الاسلام والقرآن

---

١ — الدور الاول من ولادته الى البعثة

ولد رسول الله ﷺ فى ١٢ ربيع الاول من عام الفيـل [١] الموافق لسنة ٥٧ من ميلاد عيسى عليه السلام . وهو محمـد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف من قبيلة قريش من مضر وينتهى نسبه الى عدنان فاسماعيل وأمه آمنة بنت وهب . وقد توفى أبوه قبل ولادته ببضعة أشهر ولم يخلف له من المال إلا الشيء اليسير فنشأ يتيما . ثم سلم الى احدى نساء بنى سعد المسماة حليمـة بنت أبى ذؤيب لارضاعه فبقى عندها الى السنـة الرابعة [٢] من عمره . وكفله جده عبد المطلب منذ ولادته وحدب عليه حدباً شديداً وأحسن معاملته كثيرا ، ولما بلغ السادسـة من عمره ذهبت به والدته الى المدينـة فماتت بالابواء فى أثناء عودتها [٣] . وتوفى جـده عبد المطلب بعد ذلك بسنتين وأوصى به الى عمه أبى طالب ، فلما بلغ الثالثة عشرة من عمره أخذه معه عمه أبو طالب فى تجارة الى الشام . وبعد ذلك بسنتين حصلت حرب الفجار [٤] وهى التى هتكت فيها حرمات

---

(١) ابن هشام ص ١٠٠ (٢) ابن هشام ص ١٠٠ (٣) ابن هشام ص ١٠٥
(٤) ابن هشام ص ١١٦

الحرم و الاشهر الحرم وكان مضرم نارها قريش وكنانة من جهة وقيس من جهة أخرى وقد حضر ﷺ هذه الحرب وكان ينبل فيها على عمومته . ورغبة من أهل مكة وما جاورها فى عدم تكرر حرب الفجار ودوس حرمة الحرم و الاشهر الحرم تداعت قريش بعد ذلك بقليل الى حلف دعى بحلف الفضول شهده ﷺ حين عقده فى دار عبد الله بن جُدْعان التيمى(١) وكان ﷺ يسعى دوما للمحافظة على الحلف ومساعدة المظلومين بموجبه ولم يكن له عمل معين فى أول شبابه الى أن بلغ الخامسة والعشرين فانه ذهب الى الشام تاجراً فى مال لاحدى كرائم نساء قريش السيدة خديجة بنت خويلد اختارته للسفر مع غلام لها نظراً لما عرف عنه من الامانة والاستقامة . وبعد عودته تم زواجه بالسيدة خديجة (٢) المشار اليها مع أنها تكبره بخمس عشرة سنة وظلت فى عصمته خمسا وعشرين سنة الى أن توفيت قبيل الهجرة بقليل وهى أم أكثر أولاده وكانت من أفضل نساء زمانها وأعقلهن وهى من أول الذين آمنوا بالرسول وبعثته .

وحينما بلغ الرسول الخامسة والثلاثين (٣) من عمره حصل فى الكعبة ماجعل قريشا تفكر فى هدمها واعادة بنائها وقد بنيت على قواعد اسماعيل بعد أن قصر منها من جهة الحجر بضعة أذرع . وحينما وصل البناء الى المكان الذى يوضع فيه الحجر الاسود فى الركن المخصوص به اختلفت عصائب قريش من منها يكون له شرف وضع الحجر فى مكانه وحصل اختلاف فى الرأى كاد يؤدى الى مالا تحمد عقباه . وأخيراً حُكِّم الرسول فطلب رداءً ووضع الحجر الاسود عليه واختار الرؤساء من العائلات وكلفهم بالامساك بأطراف الرداء فامسك كل منهم بجانب منه ورفع الحجر الى محاذاة مكانه وهنالك تناوله الرسول ووضعه بيده . وكان حكمه هذا مرضيا للجميع و انحل به خلاف عظيم .

وتتلخص سيرة الرسول ﷺ الاجمالية فى شبابه بامتيازه بالاخلاق الفاضلة

---

(١) ابن هشام ص ٨٤ (٢) ابن هشام ص ١٢٠ (٣) ابن هشام ص ١٢٢ ـ ١٢٦

والحديث الصدق والامانة والعفة وكان لايشرب الخمر ولا يتبع عوائد الجاهلية ولا يعبد الاوثان بل كان عاملا بنفسه مفكراً فى أحوال الكون جادا فى طلب رزقه حاضاً على الخير باذلا نفسه فى سبيل عمل البر والصلاح متعبداً تقيا يقضى كثيراً من أوقاته فى التعبد والتهجد فى غار حراء الكائن فى جبل النور بأعلى مكة . وكان باراً باهله وزوجته وأولاده وعائلته كل البر .

٢ — الدور الثانى من البعثة الى الهجرة

رأى الرسول ﷺ ما كان عليه قومه من الجاهلية وعبادة الاصنام والشرك بالله ، وما كانت عليه حالة بلاده من فرقة وتشتت ، فاجتنب أعمالهم وفكر فى اصلاح حالهم ، وعبد ربه فى غار حراء حتى جاءته الرؤيا الصادقة حينما بلغ الأربعين من عمره [1].

وبينما كان فى أواسط شهر رمضان من السنة الحادية والاربعين لميلاده عليه الصلاة والسلام اذ جاء الوحى من عند ربه وكان أول ما نزل منه « إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ ما لَمْ يعلَم [2] » فشرع فى بث الدعوة الى الدين بصورة افرادية مبتدئاً بالاقرب اليه فكان من أول المسلمين زوجته السيدة خديجة وزيد ابن حارثة وعلي بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة وغيرهم .

وظل ثلاث سنين [3] يدعو الناس الى الدين بصورة سرية ويلقن أصحابه الآيات والسور حسب نزول الوحى اليه . ثم أمر بالجهر بالدعوة فى سورة الحجر « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » فلم يبال به من قريش أحد ،

(١) ابن هشام ص ١٤٩ . (٢) ابن هشام ص ١٥١ .
(٣) ابن خلدون م ٣ ص ٧ وابن هشام ص ١٦١ .

الى أن شرع فى عيب الآلهة والاصنام وسبها ، وكان فى عمله هذا جالباً لسخط قريش التى اعتادت عبادة الاوثان واتخذتها واسطة لرزقها ولسيطرتها على العرب وخيف على الرسول ﷺ من الاذى فاجاره عمه أبو طالب وهو سيد عشيرته فلم تجسر قريش على إيذائه وخفر جواره .

وجاء موسم الحج فى ذلك العام وخافت قريش مغبة اهمالها أمر محمد ﷺ فعزمت على عمل حاسم ضده غير أنها لم تفلح . وفى الحج عرض الرسول ﷺ نفسه على الوافدين الى البيت ، وكان من حمق قريش أن تذكر أمر الرسول ﷺ الى جميع من مر بها فانتشر ذكره بين العرب ، وأغرت سفهاءها به وأصحابه وآذت كل قبيلة من دان بدين محمد منها الى أن اضطر بعد معرفته بعجزه عن حمايتهم الى أن يأمرهم بالهجرة من مكة فهاجروا الى الحبشة ، حيث قبلهم نجاشيها ولم يسلمهم الى قريش حين وفد عليه منها عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة [1] وظل بعض المهاجرين فى الحبشة الى ما بعد الهجرة الى المدينة ببضع سنين . وقبيل هجرة الحبشة كان عضد الاسلام قد اشتد باسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب .

وحينما ضاقت بقريش الحيلة ورأت أنها لا تقدر على حمل أبى طالب على خفر جواره ورأت كبار المسلمين بزعامة جعفر بن أبى طالب قد هاجروا الى الحبشة ، قررت مقاطعة بنى هاشم والمطلب مقاطعة تامة وكتبت بذلك صحيفة وعلقتها على الكعبة وظلت المقاطعة هذه وبنو هاشم محصورون فى شعبهم أكثر من سنتين [2] والعداوة التى تبديها قريش تجاه الرسول ﷺ وأتباعه ما تزال على شدتها ، وأخيراً قام بعض قريش لنقض عهد الصحيفة فوجدوا أن الارضة أكلتها .

---

(١) ابن خلدون م ٣ ص ٩ وابن هشام ص ١٧٠ — ٢١٠ .
(٢) ذكر ابن خلدون أن المدة ثلاث سنين م ٣ ص ٩ .

وفى السنة العاشرة للبعثة توفى أبو طالب وتوفيت بعده بقليل السيدة خديجة فشق الامر على الرسول ﷺ وفقد بموت عمه عضداً قوياً وجواراً منيعاً كما أنه فقد بزوجه أكرم العقائل وأصدق الزوجات ، واضطره الامر الى ايجاد من يجيره من قومه فذهب الى بطون ثقيف فى الطائف[1]. فردته أقبح رد ، ورشقه **سفهاؤها** بالحجارة حتى أدموا عقبه فعاد الى مكة ، ودخل على المطعم بن عدى فأجاره ، وعرض الرسول ﷺ أمره على القبائل فلم يجره منها أحد [2].

واتفق ان الخلاف بين سكان يثرب من الاوس والخزرج وهم اخوان وابناء عم اشتد كثيراً ولج الخصام بينهم وقام كل فريق ينشد حلفاء يعينونه على خصومه فجاء بعض الاوس الى مكة للاستعانة بقريش فقابلهم الرسول ﷺ ودعاهم الى الاسلام وعرض عليهم نفسه فرفضوه رفضاً شديداً وحينما عادوا الى المدينة حصل بينهم و بين الخزرج حرب شديدة عرفت باسم يوم بعاث ، وفى الموسم التالى جاء الى مكة جماعة من الخزرج فدعاهم الرسول ﷺ الى الاسلام فقبلوا الدعوة وكانوا ستة أشخاص وفى العام التالى جاء آخرون من المدينة وأسلموا عند العقبة وعادوا الى المدينة ومعهم مرشد من قبل النبى ﷺ [3] فكثر المسلمون فيما بينهم وفى العام الذى بعده كثر عدد المهتدين من أهل المدينة وعرضوا على الرسول ﷺ حمايته من الاذى الذى كان فيه هو وأصحابه بمكة فعلمت قريش بالأمر فهددت أهل المدينة وخوفتهم من التورط فى مخالفة محمد ﷺ عليها .

غير أن كل ذلك لم يجد فتيلا إذ أن الرسول ﷺ بعد الرجوع من الحج أمر أصحابه بالخروج الى المدينة فخرجوا الواحد تلو الآخر ، وعظم الامر على قريش وخافت أن يضيع الامر من يدها فتآمرت على قتله وتواعدت لذلك واختارت فتياناً من بطونها لحراسة بيته وقتله ان أراد الفرار ولكن الله رد

---

(١) ابن هشام ص ٢٢٥ — ٢٠٤ (٢) ابن هشام ص ٢٥٥ (٣) ابن هشام ص ٢٦٤

كيدهم فى نحورهم نخرج الرسول ﷺ ومعه رفيقه أبو بكر الصديق واختبآ فى غار ثور بأسفل مكة الى أن أضاعت قريش آثارهما نخرجا الى المدينة يقودهما دليل اسمه عامر بن فهيرة ووصلا قباء يوم الاثنين فى الثامن من ربيع الاول لثلاث وخمسين سنة مضت على ولادته [1]. فتكون المدة التى انقضت من تاريخ شروعه بالدعوة وتلقى الوحى الى تاريخ هجرته ثلاث عشرة سنة . وبالهجرة فتح عصر جديد فى تاريخ الاسلام .

٣ — من الهجرة الى فتح مكة

إشتد عضد الرسول ﷺ بقدومه الى المدينة اذ انضوى تحت لوائه جميع سكانها ماعدا اليهود فانهم عاهدوه على نصرته وأقرهم على دينهم وأموالهم . وهاجر سائر المسلمين من مكة الى المدينة ، ثم فرض القتال لحماية الدين والذب عنه .

وبعد خروج المسلمين من مكة انتقمت قريش منهم بمصادرة أملاكهم فاحب الرسول ﷺ أن يقابلهم بالمثل فشرع فى عرقلة تجارتهم مع الشام .

وأهم حوادث هذا الدور غزوة بدر الكبرى التى قادها ﷺ بنفسه وكان معه من المسلمين ٣١٤ رجلا ومع قريش ما يزيد عن الف . وبدأت الواقعة بخوف قريش على قافلة أرسلتها مع أبى سفيان بن حرب الى الشام وارساله نذيراً يدعو مكة الى اعانته فالتقى الجمعان فى بدر الى الغرب من المدينة بينها وبين ينبع وبدأت المناوشات ببروز ثلاثة فرسان من المشاهير من الجانبين فنصر الله المسلمين على المشركين والتحم الجمعان فكانت معركة من المعارك الفاصلة الحاسمة فى تاريخ الاسلام بها أعز الله الاسلام وأدال من غطرسة قريش وجبروتها وقتل المسلمون

(١) ابن هشام ص ٢٩٠ — ٢٩٧

من كفار قريش ما يقرب من السبعين ومنهم أبو جهل رأس الفتنة وأسروا ما يقرب من ذلك العدد أيضاً . وكانت هذه الواقعة فى رمضان من السنة الثانية للهجرة [١] .

وحصلت بعد ذلك حروب ووقائع عديدة بين المسلمين وحلفائهم وقريش وحلفائهم من ذلك واقعة السويق ثم واقعة بنى قينقاع من اليهود الذين خانوا العهد فأجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة بعد حصارهم مدة . ثم ان قريشاً أرادت أن تنتقم لبدر وتستر عار كسرتها فيها ، فجمع رؤساؤها الجموع وجندوا الجند ودعوا الاحلاف الى نصرتهم وأمدهم قومهم من الاغنياء بالمال وأعانهم خليط من الناس من تهامة وكنانة وثقيف ، ووصلت جموعهم الى قرب المدينة ، فوقعت بقرب جبل أحد واقعة شديدة بين الفريقين . ودارت الدوائر بادىء الامر على قريش وأحلافها الا أن الرماة الذين وضعهم الرسول ﷺ فى أعلى الجبل تركوا مواقفهم ولحقوا باخوانهم طمعاً فى الكسب والنهب فأغارت عليهم خيل قريش بقيادة خالد بن الوليد وتغلبت عليهم ، فاختلت صفوفهم وضعفت هممهم وأصيب الرسول ﷺ ببعض الجروح وكسرت رباعيته وقتل عمه حمزة . وكان ذلك نصرا لقريش لما أصابها فى بدر . وكان فى وسع المشركين أن يقضوا على المسلمين إلا أن الله لطف بعباده فانكفأت قريش قانعة بالنصر الاولى الذى نالته [٢] .

ثم بعد أحد حصل فى المدينة ما أدى الى اخراج بنى النضير [٣] من اليهود منها نظرا لنفاقهم وختلهم . وتوالت الوقائع بين المسلمين وقريش الى السنة الرابعة فقدم أبو سفيان إلى بدر قاصداً الحرب ولكنه نكص بدون حرب . وجاء الى

---

(١) انظر تفصيلها فى ابن هشام ص ٣٦٩ وما يليها .
(٢) انظر ابن هشام م ٢ ص ٦٤ وما يليها
(٣) ابن هشام م ٢ ص ١٤٢

مكة بعض الذين أخرجوا من المدينة من يهودها وطلبوا نصرة قريش على المسلمين فاجابتهم قريش الى ذلك و بعثت الى القبائل تدعوها للحرب ، فخرجت قريش وأتباعها وغطفان وأتباعها و بنو مرة و بنو أشجع فكان مجموعهم يزيد عن عشرة آلاف عسكروا عند مجتمع السيول ، وكان المسلمون قد استعدوا للأمر وحفروا خندقا بينهم و بين المحاصرين وظل الحصار أكثر من عشرين يوماً الى أن عيل صبر المسلمين . فرأى الرسول ﷺ أن يستعين فى هذه الموقعة بالمطاولة فوفقه الله إلى ذلك ووقع الخلاف بين الاحزاب وأصابهم ريح صرصر لم يجدوا معه بدأ من فك الحصار والانصراف عن المدينة فى شهر شوال من تلك السنة [1] .

و لما أمن الرسول غائلة الاحزاب عاد الى بنى قريظة الخونة فحاصرهم المسلمون ٢٠ ليلة حتى جهدهم الحصار فاستسلموا للاقدار فحكم على جميع مقاتلتهم بالقتل [2] .

و بعد واقعة الأحزاب انضم الى المسلمين عظيمان من القواد عمرو بن العاص وخالد بن الوليد .

وفى ذى القعدة من السنة السادسة خرج الرسول ﷺ الى مكة معتمراً لا يريد حرباً فوصل الى الحديبية وهى بئر بالقرب من الحرم المكى تعرف فى الوقت الحاضر باسم الشميسى فتأهبت قريش للقائه ظناً منها أنه يقصد حربها . فأفهمها الرسول انه قادم للعمرة فلم تركن الى هذا القول وصممت على المقاومة وأخيراً تم الاتفاق بين الجانبين على صلح عرف بصلح الحديبية [3] كان من أهم شروطه رجوع الرسول وجماعته الى المدينة على أن يسمح لهم فى العام المقبل بدخول مكة وأن تعقد هدنة بينهما لمدة عشر سنين ومن شروط الصلح عدم ايواء من يرد من قريش على الرسول وترك الحرية للقبائل فى الانضمام الى أحد الجانبين وقد كان هذا الصلح سبباً فى فتح مكة .

---

(١) ابن هشام م ٢ ص ١٥٥ (٢) ابن هشام م ٢ ص ١٦٧
(٣) ابن هشام م ٢ ص ٢١٠

وفى المحرم من السنة السابعة غزا الرسول أهل خيبر من اليهود ففتح بلادهم حصنا حصنا وصالحهم على دفع نصف حاصل أرضهم[١] .

وفى تلك السنة اعتمر الرسول الى البيت عملا بصلح الحديبية فأخلت قريش مكة ودخلها الرسول وقومه فاعتمروا وانصرفوا بعد وقت قصير الى المدينة .

وبموجب صلح الحديبية كانت بطون خزاعة داخلة فى عهد رسول الله وبطون بكر فى عهد قريش وحصل بين الجانبين نزاع تداخلت فيه قريش مخلة بذلك بعهدها ، فبلغ الخبر الى المدينة فعزم الرسول على فتح مكة فسار اليها سراً فى رمضان من السنة الثامنة للهجرة ونزل فى جهات وادى فاطمة فالتقى بأبى سفيان خارجا يتجسس أخباره . فألقى القبض عليه وأُحضر أمام الرسول فأسلم وأعلن الرسول ﷺ ان من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ودخل المسلمون مكة من أعاليها ولم يحصل بينهم وبين الكفار الا مناوشات صغيرة وعفا الرسول عن أكثر سفهاء قريش وأمر بهدر دماء آخرين ودخل الرسول البيت فطاف به سبعاً ووقف بباب الكعبة وقال « لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده » . وبفتح مكة، تمت الغلبة للاسلام فى غالب الحجاز ودخلت قريش فى الاسلام وكان ذلك آخر ماعرف عن دولة الاصنام والاوثان فى مكة وعد هذا الفتح قاضياً على الشرك فى الجزيرة نظراً لمقام قريش الدينى فاسلامها قضاء تام على كل ماعداه[٢] .

وبعيد فتح مكة حصلت واقعة حنين[٣] بين بطون هوازن والمسلمين وكان المسلمون كثيرى العدد الا انهم غلبوا فى أول الامر ثم انقلبت الواقعة الى نصر المسلمين .

---

(١) ابن هشام م ٢ ص ٢٢٢ (٢) ابن هشام م ٢ ص ٢٥٩

(٣) مكان الى الشمال الشرقى من مكة بين العلمين والمضيق والجعرانة والشرائع .

٤ — من فتح مكة الى الوفاة

بعد انتهاء رسول الله ﷺ من أمر مكة ولى عليها عتاب بن أسيد وقفل راجعاً الى المدينة . وأعد فى رجب من السنة التاسعة غزوة جديدة قادها بنفسه على تبوك[1] وكانت هذه الغزوة آخر ماخرج له رسول الله ﷺ محارباً ثم حج حجة الوداع وألقى فيها خطبته المعروفة التى فيها عظة وعبرة للناس وأوصاهم بما يجمل بهم أن يتخلقوا به فى معاملاتهم بعضهم مع بعض وفى حجة الوداع أعلن القرآن ان نزوله قد انتهى وكان ذلك قبل وفاته ﷺ ببضعة أشهر .

وبعد رجوعه من الحج مرض بالحمى فى شهر صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة وقبض عليه الصلاة والسلام فى يوم الاثنين الواقع فى ١٣ ربيع الاول من تلك السنة وكانت سنه حين وفاته ثلاثا وستين سنة قمرية .

وحينما توفى كان الاسلام منتشراً فى الحجاز وسائر جهات الجزيرة وقد طمس الله معالم الشرك والوثنية وانبثت الدعاة الى سائر أقطار الارض لابلاغ الدعوة الى الجميع فمنهم من ذهب الى الفرس ومنهم الى الروم ومنهم الى المصريين . وقد آمن برسالة الرسول ﷺ كافة القبائل العربية ورأى ﷺ نجاح دعوته قبل وفاته واجماع كلمة العرب على طرح الشرك والتوحيد بالله الواحد الاحد وتوحيد الزعامة السياسية التى تنطوى تحتها سائر الزعامات المحلية وصيرورة الامة يداً واحدة تدعو الى دين واحد وتخضع الى رئاسة عامة قادرة على التنفيذ .

٥ — الاسلام والقرآن الكريم

الاسلام هو الدين الذى جاء به سيدنا محمد ﷺ لسعادة الناس فى الدارين .

---

(١) ابن هشام م ٢ ص ٣٣١

وأساسه التسليم الى الله الواحد الاحد واخلاص العبادة له والايمان به وعدم اشراك إله آخر معه . وقد بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله واقامة الصلوات فى أوقاتها المفروضة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع الى ذلك سبيلا . وقد جاء الاسلام ناسخاً لكافة الشرائع السابقة وقاضياً على معالم الشرك والوثنية فى جزيرة العرب ومعداً اياها لليوم العظيم .

وقد أوضح الاسلام فى القرآن الكريم وجاءت السنة النبوية متممة له ومفسرة لبعض مافيه من أحكام . والقرآن هو الكتاب الكريم المنزل من الله تعالى على عبده محمد بن عبد الله حوى جميع مايلزم لسعادة الدارين ـ من أنواع العبادات والعقائد والمعاملات . ويمكن تقسيم ماجاء فى القرآن من الاحكام الى ثلاثة اقسام الاول قسم العبادات والعقائد والثانى قسم المعاملات بين الناس وبينهم وبين اولى الامر منهم والثالث قسم الاجتماع ومايلزم أن يتحلى به الانسان من مكارم الاخلاق والصفات ليكون قادرا على أن يعيش مع الافراد الآخرين فى هذه الدنيا على احسن حال .

الفصل السابع

الخلفاء الراشدون

أبو بكر الصديق - عمر بن الخطاب - عثمان بن عفان - على بن أبي طالب

١ - أبو بكر الصديق

حصل بعد وفاة الرسول ﷺ خلاف بين المهاجرين و الانصار فى المدينة على من يتولى امامة المسلمين وأمورهم . اذ أن الرسول كان ذا وظيفتين إحداها الرسالة و إبلاغ الدعوة الدينيـة الى العرب وغيرهم وهذه قد انتهت يوم نزول الآية الكريمة اليوم أتممت الخ و الثانيـة رئاسة المسلمين و تولى أمورهم الدينية والدنيوية و النظر فى شؤون الحكومة . والخلاف حصل على من يتولى هذه . وتم الاتفاق فى سقيفة بنى ساعدة (١) من الخزرج على مبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة فبويع بها من الجميع ماعدا أفراد تخلفوا عنها منهم على بن أبي طالب الذى لم يبايع إلا بعد وقت .

ولم تكن مسألة الخلافة هى المسألة الوحيدة التى جابهت أبا بكر بعد وفاة الرسول فقد كان عليه أن ينفذ السرية التى جهزها الرسول قبيل وفاته برئاسة أسامة بن زيد الى جهات الشام كما أنه كان عليه أن يدافع عن الاسلام مما حصل فيه من ردة بين القبائل وظهور عدد من الادعياء بالنبوة وهـذا الموقف الحرج كان يتطلب صلابة وحزما شديدين فوفق الله أبا بكر الى انفاذ أسامة قائلا انه لايحل عقـدة

(١) انظر خبر السقيفة فى ابن خلدون م ٢ ص ٦٤ .

عقدها رسول الله . وأنفذ أيضا السرايا العديدة تحت قيادة أكابر القادة من المهاجرين والانصار لاخضاع أهل الردة والذين شقوا عصا الطاعة من العرب [١]

وقد تجلت مقدرة أبي بكر وحزمه وصدق عزيمته وإخلاصه بما قام به في هذه الآونة العصيبة من دفع أعداء الاسلام وذودهم عنه . وأهم الجهات التي وجه اليها السرايا والقواد هي ديار بني أسد وطيء وغطفان ورئيسها طليحة [٢] في بزاخة فردهم الى الاسلام ثانية ثم أرسل الى تميم وكبيرها مالك [٣] بن نويرة اليربوعي في البطاح فهزمهم وقتل مالكا ثم تلت ذلك حروب سجاح [٤] المشهورة فانها جمعت جموعا عظيمة الا أنها اتفقت آخر الامر مع مسيلمة الحنفي في وادي اليمامة فجاءهم خالد بن الوليد وقد ادعى مسيلمة [٥] النبوة مفاخراً بني عمه مضر ولكنه هوى في المعركة وقتل وتفرقت جموع ربيعة وعادت الى حظيرة الاسلام . ووجه أبو بكر أيضا سرية الى اليمن [٦] لرد أهله الى الاسلام بعد أن ارتدوا عنه بدعوة الاسود العنسي المدعي للنبوة فوفقهم الله الى ذلك كما وفق سائر القواد الى الانتصار على أهل الردة ولم يمض وقت قصير حتى أصبحت حدود الرقعة الاسلامية شاملة لكل البلاد التي تتألف منها المملكة الحالية .

بعد هدوء الاحوال في داخل البلاد ورجوع كافة القبائل الى حظيرة الاسلام نظر المسلمون الى الديار المجاورة وشرعوا في فتوحها كما هو معلوم وليس من برنامجنا الخوض في تفاصيل التاريخ الاسلامي وانما نذكر منه هنا ما يكفي لغرضنا الذي ينحصر في سرد الحوادث التي وقعت في البلاد التي تتألف منها المملكة [٧]

وتوفي الخليفة أبو بكر بعد أن وطد دعائم الاسلام في الجزيرة وكانت وفاته بعد توليه الخلافة بسنتين وأربعة أشهر وهو في الثالثة والستين من عمره في ٧ جمادى الثانية سنة ١٣ للهجرة .

---

(١) انظر اخبارها في ابن خلدون م ٣ ص ٦٩ . (٢) المذكور ص ٧٠
(٣) م ٣ ص ٧٣ (٤) م ٣ ص ٧٣ . (٥) م ٣ ص ٧٤ .
(٦) م ٣ ص ٧٧ (٧) انظر أخبارها في ابن خلدون م ٣ ص ٧٨ ...

أما ادارة المملكة فقد قسمها أبو بكر قبل وفاته الى ولايات عين لكل ولاية أميراً فكان فى الطائف أمير وفى مكة أمير وفى البحرين واليمامة أمير والخليفة مقيم فى عاصمة المملكة فى المدينة ووالى مكة إذ ذاك عتاب بن أسيد وهو نفس الشخص الذى ولاه الرسول ﷺ عام الفتح وأمير الطائف عثمان بن أبى العاص ووالى البحرين العلاء بن الحضرمى .

٢ — عمر بن الخطاب

ولى عمر الخلافة بعد وفاة أبى بكر فى المدينة بعهد مكتوب(١) استخلفه فيه وهو من مشاهير قريش فى الجاهلية وممن اشتدت بهم شوكة الاسلام يوم اسلامه ولد بعد مولد الرسول ﷺ بثلاث عشرة سنة . وقد أمضى فى الخلافة عشر سنين وستة أشهر كانت غرة فى جبين الدهر ودرة فى تاج العمر لما بسط على الرعية من عدل وأقام من قسطاس وشاد من نظم وأدال من دول وممالك وفتح من بلاد .

وهو منذ اسلامه لم يتخلف عن غزو قام به رسول الله وكان في خلافة أبى بكر المستشار الاول والمساعد القدير فى تصريف شؤون الدولة وادارة دفة الملك وقد تم على زمانه فتح فارس والعراق والشام وعاصمتها دمشق وحمص واجلاء الروم عن سائر سوريا وطرد هرقل ملك الروم منها والاستيلاء على بيت المقدس ونحن لو حاولنا ايفاء هذا البطل الهمام والخليفة العادل حقه من الاطناب والثناء وذكر ماقام به فى خدمة الاسلام من الاعمال الجليلة لاحتاج ذلك الى مجلدات لايتسع لها هذا الموجز . ولذلك فاننا نكتفى هنا بخلاصة عنه ذاكرين ما كان لعصره من الاهمية فى الاجيال الاسلامية المقبلة .

فانه ثل عرش الاكاسرة ، وهد أركان القياصرة ، واستولى على تراث الامبراطوريتين العظيمتين فارس والقسطنطينية وأدخل مصرا ، وكانت ولاية

(١) ابن خلدون م ٣ ص ٨٥

رومانية فى حوزة الممالك الإسلامية . ولم تخل سنة من سنى خلافته من فتح للاسلام جديد ، وعمل فى سبيل توطيد دعائم الملك تليد . فهو الذى كان يشرف من المدينة على أعمال قواده الحربيين فى فارس ، ويرسل اليهم النصيحة المفصلة يتبعونها فى أعمالهم الحربية فينجحهم الله ويظفرهم بأعدائهم ، وهو الذى كلف سلمان وحذيفة بأن يجوسا فى العراق لاختيار البقاع الصالحة لإشادة المدن عليها ، فاختارا موقعى الكوفة والبصرة[1] فأقيمت فيهما المدينتان الباقيتان الى عصرنا هذا ، وقد شخص عمر رضى الله تعالى عنه الى بيت المقدس قبل فتحها لأن أهلها اشترطوا أن يكون تسليمها للمسلمين على يده فوصل اليها وكتب لأهلها عهد أمان سنة ١٥ للهجرة ، وأنشأ فى بيت المقدس مسجداً فوق الصخرة مازال الى يومنا هذا[2].

وفى زيارته لسوريا قسمها الى ولايات وولى أمراءه عليها وعاد الى المدينة . ثم خرج منها ثانية عام ١٧ قاصداً سوريا وكان فيها طاعون فلم يصل اليها وبعد زوال الطاعون رجع ثالثة اليها وقام ببعض التدابير الادارية فيها .

وعمر أول من أوجد وظيفة القاضى للفصل فى معاملات الناس طبقاً للاحكام الشرعية ، وقد كان هو أول من ولى نوعاً من القضاء فى المدينة على عهد سلفه أبى بكر وفى زمنه عين أبا الدرداء للقضاء فى المدينة أيضاً ، وهو الذى وضع أول تعليمات خاصة بسير العمل فى المحاكم والمحاكمات كتبه الى أبى موسى الاشعرى يوم ولاه القضاء . وسيرة عمر مليئة بجلائل الاعمال كما ذكرنا ، فقد كان مراقباً لعماله مانعاً إياهم عن الخروج عن مقتضيات المصلحة ساهراً على راحة الرعية رافعاً للظلم عفيفاً عن أموال المسلمين ، مقتصداً فى نفقته الشخصية ، ميالا للاستشارة فى أعمال الحكومة ، متبعاً سنة الرسول بايضاح الاحوال للناس فى المجتمعات العامة ، بعيداً عن الزلفى غير مفضل ذوى قرباه على غيرهم . وقد توفى رحمة الله عليه ورضوانه

(١) ابن خلدون م ٣ ص ١١٠
(٢) م ٣ ص ١٠٦

قتيلا بخنجر مملوك مجوسى الاصل اسمه فيروز أبو لؤلؤة طعنه ساعة كان يصلى صلاة الفجر فى المسجد وكانت وفاته ليلة الاربعاء فى ٢٦ من ذى الحجة سنة ٢٣ الهجرة ودفن الى جانب رسول الله ﷺ وأبى بكر فى حجرة عائشة.

٣ — عثمان بن عفان

بويع عثمان بالخلافة بعد مقتل عمر بثلاثة أيام ويصادف ذلك يوم الاثنين فى ٢٩ من ذى الحجة سنة ٢٣ وهو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية ، ولد بعد رسول الله بخمس سنين وكان من المسلمين الاولين وشب على الأخلاق الفاضلة والسيرة الحسنة ، وكان صاحب ثروة جاد بالوفير منها لتجهيز الفقراء من محاربة المسلمين ، وتولى يوم الحديبية سفارة الرسول الى قريش.

وما كاد يتولى الخلافة حتى شعر بالأزمات تتوالى عليه من كل جانب فهاج أهل الكوفة وقام أهل البصرة وضج أهل الشام وغضب أهل مصر وكان وهو فى المدينة يحاول إطفاء جذوة النيران المتقدة فلم يوفق الى ذلك وقد باشر عمله بالتحقيق عن مقتل عمر وعما إذا كان لاحد ضلع فيه واتهم الهرمزان الفارسى وغيره إلا أن الايدى المحركة لابى لؤلؤة لم تعرف.

ولم يغير رضى الله عنه أول ولايته شيئا مما كان على زمان سلفه فابقى أمراء مكة والطائف والبحرين على ما كانوا عليه وهم نافع بن عبد الحارث الخزاعى على الاولى وسفيان الثقفى على الثانية وعثمان بن أبى العاص الثقفى على الثالثة.

وقد حصلت بعض الفتوح على عهد خلافته منها : فتح الرى واذربيجان وطبرستان وبلاد الخزر وخراسان وجزيرة قبرص ، وفى عهده انشئت أول عمارة بحرية اسلامية وكان العرب قبل ذلك يتهيبون البحر.

وأهم ماحدث أيامه الفتنة الداخلية التى أودت بحياته وكانت مقدمة لاختلافات

عظيمة فى الاسلام قاسى منها فى الازمنة التالية أهوالا ومشاقاً عظيمة .

وقد نقم الناس على عثمان أموراً كثيرة رد هو عن موقفه تجاهها، من ذلك عيب الناس عليه جمعه المال وتقريبه ذوى قرباه ورده للحكم بن أبى العاص وقد كان الرسول ﷺ نفاه الى الطائف وتفضيل بنى أمية على غيرهم وهبته لاقاربه دون سواهم وتسليمه الامر لمروان وغير ذلك من الانتقادات[١] .

وقد وفدت عليه الوفود من الاقطار الثلاثة وانصرفت عن المدينة عازمة على الفتنة وادعى المصريون منهم أنهم صادفوا فى الطريق كتابا من عثمان يأمر عامله على مصر أن يقتلهم وعدوا ذلك منه نكثاً لوعده فعادوا الى المدينة وعاد معهم المتواطئون وإياهم من أهل الشام والعراق فحاصروه فى بيته واشتد الحصار عليه وهو لا يأتى بحركة سوى ارساله لعبد الله بن عباس الى مكة لكى يخبر الناس فى الحج بما كان من هؤلاء المفتونين إلا أن هؤلاء دخلوا عليه المنزل عنوة من بيت بجواره فقتلوه[٢] فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥ للهجرة .

ويقول بعض المؤرخين : ان أسباب مقتل عثمان كثيرة ، أهمها وجود تنافس بين كبار المسلمين فى المدينة ، وحسبان كل واحد نفسه أحق من غيره بالامر ، ثم كون عثمان ليناً مستسلماً سلم الامر الى نفر من قومه منهم مروان بن الحكم أساءوا التصرف فى الامور وأشاروا عليه بالمشورة السيئة . ومن ذلك مخالفة عثمان صاحبه عمر فى سماحه لاكابر قريش بترك المدينة والسفر الى أية جهة قصدوها فكان ذهابهم سبباً لاجتماع الناس عليهم ونشرهم أخبار عثمان وان وصوله الى الخلافة كان بغير حق . وكان أمير مكة يوم مقتل عثمان العلاء بن الحضرمى الذى كان من قبل أميراً

---

(١) ذكر المرحوم الاستاذ الخضرى هذه الاسباب فى محاضراته ٢ ص ١٠٩ — ١١٥
(٢) انظر تفصيلها فى ابن خلدون ص ١٢١

فى البحرين وأمير الطائف القاسم بن ربيعة الثقفى .

٤ — على بن ابى طالب

هو سيف الاسلام الغالب و بطله الظافر ولد فى مكة قبل الهجرة باحدى وعشرين سنة وقد ولى الخلافة بعد خمسة أيام من مقتل عثمان وزمان خلافته ملىء بالثورات والفتن الاهلية فانه ما كاد يتسلم الخلافة حتى طولب بعقاب قتلة عثمان فاظهر لمراجعيه عجزه عن ذلك مادام المتغلبون فى المدينة ووعد بعقابهم بعدذلك[١].

ولم يقبل بعض كبار المسلمين ببيعته فمنهم من بايع مكرهاً ومنهم من ارتحل عن المدينة الى معاوية فى الشام ، والى الأمصار الاخرى . وكانت السيدة عائشة قد خرجت قبل مقتل عثمان الى الحج بمكة ، فلما بلغها مقتله خطبت فى المسجد الحرام بمكة فى الناس وأعلمتهم بالحادث الجلل وأعلنت لهم ضرورة المطالبة بأخذ ثأر دم عثمان ولحق بها طلحة والزبير وانصرف جميعهم مع من التف حولهم الى البصرة[٢].

وكان من أمر على بعد توليه الخلافة أن أصدر أمره بعزل جميع ولاة عثمان وتعيين أمراء من قبله فى مواقعهم فسافر هؤلاء ولكن أكثرهم رد على عقبيه دون أن يتولى امارته . وأعلن معاوية بن أبى سفيان والى الشام عصيانه على علىّ وأرسل اليه رسولا يطالبه بدم عثمان فلم يجبه وعزم علىٌّ على الخروج الى الشام لتأديب معاوية ومن معه من بنى أمية الفارين من المدينة فجاءته أخبار تجمهر السيدة عائشة ومن معها فى البصرة فخرج اليها .

ولم يجدِ توسط المتوسطين فى الصلح فحصلت موقعة الجمل التى قتل فيها

---

(١) ابن خلدون م ٣ ص ١٥١ (٢) ابن خلدون م ٣ ص ١٥٥

كثيرون من المسلمين وارجعت عائشة الى المدينة وقتل طلحة و الزبير وغيرهما خلق عظيم .

ثم جهز على بريد معاوية فالتقى الجمعان بصفين وبلغ عدد من قتل من الجانبين على رواية بعض المؤرخين تسعين الفاً .

ثم كان التحكيم بين على ومعاوية فى دومة الجندل ، وكانت حيلة عمرو بن العاص لحكم على واعلانه خلع على واثبات معاوية ثم كانت حادثة الخوارج وقتلهم فى النهروان ثم تلى كل ذلك تآمر بعضهم على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص ولكن ضربة الخارجى لم تقتل إلا علياً فقتل فى النجف الأشرف يوم ١٧ رمضان سنة ٤٠ للهجرة وقد مضى عليه فى الخلافة أربع سنين وتسعة أشهر تقريباً .

وكان مقتل على من أكبر أسباب الشقاق بين المسلمين وانقسامهم الى شيع وفرق نرى بقاياها حتى الآن فى العالم الاسلامى . وهو كرم الله وجهه على شرفه وقربه من الرسول ﷺ وفصاحته وشجاعته وخصاله العالية لم يكن يراعى ظروف الاحوال ولا مقتضيات الخارج والداخل فكان صلباً لا تلين قناته ولا يقبل فى الحق لومة لائم يحاسب على الصغيرة قبل الكبيرة ولا يهمه الا اقامة حدود الله .

الفصل الثامن

الأمويون والعلويون وابن الزبير

الدولة الاموية ــ معاوية وخصومه ــ يزيد بن معاوية ــ ابن الزبير وعبد الملك خلفاء عبد الملك

---

١ ــ الدولة الأموية

كان من نتيجة التحكيم الذى تم بين مندوبى على ومعاوية فى دومة الجندل(١) اشتداد ساعد معاوية بن أبى سفيان فى الشام وضعف على بن أبى طالب فى العراق والحجاز وقيام فئة الخوارج بالنقمة على الجانبين وانتهاء الامر بقتل على كرم الله وجهه بسيف عبدالرحمن بن ملجم الخارجى ، فلما أصبح معاوية وحيدا وجّه الجيوش لاحتلال المقاطعات الاسلامية واحدة واحدة ، منها سرية قدمت الى جهات تيماء لاحتلالها وسرية بقيادة بسر بن أبى ارطاة الى المدينة المنورة فاحتلتها ، وتوجهت منها الى مكة المكرمة فاحتلتها أيضاً (٢).

واتخذ معاوية من دمشق عاصمة للخلافة فانتقل بذلك المركز السياسى من الحجاز الى الشام وأصبحت هذه البلاد مقاطعة تابعة للخلافة بعد أن كانت مركزا تتبعه المقاطعات ، وكان يتولى إدارتها زمن الامويين أمراء ينفذهم الخلفاء من

---

(١) واحة الجوف
(٢) الطبرى مجلد ٦ ص ٨٠

دمشق الى الجهات المختلفة ، فطورا يجمع الامير بين ولايتى مكة والمدينة وطورا يكون لكل منهما أمير ، وكانت حال الجهات الاخرى من هذه المملكة كذلك قد تتبع الحجاز وقد يتبع قسمها الشرقى العراق وفيما عدا المدة التى كانت فيها الحجاز حكومة مستقلة أيام الحسين بن على بن أبى طالب وعبد الله بن الزبير فان ادارة الامويين للبلاد لم تتغير [١] .

ومما يجب ذكره زمن الدولة الاموية التى ظلت ٩١ سنة فى الحكم ما حصل فى هذه البلاد من الاحداث العظيمة منها واقعة الحرة واباحة المدينة للجيش الغالب ومنها حصار مكة ثم هدم الكعبة وبناؤها من قبل ابن الزبير ثم هدمها مرة أخرى أيام الحجاج وإعادة بنائها على الشكل الذى كانت عليه قبل بناء ابن الزبير ، ومنها ما تم فى ولاية عمر بن عبد العزيز وخلافته من أعمال اصلاحية فى المدينة ومكة وفى الطريق بينهما .

٢ — معاوية وخصومه

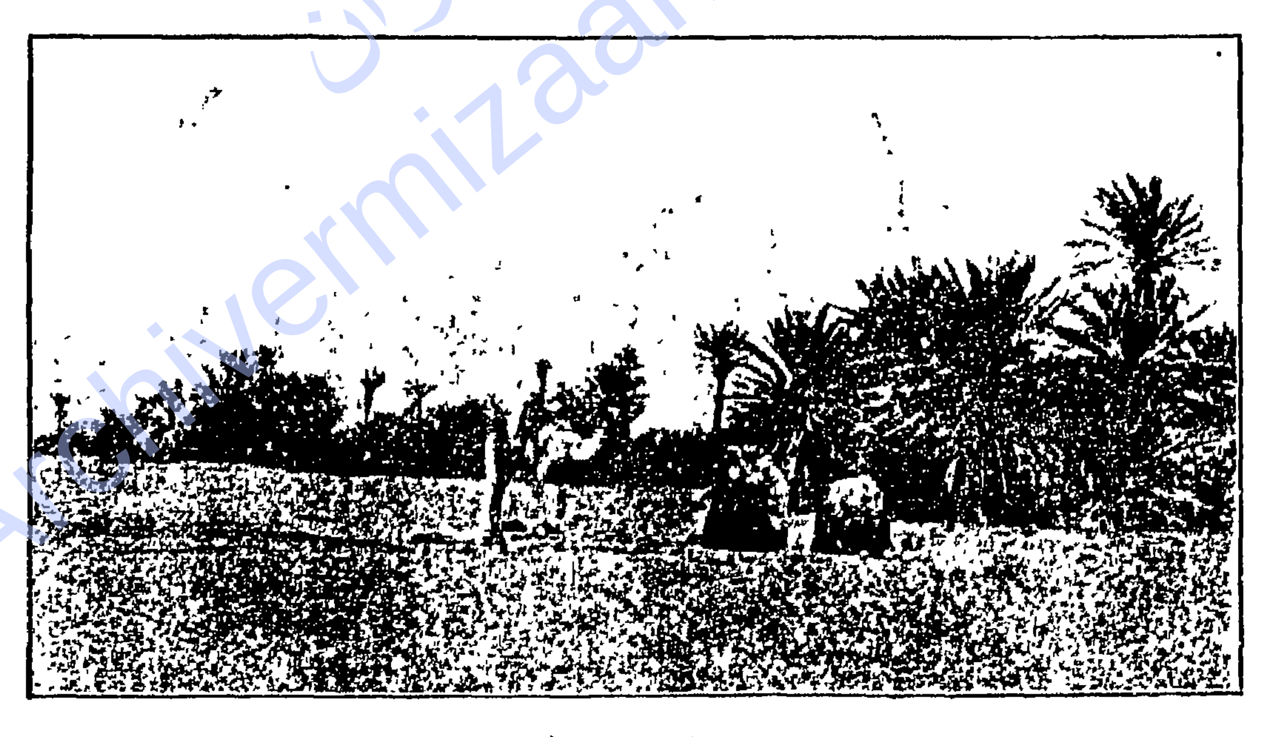
كان المسلمون يوم مقتل على واستئثار معاوية بالخلافة ثلاث فرق : أهل الشام وهم أتباع معاوية وعدته ، وأهل العراق وهم أتباع الامام على وأولاده ، والخوارج أعداء الفريقين . أما أهل العراق فقد سلط عليهم معاوية الحجاج وزيادا والمغيرة فأخلدوا الى حكمه القاهر عن كره وسلموا أمرهم اليه . وأما الخوارج فانه حاربهم أيضاً ونال منهم ما يريد . وأما الحجاز فقد كان أسهل على معاوية من الاصقاع الاخرى وليه سلماً وولى عليه أمراء من أتباعه مثل سعيد بن العاص ومروان بن الحكم ، وكان غير مقيد بشكل معين فى إدارة البلاد فقد جمع ولاية مكة والمدينة لواحد كما أنه قسمها بين أميرين .

---

(١) لم يقم للحسن أيام خلافته قبل صلحه مع معاوية فى الحجاز ومدة أخيه الحسين لا تزيد عن بضعة اشهر ايضا . اما خلافة ابن الزبير فى مكة فانها امتدت من عام ٦٤ الى عام ٧٣ الهجرة .



١٤ — قصر شبرا فى الطائف



١٥ — قرية المربقا فى واحة جبرين

واستتب الأمر لمعاوية عام ٤١ المسمى بعام الجماعة وسلم الحسن بن على وأعلن تنازله عن الخلافة وأقام فى المدينة بعد ذلك الى أن مات .

وقدم معاوية أيام خلافته الى الحجاز مرتين : احداهما من أجل أخذ البيعة لابنه يزيد بولاية العهد . فبدأ بأهل المدينة فبايعوا إلا ثلاثة نفر وهم : ابن الزبير والحسين بن على وعبد الله بن عمر ، فانهم انصرفوا الى مكة فلحقهم اليها وهنالك نال منهم ما يريد . والثانية كانت سنة ٥٠ فحج بالناس[١] .

وقد ولى امارة المدينة لمعاوية ثلاثة سعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، والوليد بن عتبة بن أبى سفيان .

وولى امارة مكة : عتبة بن أبى سفيان ، ومروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص ، وابنه عمرو بن سعيد ، وخالد بن العاص ، وعبد الله بن خالد بن أسيد[٢] .

ولا نعلم شيئاً راهناً عن ولاة معاوية فى المقاطعات الاخرى من هذه البلاد .

٣ — يزيد بن معاوية

اهتم يزيد بعد توليه الخلافة عام ٦٠ (٦٨٠ ميلادية) بأخذ بيعة أهل الحجاز وبالاخص بيعة الثلاثة المخالفين . فكتب الى أمير المدينة وهو الوليد بن عتبة بن أبى سفيان أن يفعل ذلك ففر الحسين بن على وابن الزبير الى مكة من غير أن يبايعا . ويروى أن ابن الزبير كان يشجع الحسين على الخروج من مكة الى انصار أبيه فى العراق لكى يستأثر بعد خروجه بحكم مكة ويعمل لنيل البيعة لنفسه لأنه علم أن أهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين حيا .

وخرج الحسين الى العراق بالرغم عن مشورة الناس عليه بعكس ذلك . وحينما

---

(١) الطبري مجلد ٦ ص ١٣٤

(٢) خلاصة الكلام ص ٤

كان فى الطريق جاءه رسول من والى المدينة يحمل كتاب أمان له ، فلم يقبل به وداوم فى سيره الى أن نزل الثعلبية [1] فوجد أن أكثر قومه قد تفرقوا عنه ، وان أنصار أبيه لم ينصروه وسار الى العراق فاستشهد فى عاشر المحرم عام ٦١ فى كربلاء .

ثم شق أهل المدينة عصا الطاعة وخلعوا بيعة يزيد فى ولاية عثمان بن محمد بن سفيان عام ٦٢ وحاصروا بنى أمية فى دار مروان بن الحكم ، ثم أطلقوهم بعد أخذ العهد عليهم بعدم اطلاع عدوهم على حالهم . غير أن ذلك لم يجدهم فتيلا فان يزيد أنفذ أحد قواده المسمى مُسلم بن عُقبة المرى فوقعت بينه و بين أهل المدينة وقعة فى الحرة التى بقرب المدينة فتغلب عليهم وقتل عددا عظيما منهم ولم يكتف بفعلته هذه فأباح المدينة لجيشه ثلاثة أيام بلياليها ففعل الجند فيها أفعالا وموبقات عظيمة ظلت ذكراها مرّة فى تاريخ يزيد .

ولما انتهى مسلم من أمر المدينة توجه الى مكة لحرب عبد الله بن الزبير فمات فى طريقه اليها قبل أن يبلغها . وقام على رئاسة الجند الحصين بن نمير فوصلها فى أواخر المحرم عام٦٤ وجمع ابن الزبير جموعه لحرب الجيش الاموى وخرج بمن معه لقتالهم فانهزم ولاذ بمكة وحاصر فيها ، وفى شهر ربيع الاول من تلك السنة نصب المهاجمون المنجنيق على أبى قيس ورموا به الكعبة فاحترقت [2] .

ولم يفك الحصين الحصار عن مكة الا بعد وفاة يزيد بن معاوية فى منتصف ربيع الاول وولاية معاوية بن يزيد . ويروى الطبرى أن الحصين قبل فك الحصار تكلم مع ابن الزبير فى الخروج الى الشام ليبايعه فيها فرفض ابن الزبير ذلك [3] .

---

(١) احد المنازل على درب الحج من العراق بين المدينة وحائل .
(٢) الطبرى م ٧ ص ١٤ (٣) الطبرى مجلد ٧ ص١٧

٤ — عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان

لم يكن لخليفتى يزيد ما كان له من الهمة والنفوذ والمقدرة على مجابهة الاخطار و لم يدم ملكهما طويلا . فان معاوية توفى بعد بضعة أشهر من خلافته ، ومروان ابن الحكم كان أقرب الى الملاينة والمماطلة منه الى العنف والشدة . فكان ذلك من جملة الاسباب التى هيأت لابن الزبير قيامه بأمر الخلافة فى الحجاز و بعض العراق ومصر ، وانضواء غالب الرقعة الاسلامية تحت لوائه ، وقد خيل لكثيرين فى ذلك العصر ان أمر المسلمين صائر لا محالة الى ابن الزبير وان الملك سيستقر فى الحجاز و يعود اليه ما فقده على عهد معاوية وابنه .

و توفى مروان بن الحكم عام ٦٥ وقام بأمر الخلافة من بعده ولده عبد الملك فألفى نفسه أمام مشكلات عديدة أهمها مشكلة ابن الزبير فى الحجاز فجابه الاخطار بما علم عنه من اصابة الرأى ورباطة الجأش ، وسخر الله له أمراء أكفاء مثل الحجاج وعبيد الله بن زياد فتمكن بعد ثمانية أعوام من استخلاص الحجاز وقتل ابن الزبير واعادة الوحدة الى البلاد الاسلامية .

أمتدت سلطة ابن الزبير بعد فك الحصار عنه عام ٦٤ على الحجاز وولى أخاه مصعباً على المدينة ثم أرسله الى العراق فاستصفاه له من أعدائه . وظل متمتعا بسلطته التامة فى الحجاز الى ان انتهى الخليفة عبد الملك من أمر العراق عام ٧٢ فوجه اليه قوة عظيمة بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفى . فوصل الحجاج مكة فى جمادى الاولى عام ٧٢ وحاصرها ورمى الكعبة بالمنجنيق كما فعل الحصين بن نمير قبل ذلك بثمانى سنوات وشدد الحصار على أهل مكة حتى ضاق الامر فى وجوههم وخرجوا الى الحجاج يطلبون الامان وفيهم أولاد ابن الزبير نفسه . فيئس عبد الله من النجاج

وخرج للقتال فغلب على أمره وصلبه الحجاج عام ٧٣ [1]. وكان لابن الزبير من العمر ثلاث وسبعون سنة .

وفى خلافته هدم بناء الكعبة من الاساس على أثر التصدع الذى حدث من الحريق ورمى المنجنيق فى حصار عام ٦٤ وأدخل فيها حجر اسماعيل وفتح لها باباً آخر من جهة الغرب واستند فى ذلك على حديث روته له والدته عن السيدة عائشة .

فلما قضى الحجاج على ابن الزبير كان بنيان الكعبة متصدعا أيضاً فكتب الى عبد الملك يستأذنه فى اعادة بنائها على الشكل الذى كانت عليه قبل بناء ابن الزبير فكان له ذلك . فقصر من جهة الحِجْر وسد الباب الغربى وجعلها على الشكل الذى نراها الآن عليه . وبموت ابن الزبير عاد حكم البلاد العربية الى يد الامويين وثار أحد الخوارج المسمى بأبى فديك فى مقاطعة البحرين على عبد الملك فأرسل اليه جيشاً أدبه وطرده منها .

٥ — خلفاء عبد الملك

بعد القضاء على ابن الزبير عادت الحال فى ادارة هذه البلاد الى ما كانت عليه . يعين الخلفاء فى دمشق أمراء من قبلهم لادارتها ثم يعزلونهم حينما يبدو لهم ذلك وكان بعض الخلفاء يزور الحجاز فى خلافته كما حصل للوليد بن عبد الملك ولعمر ابن عبد العزيز و بعضهم لايعلم عن موطن آبائه وأجداده الا ما يقصه عليه أمراؤه أو مهذبوه .

وتاريخ القسم النجدى من هذه البلاد غامض جداً فى تلك الادوار ولا توجد لدينا معلومات جلية نستطيع أن نعتمد عليها فى ذكر ما كان فيها من احداث غير

(١) الطبري مجلد ٧ ص ٢٠٢ ومابليها
(٢) الطبرى مجلد ٧ ص ١٠٦

أن ادارة نجد كانت تتبع فى الغالب امارة العراق أو امارة البحرين وادارة عسير كانت تلحق بالحجاز أو باليمن .

أما من وجهة الاعمال الاصلاحية فان عصر الوليد بن عبد الملك من أبهى الادوار التاريخية فى الحجاز فانه عين ابن عمه عمر بن عبد العزيز أميراً على المدينة المنورة وجمع له امارة مكة أيضاً عام ٨٧ [١] فسار عمر فى ادارة الامور على سيرة جده لأمه عمر بن الخطاب واتخذ أشهر فقهاء المدينة اذ ذاك مستشارين يرشدونه وينفعونه برأيهم .

وفى عام ٨٨ أمره الوليد ببناء المسجد النبوى وتوسيعه ليكون مائتى ذراع طولا فى مائتين مثله وان تدخل فيه دور أزواج النبي أيضاً ماعدا المقصورة التى فيها القبور الثلاثة وهى مقصورة السيدة عائشة [٢] .

وأمره أيضاً ببناء الفوارة التى يشرب منها أهل المدينة وتسهيل السبل مابين الحرمين وتمهيد الثنايا الواقعة فيها [٣] . وحج الوليد عام ٩١ [٤] . وعزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة بعد ذلك بسنتين وكان سبب نقمته عليه على مايقال تهاونه فى أمر من هرب من أهل العراق الى المدينة فراراً من ظلم العمال فى العراق وولى المدينة بعده عثمان بن حيان المرى .

ولم يطرأ على حالة هذه البلاد أيام سليمان بن عبد الملك وعمر ما يستحق الذكر فان الحجاز كان راتعاً فى حالة من الرخاء لايريد عنها بديلا وكانت نجد والبحرين بعيدة عن الفتن والقلاقل يتقلب على ادارتها الامراء دون أن يحصل فى أيامهم ما يستحق الاهتمام .

وحصل فى أواخر أيام دولة بنى أمية على عهد الخليفة مروان الثانى انه بينما كان

---

(١) الطبرى م ٨ ص ٦٤
(٢) الطبري م ٨ ص ٦٥
(٣) الطبرى م ٨ ص ٦٦
(٤) الطبري مجلد ٨ ص ٨١

الناس فى الموقف بعرفة حجة عام ١٢٩ اذ طلعت عليهم أعلام وعمائم سود على رؤوس الرماح ففزع الناس من ذلك وسألوا عنهم فقالوا انهم مخالفون لمروان وحكومته وآله . وتم الاتفاق على عدم تعرض فريق للفريق الآخر فى عرفة وعلى اتمام الحج دون أى خصام . وكان هؤلاء القادمون من الخوارج والاباضية فانصرفوا من مكة الى المدينة بزعامة رئيسهم المختار بن عوف الازدى[1] وهرب أميرها عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وأقام المختار وأصحابه فى المدينة بضعة أشهر ثم انصرف منها فى قومه الى الشمال فالتقى بقوات مروان فى وادى القرى ومات مقتولاً عام ١٣٠[2] .

---

(١) المسعودى م ٢ ص٢٠٣ والطبرى م ٩ ص ٩٥
(٢) الطبرى م ٩ ص ١٠٧ - ١١١

الفصل التاسع

العباسيون وملوك الطوائف

شأن البلاد على عهد العباسيين اجمالا ـ الحوادث المهمة حتى ظهور القرامطة
القرامطة ـ ملوك الطوائف

---

١ ـ شأن البلاد على عهد العباسيين اجمالا

حينما كثرت مشاغل الخلفاء في العواصم التي هم فيها ، واتسعت رقعة الممالك الخاضعة لهم ، وكثر الأدعياء والاضداد والاعداء ، أهملوا شأن هذه البلاد ولم يعيروها الاهتمام الا بقدر مايحفظ لهم السيطرة على الحجاز ، ويمنع أعداءهم من الانتفاع به .

ولا مشاحة فى أن العباسيين قاموا فى الحجاز بمآثر عديدة الا أن ذلك ظل محصوراً فى الحرمين الشريفين والاماكن الموصلة اليهما . وأما الانحاء الاخرى فانهم أهملوا شأنهـا وتركوها على حالها البدوية فعادت للقبـائل سيرتها الاولى : ـ نهب ـ وغزو ـ وفتن ـ وحروب ، إما فيما بينها وإما تعضيداً لامير على أمير وكانت نجد خاضعة أكثر الاوقات لسلطان الامير العباسى فى الحجاز . وقد فعل هذا أبو العباس السفاح فانه عام ١٣٣ ولى خاله زياد بن عبد الله بن عبد المدان على المدينة ومكة والطائف واليمامة [١] ، وأبو جعفر المنصور فانه ألحق ولاية البحرين بالحجاز .

---

(١) الطبرى مجلد ٩ ص ١٤٧

وكان الغالب أن تجتمع امارة الحجاز لامير واحد إلا أن هذا كان تابعاً لرأى الخليفة يفصلها حينا الى امارتين فى المدينة امارة وفى مكة والطائف امارة أخرى ويضمها حينا آخر أو يضمها ويزيد عليها مقاطعات أخرى .

والمعلوم من تاريخ هذه الحقبة فى البلاد العربية قليل جداً ومعظمه تاريخ فتن العلويين ، وثورة القرامطة ، وانشاء بعض المآثر فى الحرمين أو فى الطرق الموصلة اليهما مما سنوجزه فيما يلى .

٢ — الحوادث المهمة حتى ظهور القرامطة

أول ما نذكره من الحوادث زمن العباسيين ما أمر به أبو العباس السفاح من انشاء بعض القلاع والخانات على طريق الحج الممتدة من الكوفة ، ووضع الاعلام التى يستدل بها الحاج على طول الطريق فى أبعاد معينة .

وحج أبو جعفر المنصور وأبو مسلم الخراسانى فى خلافة أبى العباس عام ١٣٦ وكانا على غير وفاق ولكن الحج انقضى دون حادث ومات الخليفة بينما كان الاثنان فى الحجاز .

وفى عام ١٣٩ أمر أبو جعفر المنصور بالزيادة فى المسجد الحرام بمكة المكرمة فزيد فى شقه الشامى الى ماوراء دار الندوة وفى شقه اليمانى الى أن انتهى الى المنارة التى فى ركن باب بنى سهم[١] وحج المنصور عام ١٤٠ بعد اكمال الزيادة فى المسجد ووزع الاعطيات والصدقات الوافرة على أهل الحرمين[٢] .

وحج المنصور عام ١٤٤[٣] وكان ناقما على محمد وابراهيم ولدى عبد الله العلويين لعدم ظهورهما أمامه فى حجته عام ١٤٠ وكان زياد أميره على المدينة

(١) الاعلام باعلام البيت الحرام ص ٦١
(٢) الاعلام باعلام البيت الحرام ص ٦٢
(٣) الطبري مجلد ٩ ص ١٨٠

كفلهما لديه . وسبب نقمته يرويها الطبرى على وجوه عديدة [١] منها أنهما لم يحضرا لديه فى حجته ، ومنها أنهما أعدّا عدتهما لاغتياله فى الحج ، ومنها اكتشافه أنهما فى مخابرات مع بعض أعدائه فى خراسان والعراق . فأمر بحبس بنى هاشم فى المدينة وعزل أميرها وآذى بنى هاشم . ففر محمد المدعو بالنفس الزكية من وجهه الى الهند ثم عاد الى العراق ومنها الى المدينة وأطرافها وظل مختبئا الى أن أتيحت له الفرصة فى العام المقبل لاثارة المدينة على المنصور والاستيلاء عليها [٢].

فأراد المنصور أن يحل عقدة الخلاف بالمراسلة فكاتب محمداً ووعده بالعفو عنه ولكن هذا ثمل بخمرة النصر الذى ناله فى الحجاز فأغلظ فى الجواب وأعد معداته للكفاح . فأرسل المنصور عيسى ابن أخيه لحرب النفس الزكية فى المدينة ولم تجدِ هذا استعداداته ولا خندقه الذى حفره ، ولا معدات حصاره ودارت الدائرة عليه فقتل .

وثار السودان فى المدينة بعد ذلك فى نفس السنة وآذوا الامير وانتهى الامر بقتل رؤسائهم [٣] وحج المنصور بعد ذلك عام ١٤٧ ثم حج عام ١٥٨ ولكنه توفى قبل دخوله الى مكة فى بئر ميمونة ودفن فى مكة [٤].

وحج المهدى فى خلافته مابين ١٥٨ — ١٦٩ عدة مرات وكان يكسو الناس ويحسن معاملة أهل الحرمين ويمدهم بالاعطية والصدقات . وقيل انه أخذ خمسمائة نفر من نسل الانصار من المدينة وأقطعهم الاملاك الواسعة فى العراق وجدد بناء الاعلام والخانات على درب الحج ووسع فى بناء المسجد الحرام فى مكة وأدخل فيه دوراً عديدة من جهة المسعى [٥] . وحينما حجت الخيزران زوجته ابتاعت

---

(١) الطبري مجلد ٩ ص ١٨٠ ـ ١٩٣

(٢) قصة خروج محمد فى المدينة وقتله مفصلة فى الطبرى فى حوادث سنة ١٤٥ مجلد ٩ ص ٢٠٧ — ٢٣٥

(٣) الطبرى مجلد ٩ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٨

(٤) الطبرى م ٩ ص ٢٩٢

(٥) الاعلام ص ٧

أما كن عديدة فى مكة وأنشأت فيها مساجد منها مولد الرسول فى سوق الليل، ودار الارقم فى الصفا . ثم زاد المهدى فى الحرم زيادة أخرى سنة حجه .

وفى خلافة الهادى ثار الحسن بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب فى المدينة وتغلب على مكة المكرمة أيضاً واقتتل جمعه مع الجيش العباسى بقرب فخ فقتل الدعى يوم التروية من عام ١٦٩ [١].

وتمتع أهل الحرمين فى خلافة هارون الرشيد بقسط واسع من الرفاه والرخاء وكان هارون يحج أكثر الاعوام ويوزع الصدقات والاحسانات .

وقامت السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون ووالدة الامين بمد المياه الى مكة المكرمة وعرفة من وادى حنين ووادى نعمان . فالمياه من حنين جلبتها الى مكة والمياه التى من وادى نعمان جلبتها الى عرفة وأدارتها حول جبل الرحمة وأمرت بمدها من هنالك حتى وصلت الى منى عند البئر المعروفة الآن ببئر الجن [٢].

وفى حجة الخليفة هارون عام ١٨٦ كتب عهده لولديه وعهد كليهما على الآخر وعلقه على الكعبة [٣].

وفى خلافة المأمون عام ١٩٩ حصلت فى الحجاز فتنة اتباع ابن السرايا وتولى جماعته أمر مكة المكرمة والمدينة وفعلوا فى البلاد أموراً من إتلاف المال وحرق الدور والأثاث ونهب ستائر الكعبة وما فى المسجد من ذهب وما فى الخزائن من ودائع [٤].

وفى خلافة الواثق حصلت حوادث قبائل بنى سليم وأشجع وهلال فى المدينة:

---

(١) تاريخ القطبي ص ٦٨

(٢) وضع السيد عبد الله الزواوى رسالة صغيرة فى تاريخ عين زيدة التي يقصد بها الآن العين التي يستقى منها اهل مكة . والحقيقة ان العين الممتدة من منى الى مكة ليست من صنع زبيدة بل ان السيدة المذكورة جلبت الماء الى مكة من عين حنين المسماة الآن بعين الزعفران ومدت العين المعروفة باسمها من وادي نعمان الى عرفة ومنى فقط .

(٣) الطبرى م ١٠ ص ٧٣-٧٩

(٤) الطبرى م ١٠ ص ٢٢٨ - ٢٣٥

وأطرافها فوجه عليهم الواثق عام ٢٣٠ القائد بغا فظل يحاربهم ويقتاد من زعمائهم الى أن قضى على فتنتهم التى أسرفوا فيها فى النهب والسلب والاعتداء على الآمنين . وفى عام ٢٣٢ سار بغا بأمر الواثق الى اليمامة لقتال بنى نمير وباهلة بقرب السرّ فأوقع بهم وأخذ منهم عدداً كبيراً من الاسرى[1] .

وقام دعىّ علوى فى مكة فى خلافة المستعين بالله عام ٢٥٠ فنهب مافى خزائن الكعبة من الاموال وقام لقيامه بعض العلويين فى المدينة بعد ذلك ، إلا أن أمرهم انتهى بما ينتهى اليه أمر كل مفسد[2] .

وفى خلافة المعتمد قام أحد أدعياء العلويين بالمدينة عام ٢٧٩ فنهب ما فى المسجد الحرام ومنع الناس من الخروج فظلوا محصورين لايجسرون على الخروج مدة أربعة أسابيع .

٣ — القرامطة

أنتج الخلاف بين علىّ ومعاوية ، وقتل الحسين فى كربلاء ، واضطهاد أهل البيت ، انقساماً عظيماً فى العالم الاسلامى ، وكثر عدد المتشيعين لأبناء علىّ والمعتقدين بأفضليتهم وتقدمهم واشتد حماس الجمهور فى الدفاع عنهم كما كثر عدد الادعياء والوصوليين الذين استفادوا من إذكاء نار الحماس لنيل مآربهم الخاصة وساعد على اشتداد الانقسام عمل الشعوبيين الذين لم يدخل الاسلام الى قلوبهم وكان جل قصدهم هدمه والقضاء عليه .

وأهم الدعوات الحزبية التى نشأت عن اضطهاد العلويين ، وتشيع شيعتهم لهم ما قامت به فرق الشيعة الامامية بقسميها : السبعية اتباع محمد بن اسماعيل ؛ والاثنا عشرية أتباع جعفر الصادق . ولسنا هنا فى معرض الدخول فى تفاصيل هذه الفرق .

---

(١) الطبري م١١ ص ١٢ — ٢٣
(٢) القطبي ص ٩٨ والطبرى م ١١ ص ١٣٦

ولكننا أشرنا اليها للعلاقة الجامعة بينها ، وهى الحركات الهدامة المختلفة من اسماعيلية وفاطمية وقرمطية .

أما القرامطة فهم شيعة ينتسبون الى شخص يسمى حمدان قرمط ، عانى الاصل غالى فى التشيع لاهل البيت ودعا النـاس الى اتباعهم دعوة دينية خالصة انقلبت فيما بعد الى دعوة سياسية بتأثير أبى سعيد الجنابى وهمته [١] .

ففى أواخر المائة الثالثة للهجرة تغلب أبو سعيد على شرقى الجزيرة واستولى على البحرين وهجر [٢] وخلع طاعة المعتضد العباسى وشن الغـارة على الاصقاع العربية ونهب قوافل الحجاج .

وبعد موته قام بأمر القرامطـة ابنه أبو طاهر فهاجم الحرمين الشريفين من مقره بالقطيف ودخل مكة المكرمة عام ٣١٧ للهجرة ، فنهب مكة وانتزع الحجر الاسود من مكانه فى البيت ونقله الى واحة القطيف ووضعه فى مسجـد الضرار لكى يصرف الناس اليه عن مكة . وظل حكم أبى طاهر للحرمين مدة تزيد عن عشرين سنة كان الحجر الاسود خلالها فى هجر . وكان القرمطى على صلة بالفاطميين فى افريقية الشمالية وينتسب اليهم ، فلما أمره الفاطمى باعادة الحجر الى البيت نقم القرمطى على الفاطمى وقطع صلته به وأعيد الحجر الى مكة عام ٣٣٩ .

وزالت قوة القرامطة السياسية بعد أبى طاهر وانحصرت سلطتهم فى جهات الحسا والبحرين مدة تقرب من قرن كامل ثم تلاشت نهائياً . وتوجد من بقـايا القرامطة فئة فى واحة القطيف حتى يومنا هذا .

٤ — ملوك الطوائف

عاد حكم مكة بعد زوال سيطرة القرامطة الى العباسيين فى بغداد إلا أن ضعف

---

(١) أنظر تفصيل امر القرامطة فى الطبرى مجلد ١١ ص ٣٣٧ وخلاصة الكلام ٥ ص ١٠ والمسعودي م ٢ ص ٤٨٤ وهو يسمى ابا سعيد بالجبائى وللمستشرق دى كوجه الهولندى كتاب عن القرامطة فى البحرين طبع فى ليدن عام ١٨٨٦

(٢) تشمل الساحل الشرقى للمملكة العربية السعودية بما فى ذلك مقاطعة الحسا والقطيف وتشمل جزائر البحرين

الخلفاء وانشغالهم بدفع المؤامرات فى بلاطهم جعلت سيطرتهم على الحرمين ضئيلة جداً . وحينما استولى الفاطميون على مصر حاولوا مد سلطانهم الى الحرمين إلا أن ما عرف من صلتهم بالقرامطة جعل أهل الحرمين يمتنعون عن قبول الحكم الفاطمى ويفضلون عليه حكم العباسيين . وقد استولى الفاطميون على المدينة أول الأمر وكان فيها عائلتان تقتتلان بنو الحسن وبنو الحسين والسلطة فى أيدى هؤلاء.

ففى الوقت الذى توفى فيه كافور الاخشيدى عام ٣٥٦ ثار أحد الحسنيين المسمى محمد جعفر على سلطة أبناء عمومته ورحل عن المدينة الى مكة واستولى عليها وحين فتح المعز لمصر دعا له على المنبر فى الحرم المكى وولاه الولاية رسمياً وباستيلاء هذا الامير تبدأ شرافة مكة التى أفردنا لها فصلا آخر فى هذا القسم من الكتاب .

وظل الحجاز من أيام الفاطميين الى حين فتح السلطان سليم العثمانى تحت حكم أمراء من الاشراف يتبعون الملك الذى يكثر لهم العطاء ويجزل لهم المنافع ، تارة يتبعون خلفاء بغداد وطوراً يتبعون ملوك الطوائف في مصر .

وأعظم ملوك الطوائف نفوذاً وأكثرهم اصلاحاً فى الحرمين السلطان نور الدين زنكى فانه حصن المدينة وأنشأ فى أطراف البلاد قلاعاً وحصوناً تحميها من هجمات المغيرين من البادية وأمن السبل وعم المساواة والعدالة .

وكان نفوذ الايوبيين عظيماً أيضاً ، فانهم منعوا الاشراف ورؤساء العربان وأمراءهم من الاعتداء على الحجاج وظلمهم . وكان الشريف الحسنى فى مكة والامير الحسينى فى المدينة خاضعين لحكم الملك المصري إلا أنهما كانا يتصرفان بأحوال أهل مكة والمدينة وفى شؤون الحجاج على النحو الذى يروق لهما .

وقد بقيت من أيام المماليك آثار عمران عديدة فى الحرمين منها مالايزال باقياً الى يومنا هذا [١].

---

(١) من جملة الآثار ماخلفه الملك الظاهر والسلطان قايتباى والغورى من المدارس والتكايا ودور الاحسان .

الفصل العاشر

آل عثمان

الفتح العثمانى ـ حكم آل عثمان ـ عمل السلاطين المتقدمين ـ آل سعود والاشراف والمصريون ـ استعادة العثمانيين قوتهم ـ دور السلطان عبد الحميد الحكم الدستورى

١ ـ الفتح العثمانى

ظلت الحكومة العثمانية مستولية على هذه البلاد بالفعل طيلة أربعة قرون كانت سلطتها فى خلالها فى صعود وهبوط الى أن أزيلت تماما عام ١٩١٧ ميلادية بعد مرور أربعمائة سنة على استسلام البلاد للسلطان سليم العثمانى فاتح مصر والخليفة الاول من آل عثمان عام ٩٢٢ هجرية .

وبالرغم من قيام امارات محلية واسعة السلطة والنفوذ ، قبل الفتح العثمانى وبعده فان السلطة الرئيسية التى كان يستمد الامراء قوتهم منها زمن العثمانيين هى قوة السلطنة وعظمتها . وكان النفوذ العثمانى فى الحجاز أقوى منه فى أى قسم آخر من البلاد ، فقد وجدت نواح كان العثمانيون قانعين منها بالاعتراف بالسيطرة الاسمية دون الفعلية ولم تطأها أقدام موظفيهم وجيوشهم وخرجت مقاطعات عديدة من يد الدولة كما حصل فى الحجاز أيام حكومة آل سعود الاولى ، وكما حصل أيام حكومة محمد على باشا ولكن الحكومة العثمانية استعادت سلطتها ونفوذها فى أواسط

القرن الماضى بشكل أوضح من كل وقت ونشرت سيطرتها الفعلية فى الحجاز وفى الحسا وأنشأت تدير البلاد بشكل مباشر فعلىّ قضى على نفوذ الامراء والحكام المحليين . وفى عام ١٨٧١ استولى مدحت باشا أيام ولايته فى العراق على ساحل الحسا وبعض نجد . وفى أوائل القرن العشرين استولت جيوش الحكومة العثمانية على القصيم فى أواسط نجد ولكن سلطتها تقلصت رويداً رويداً الى أن زالت تماما على كل البلاد العربية زمن الحرب العمومية ١٩١٤ ـ ١٩١٨

ويمكن تقسيم حكم آل عثمان فى البلاد العربية اجمالا الى ثلاثة أدوار ، الدور الاول دور السلاطين العثمانيين المتقدمين ذوى القوة والمنعة ، والدور الثانى دور السلاطين الضعاف من العثمانيين المنهمكين اما بالحروب فى جهات أوروبا واما فى نعيم القصور و بذخ السرايات ، والدور الثالث دور السلاطين المتأخرين زمن النهضة الحديثة فى أوروبا والاصلاح فى الممالك العثمانية من عهد السلطان محمود الى زوال حكم العثمانيين نهائيا . وتاريخ هذه البلاد زمن الحكم العثمانى مندمج فى تاريخ الامارات المختلفة التى كانت قائمة هنا و هنالك من شرافات أو امارات بدوية أو امارات آل سعود وآل الرشيد .

٢ — عمل السلاطين المتقدمين

بدأ حكم آل عثمان فى هذه البلاد باستلام السلطان سليم الاول مفاتيح الحرمين الشريفين فى أواخر عام ٩٢٢ هجرية الموافق ١٥١٧ ميلادية من الشريف بركات واقراره اياه فى الشرافة وأول مآثر هذا السلطان انه رتب لاهل الحرمين صدقة الحب أمر بارسالها لهم من مصر ويقال انه اشترى من ماله أرضاً فى الديار المصرية جعل محصولها صدقة لاهل الحرمين ويقال أيضاً انه أول من أحدث المحمل الشامى وأول من كسا الكعبة من آل عثمان[1] .

---

(١) خلاصة الكلام ص ٥١

ولم يطل زمن ملكه بعد فتح هذه البلاد فخلفه ابنه السلطان سليمان القانونى عام ٩٢٦ هجرية وأعماله فى الحرمين مما وصل الينا أشهر من أن تذكر من ذلك ارساله للمنبر الرخام البديع الموجود للآن فى الحرم المكى أمام الكعبة ؛ ومن ذلك شروعه فى عمارة المسجد الحرام المكى وتوسيعه على الشكل الذى بقى عليه الى وقتنا الحاضر ؛ ومنها بناء أسوار جدة ؛ ومنها اصلاح سقف الكعبة المشرفة (٩٦٠ هـ) وأعظم من ذلك جميعاً الشروع فى زمانه فى جر ميـاه عين زبيدة من منى الى مكة المكرمة بعد ان عجز الاول عن حفر القناة اللازمة لايصالها من بئر زبيدة (المعروفة الآن ببئر الجن) الى أن تتصل بعين زبيدة (عين الزعفران) وعين حنين المجرورة من حنين.

ومن أعمال السلطان سليمان ومآثره زيادة عنايته بأهل الحرمين وتخصيص مبالغ كبيرة من الصدقات والاوقاف لتوزيعها عليهم. وفى زمن سلطنته حاصر البرتقاليون جدة فردهم عنها الشريف أبو نمى[1].

وخلفه ابنه السلطان سليم الثانى عام ٩٧٤ فسار على خطة أبيه الاصلاحية فأكمل القسم الاعظم من بناء المسجد الحرام المكى وجعل سقوف أروقته مفتولة بالحجارة بعد أن كانت مسقفة بالخشب وأتمه بعد وفاته ابنه السلطان مراد الثالث.

وفى زمن حكم السلطان سليم الثانى المبحوث عنه أكمل جر مياه عين نعمان المعروفة باسم عين زبيدة الى مكة واختلطت مياهها بمياه عين الزعفران (عين حنين) فى الابطح فى أعلى مكة.

وفى مدة حكم السلطان احمد الاول (من عام ١٠١٢ ـ ١٠٢٦هـ) حصل خلل فى بناء البيت فاحب هدمه وإعادة بنائه فلم يوافقه العلماء على ذلك وأشاروا عليه بان يكتفى بتطويق جدرانه بأطواق نحاسيـة مموهة بالذهب فانها تغنى عن الهدم وتدرأ خطر السقوط فعمـل بما أشير عليه. وهو الذى بعث الى الحجرة النبوية

---

(١) خلاصة الكلام ص ٥٢

بالمسجد النبوى بالمدينة المنورة مختلف التحف والنفائس وأهمها على الاطلاق الكوكب الدرى المشهور .

وكان حكم آل عثمان اذ ذاك شاملا لكافة الحجاز حتى رأس حلى جنوبى القنفذة وأما نجد وسائر الجهات الداخلة فى حدود المملكة الحالية فلم يكن لهم فيها نفوذ فعلى .

وفى زمن السلطان مراد الرابع فاتح بغداد (عام ١٠٣٢ ـ ١٠٤٩هـ) أعيد بناء الكعبة على الشكل الذى هى عليه فى أيامنا الحاضرة . وسبب ذلك أنه حصل عام ١٠٣٩ هـ سيل عظيم دخل الحرم كما يحصل دائما بالسنوات الاخيرة ولكنه كان سيلا عظيما ملأ صحن المسجد على ارتفاع عظيم لم يذكر مثله ويقال انه بلغ طوق القناديل المعلقة فى الحرم وخرب كثيراً من الدور والابنية وانهدم الجداران الشامى واليمانى الى الباب وحصل من جراء ذلك قلق عظيم فنقلت الآنية من البيت ووضعت فى دار الشيبيين ورفع الامر الى السلطان مراد الرابع فأمر بعد استفتاء العلماء بهدم الاقسام الاخرى من الجدران المبطنة والباقية فهدمت وأعيد بناؤها بعد عمل دام سنة وشهرين . وكانت المرة الاولى التى أعيد بناؤها فيها فى الاسلام بعد بناء قريش لها زمن الرسول (ﷺ) أيام الحجاج والى الخليفة عبد الملك بن مروان الاموى والباب الحالى فى الكعبة هو الباب الذى صنع زمن السلطان مراد [1] .

وضعفت هيبة سلاطين آل عثمان بعد مراد لانهم بانشغالهم بالفتن الداخلية والحروب الخارجية أهملوا حكم البلاد وتركوا الاحكام فى أيدى الامراء المحليين من أشراف وأمراء ولم يعد يهم أهل البلاد من سلطانهم إلا دوام إرسال المحامل الثلاثة من العراق والشام ومصر وإرسال الصدقات السنوية الى أهل الحرمين .

ودامت الحال كذلك الى عهد السلطان محمود (١٢٢٣ ـ ١٢٥٥ هـ) فقد

(١) خلاصة الكلام ص ٧١

حصل إذ ذاك انقلاب فكرى ودينى عظيمان فى البلاد العربية بظهور الحركة الاصلاحية فى نجد وانتشارها الى الحجاز وسائر الاقطار العربية . واستولى سعود الكبير على البلاد التى تتألف منها رقعة المملكة الحالية كما سنوضحه فى مكانه المخصوص من هذا القسم . ولم يخرج منها إلا على يد محمد على باشا والى مصر الذى يحسب استيلاؤه على هذه البلاد فترة تخللت الحكم العثمانى وقضت عليه ودامت الحال كذلك الى أن استعادت الدولة العثمانية البلاد من محمد على واعادتها الى سلطانها حوالى عام ١٢٥٥ هـ (١٨٤٠ م).

٣ — آل سعود والاشراف والمصريون

كان من جراء الحركة الاصلاحية الدينية والاجتماعية فى البلاد العربية أن وقعت حروب ومناوشات عديدة بين الاسرتين الكبيرتين المالكتين تحت سلطان الدولة العثمانية : آل سعود والاشراف انتهت باستيلاء آل سعود على الحجاز وتوسيع رقعة ملكهم حتى شملت جميع الاراضى الداخلة فى حدود المملكة الحالية .

وكانت الدولة العثمانية فى حالة من الضعف والتضعضع عظيمة ، فقامت فى مصر حكومة مصرية عربية يرأسها محمد على باشا وقامت فى نجد حكومة عربية يرأسها آل سعود وكانتا ترميان الى القضاء على السيطرة العثمانية وبعث الفكرة العربية فارتاعت الدولة من ذلك وأرادت أن تصيب هدفين بحجر واحد فرمت نجداً بمحمد على باشا فجر عليها الجيوش والحملات العديدة تحت قيادة نجليه طوسون وابراهيم ثم تحت قيادته هو فتمكن من الاستيلاء على الحرمين وعلى البلاد النجدية وبلاد عسير أيضاً وعوضاً عن أن يعيد هذه البلاد بكاملها الى حظيرة السلطنة العثمانية شرع فى ادارتها على وجه الاستقلال كما لو كانت بلاداً خاضعة لحكمه المباشر

مدة تقرب من ربع قرن الى أن أخرج منهـا عام ١٨٤٠ ميلادية وظلت مقاطعتا الوجه والعقبة تحت ادارة والى مصر الى أواخر أيام اسماعيل باشـا فاسترجعتها الحكومة العثمانية منه .

وكان من نتائج الحكم المصرى ازدياد العلاقات بين مصر والحجاز وتبديل السلالة الشريفية الحاكمة بسلالة أخرى من العبادلة هى عائلة ذوى عون وانشاء كثير من الآثار العامة مثـل دار الحكم بمكة المكرمة ، والتكية المصرية التى أنشأها محمد على باشا على أنقاض دار السعادة مقر الاشراف حكام مكة . وكان من جراء ذلك أيضاً بعث روح جديدة فى البـلاد وفتحها للافرنج وتقريبها الى علمائهم والسير فى الحكومة على نهج الحكومات الحديثة .

٤ — استعادة العثمانيين قوتهم

شرعت الحكومة العثمانية فى استعادة ما فقدته فى الحروب المصرية من أملاكها العربية بعد انحلال قوة محمد علي العسكرية فى سوريا حوالى سنة ١٢٥٥—١٢٦٥ هجرية (١٨٤٠ — ١٨٥٠م) فاستولت أول الأمر على البلاد الحجازية ثم تقدمت الى جهات عسير حيث كان أحد الاشراف المدعو حسيناً ذا سلطـة فى قضاء أبى عريش وقضت على امارته وتم لها الاستيلاء على عسير واليمن خلال عشر سنوات.

ولم ينقل الحكم الحقيقى فى الحجاز رأساً من محمد علي باشا الى الاتراك بل نقل الى الشريف محمد بن عون . فاستمال القبائل اليه ووسع حـدوده الى الشرق حتى بلغ القصيم وفرض على آل سعود نوعاً من الجزية وتأمينا لبقاء نفوذه فى نجد شجع قيام امارة آل الرشيد فى حائل .

ولـكن لم يمض على ذلك وقت قصير حتى انتزعت السلطـة من يد الشريف ووضعت فى يد الوالى العثمانى واستيق محمد بن عون وأهله الى القسطنطينية ونصب

مكانه الشريف عبد المطلب من فرع الاشراف ذوى زيد منافسى ذوى عون ، ولم تتعد قوات الدولة العثمانية حدود الحجاز الشرقية طيلة زمن السلطان عبدالمجيد .

وحصل فى الحجاز نفسه عدة فتن ضد حكم العثمانيين زمن هذا السلطان وذلك بسبب الفقرة الخاصة بالرقيق من الخط الهمايونى الشهير الذى نشرلتعميم الاصلاحات فى البلاد العثمانية على وجه المساواة وكان من نتيجة هذه الفتنة أن عزلت الحكومة الشريف عبد المطلب وأعادت محمد بن عون الى الشرافة .

وقد اكتفت الحكومة العثمانية من آل سعود وآل الرشيد بالانتساب اليها و اظهار التعلق بها اسمًا ، وكان موقف ابن الرشيد أقرب الى موالاتها نظراً لاحتياجه اليها و الى مساعدات حكامها فى العراق لمقاومة أعدائه من آل سعود والصباح و المنتفك . وكان بين الاشراف و ابن رشيد أول الأمر نوع من الصداقة ظلت بقاياه الى أواخر أيام آل الرشيد .

غير أن ماصبر عنه العثمانيون بادىء بدء كان لحاجة فى النفس فلما اشتد ساعدهم أدالوا سلطة الاشراف وجعلوا الإهمية للوالى الذى بلغ به الأمر أنه كان يعزل الشريف الزيدى لينصب مكانه الشريف العونى .

و بلغت قوة آل عثمان مبلغها العظيم أيام السلطان عبد العزيز فانه تغلب على كافة أنحاء البلاد العربية بما فى ذلك اليمن و الحسا ، فاستولى القائد مختار باشا على صنعاء عام ١٨٧٢ و مدحت باشا على الحسا عام ١٨٧١ وجعلت سلطة الشريف منحصرة فى البدو دون الحضر وفى معاملات الحجاج و ترتيب الجمال و المياه و بعض الوظائف الادارية .

و للسلطان عبد المجيد أعمال عظيمة فى الحجاز أهمها اعادة الاصلاح فى الحرم المدنى و إنشاء العيون و المدارس فى كل من مكة المكرمة و المدينة المنورة .

٥ — دور السلطان عبد الحميد

١٢٩٣ - ١٣٢٦ هجرية . ١٨٧٧ - ١٩٠٩ ميلاديه

جلس السلطان عبد الحميد الثانى على عرش السلطنة وحكومته فى حالة ضيق وكرب شديدين فقد كانت الحرب مشتعلة بينها و بين الروس وجنود هذه يهددون عاصمته فما كاد يخرج من الحرب مهزوماً مغلوباً حتى شرع فى انتهاج سياسة جديدة اتخذها لمقاومة دول أوروبا الاستعمارية وكان مرمى هذه السياسة الدعوة الى الجامعة الاسلامية لجمع شمل المسلمين تحت لواء الخلافة ، والعرب هم العنصر الرئيسى فى الاسلام و بلادهم منشأ الاسلام ومهده وموطن آثاره المقدسة وفيها البيت و المشاعر والمسجد النبوى .

وكانت الدول الاوروبية أيضاً شارعة فى مد نفوذها الاستعمارى على البلاد المصاقبة للبلاد العربية فكان لزاماً على عبد الحميد أن يلجأ الى محاسنة العرب من جهة وتوطيد قدمه فى بلادهم من جهة أخرى لكى يصح أن يظل متمتعاً بلقب خادم الحرمين الشريفين وخليفة المسلمين الذى ينضوى تحت لوائه المسلمون .

وقد كلفت هذه السياسة كلا من عبد الحميد والعرب أثماناً باهظة ، فانه رغبة منه فى توطيد قدمه فى البلاد العربية كان يرسل اليها الجيش تلو الجيش والحملة تلو الحملة لدفنها فى مجاهل البلاد العربية وفيافيها .

والمأثرة الخالدة لعبد الحميد قيامه بانشاء سكة حديد الحجاز الممتدة من دمشق الى المدينة المنورة بطول يزيد عن ١٣٠٠ كيلومتر وانفاقه عليها من تبرعات المسلمين فى أنحاء المعمورة ، ومما خصصه لها من المبالغ والاعانات المالية وتشغيل الجنود فى أعمال الحفر والانشاء .

وقلما خلت مدينة كبيرة من إثر من آثار عبد الحميد فتجد فى اكثرها عمارات تسمى بالحيدية وفى مكة المكرمة قلاع وثكنات ومستشفيات ودور حكومة بنيت فى أيامه .

ولم يحصل فى الحجاز زمن عبد الحميد ثورات أو فتن تستحق الذكر الا أن اعتداء العربان فى طريق الحرم على قوافل الحجاج وسلبهم إياها كان كثير الحصول، ولا شك أن وزر ذلك يقع إجمالا على الحكم الثنائي الذى فسح المجال أمام الاشراف والولاة للتلاعب بحقوق الحجيج والاهالى على السواء.

وقد كثرت تجريدات عبد الحميد على اليمن كما أنه مساعدة لابن الرشيد جرد عدة قوات لمحاربة ابن سعود ومن ذلك ارساله للقائد فيضى باشا عام ١٩٠٤ لاحتلال القصيم وتثبيت السيطرة العثمانية عليها، ثم ارساله سامى باشا الفاروقى لنفس الغرض.

ولكن سياسة عبد الحميد العربية لم تعمر أكثر من زمانه فقد عقب إعلان الدستور حركات فى اليمن وبلاد الادارسة وتجد مرماها الانفلات من حكم العثمانيين وانشاء حكومات عربية لا علاقة لها بالدولة.

وقد شهد عبد الحميد نفسه انثلال عرش آل سعود وقيام حكومة آل رشيد تحت زعامة محمد بن رشيد أكبر العائلة الرشيدية وأعظمها على الاطلاق، كما أنه شاهد عبد العزيز بن سعود ينمو فى القوة ويترعرع لكى يرث بعد خلع عبد الحميد ببضع عشرة سنة أكبر تراث خلفته الحكومة العثمانية فى بلاد العرب.

وكان الشريف عون الرفيق فى الحجاز آلة مسخرة فى أيدى ولاة عبد الحميد ليس له من الحول والطول شيء.

وأما فى عسير فكان ابن عائض والادريسى يهيئان نفسيهما للقيام على الدولة غير أن عملهما هذا جاء بعد خلع عبد الحميد.

٦ — الحكم الدستورى

١٣٠٦ — ١٣٣٦ هجرية * ١٩٠٨ — ١٩١٨ ميلادية

في الفترة التي تلت اعلان الدستور العثمانى وخلع عبد الحميد حصلت فى هذه

البلاد أحداث جسام انتهت بزوال الحكم العثمانى عن البلاد العربية الى الابد .

فاول ما كان من الاحداث ظهور حركات السيد محمد على الادريسى فى تهامة وعسير ومخلاف اليمن فى الوقت الذى كان الامام يحيي حيد الدين امام اليمن يحارب الدولة أيضاً .

وحصل أنه على أثر اعلان الدستور عزل الشريف على باشا عن إمارة مكة وعين عوضاً عنه الشريف حسين بن علىّ الذى شرع منذ وصوله الى الحجاز فى استعادة هيبة الامارة واسترداد سطوتها وصولتها السابقتين .

وقد ساعدته الظروف على استخدام نفوذه الشخصى للظهور بين العربان كافة خلال الحركات الادريسية ، فقد عرض خدماته على الدولة التى عهدت اليه بقيادة حملة عسكرية عثمانية لقتال السيد الادريسى وفك الحصار عن مدينة ابها .

وتلا ذلك حركات وحروب بين الشريف حسين وابن سعود وهجوم ابن الاول على ديار الثانى حتى وصل الى قرب القصيم .

ومن الاحداث التى تلت ذلك أيضاً استيلاء الملك عبد العزيز بن سعود على الحسا وسواحل الخليج الفارسى العثمانية عام ١٩١٣ واشتداد الحركة العربية قوة فى هذا الوقت وصيرورة أمراء العرب مطمح انظار الامة العربية جمعاء تنظر اليهم كينقذيها من الأتراك ومحرريها من حكمهم وقد ظهر امراء العرب جميعاً فى خلال هذه البرهة بمظهر القوة والسطوة وكانت الدولة تحسب لهم الحساب .

وحين اعلان الحرب العمومية كان موقف الدولة العثمانية فى البلاد العربية موقفاً لا يحمد . ولم يشد أزر الدولة فى السنوات الاولى من الحرب إلا ابن رشيد الذى ظل على ولائه ، وأما الشريف حسين فقد حالف الحلفاء ورفع علم الثورة العربية وحارب الى جانب الانكليز والفرنساويين ضد الاتراك والالمان والتف حول الحسين شبان العرب من سائر الاقطار العربية عاقدين عليه الآمال الجسام

لتحقيق أمانيهم القومية ، وانشاء دولة عربية جديدة إلا أنه لم يقدر للحسين أن يكون ذلك الباني للمجد العربي .

وأما ابن سعود فقد وقف موقف المتفرج في الظاهر وحالف الانكليز ضد ابن الرشيد طيلة مدة الحرب وكذلك فعل الادريسي .

وانجلت غمامة الحرب عن انقشاع سيطرة آل عثمان نهائياً عن البلاد العربية ونشوء حكومات عربية مستقلة في أصقاع هذه البلاد هي أولا المملكة الحجازية ، ثانياً السلطنة النجدية ، ثالثاً الامارة الرشيدية ، رابعاً الامارة الادريسية ، خامساً امارة آل عائض .

الفصل الحادى عشر

شرافة مكة

نشوؤها ـ الشريف قتادة وأحفاده ـ الاشراف والحكم العثمانى ـ الشرافة الى اعلان الدستور ـ الشريف حسين

١ ـ نشوؤها

يوشك أن يكون تاريخ الحرمين الشريفين خلال الالف سنة الماضية عبارة عن تاريخ الشرافة ونشوئها وارتقائها ثم تداعيها وهبوطها . وقد انقضت على الشرافة حقب كانت فيها كل شيء فى الحجاز ، كما أنها فى حقب أخرى لم تكن شيئاً مذكوراً بل كان القائم بأمرها ألعوبة فى أيدى الملوك والسلاطين والخلفاء .

نشأت الشرافة فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، على يد أحد الاشراف الحسنيين[1] المدعو أبا محمد جعفر الموسوى ، مؤسس العائلة الشريفة الاولى التى تولت حكم إمارة مكة . وتوجد روايتان عن كيفية توليه لحكم مكة ، الاولى : أنه كان فى المدينة زمن الاخشيديين فلما ضعف أمرهم بعد موت كافور هجم هو على مكة واستولى عليها[2] ، والثانية : أنه حينما تولى العبيديون حكم مصر أرسل الخليفة الفاطمى من قبله من يستلم حكم مكة نيابة عنه ويخلصها من القرامطة

---

(١) نلاحظ هنا ان الاصطلاح السائد فى الحجاز هو ان يطلق اسم (الشريف) على من كان متحدراً من نسل الحسن بن علي واسم (السيد) على من كان متحدراً من سلالة الامام الحسين أخيه .

٢) أنظر هذا فيما سبق من بحث ملوك الطوائف .

وأتباعهم ، وكان جعفر أحد رؤساء الجيش الفاطمي ، فاستولى على مكة باسم الفاطميين .

ولم يخل زمانه من الحروب كما أن خليفته الاول وعلى الاخص خليفته الثانى. وهو أبو الفتوح المشهور انهمك فى حروب عديدة منها ما كان مع المدينة التى كان اذ ذاك يتولى أمرها الحسينيون ومع اليمن الذى كان امراؤه حسنيين مثل امراء مكة أنفسهم . وكان أهم المنازعين لابى الفتوح وولده محمد شكر فرع آخر من الاشراف الحسنيين يدعى بالفاتكى فان أميراً من هذا الفرع كان شديد الوطأة على أمراء مكة كما ذكرنا واستعان بأحد الاشراف ذوى السلطة فى اليمن عليهم وتمكن خلال بعض الفترات من الاستيلاء على كرسى الشرافة، وإدخال عنصر السياسة اليمانية فى شئون الحرمين الشريفين .

وقد اختلف أبو الفتوح مع الفاطميين أيضاً إذ أن الحاكم بأمر الله أرسل اليه سجلا[1] أمره بقراءته فى المسجد الحرام بسب الصحابة وبعض أزواج النبى ﷺ والانتقاص من كرامة غير الفاطميين فعصى أبو الفتوح الامر وقطع صلته بمصر ودعا الى نفسه ، ثم تحول هو ومن خلفه الى الخلفاء العباسيين فى بغداد وخطبوا لهم فى مكة . وخلال غياب أبى الفتوح عن مكة هارباً قام بأمر الشرافة الأمير الفاتكى الى أن استعاد الموسويون السلطة ثانية . وقد انقرضت هذه العائلة بوفاة أميرها عن بنت له فقط فولى الامر عبد من عبيده[2] الا أن الفاتكيين تغلبوا عليه وانتزعوا الامارة منه .

وهنالك عائلة ثالثة من الاشراف الحسنيين أبناء عمومتهم يدعون بالهواشم تداولوا حكم مكة معهم وقتا طويلا . وقد كان هذا الوقت مليئاً بالحروب والفتن والدعوة الى هذا الخليفة أو التعلق بهذا السلطان الى أن أزيلت دولة العبيديين.

---

(١) خلاصة الكلام ص ١٧ (٢) خلاصة الكلام ص ١٨

من مصر على يدى السلطان صلاح الدين الايوبى عام ٥٩٨ ﻫ (١١٧٤ م) وزالت باستيلاء صلاح الدين على الحجاز سيطرة الهواشم عن مكة ووليها أمير من فرع آخر من نسل سيدنا الحسن .

٢ — الشريف قتادة وأحفاده

كان الشريف قتادة وقومه ساكنين فى جهات ينبع ووادى الصفراء ولكنه فى أواخر القرن السادس الهجرى حصلت حوادث نجهل كنهها بالرغم عما نقله الينا بعض المؤرخين ينسبها الى استغاثة بعض مظلومى مكة به أو الى نقمته على أمراء مكة نظراً لما كانوا عليه من انهماك فى اللذات واعراض عن شئون البلاد. فكان منه آخر الامر أنه استولى على مكة عام ٥٩٨ هجرية [1] وباستيلائه هذا مكن لنفسه ولعائلته فى الحجاز وأنشأ امارة ظلت قائمة بالامر الى حين تأسيس الحكومة الحالية . وقد أخضع قتادة لسلطانه كافة الاراضى الحجازية من خيبر شمالا حتى القنفذة جنوبا .

وكانت سياسته قائمة على مصافاة الايوبيين فى مصر وسورية والعباسيين فى العراق وموالاة أمراء اليمن أيضا لحفظ التوازن فى الحجاز واستجلاب المنافع من جميع الجهات ومنع الشقاق والتنافس بين الملوك والامراء .

وولى بعد وفاته ابنه الحسن وكان جباراً جريئا دانت له جميع البلاد بعد حروب أثارها عليه إخوته وأبناء عمه . وظل خلفاء الاثنين قائمين بالامر بالرغم عن تقلب الحكومات الإسلامية وقيام دول مختلفة فى مصر وسوريا والعراق محتفظين بحكمهم فى الحجاز بفضل سياستهم فى مصافاة الحكومات القائمة فى أطرافهم جهد الطاقة واستدرار خيرات البلاد التى تقوم فيها تلك الحكومات . ومضت أعصر طويلة سارت حالة البلاد فيها على هذا المنوال مع استثناء ما كان يقع بين الامراء

(١) خلاصة الكلام ص ٢٢

أنفسهم من تنازع كان يؤدى كثيراً الى خلع هذا أو قتل ذلك وقيام واحد من أبناء عمه أو أقاربه مكانه . من ذلك ماحدث أيام نور الدين على بن عمر بن رسول من استيلاء أمراء اليمن على مكة و نصبهم أميراً عليها من قبل الملك الكامل هو طغتكين التركى ثم عزل هذا وجعل الشريف راجح بن قتادة مكانه [١] .

ومن الامراء المشهورين من نسل قتادة الامير أبو نمي الاول الذى حارب أعمامه و أبناءهم و نال الامارة آخر الامر على زمن السلطان بيبرس [٢] ويذكر التاريخ كثيراً من الوقائع التى اشتد فيها الخصام و اللجاج بين أمراء مكة وبين أمراء الحج القادمين من الانحاء المختلفة كما أنه يذكر ما كان يحصل من نهب للحجيج و إهراق للدماء أيام الحج طمعا فى الاموال أو نكاية فى الامير الحاكم .

وقد ذكرنا أن سياسة قتادة مؤسس العائلة كانت قائمة على حفظ التوازن إلا أن خلفاءه لم يحافظوا بحسب مايظهر لنا على وصاياه ولم يمشوا على سياسته و نفخوا فى بوق الاختلاف مع اليمن مراراً ، كما انهم أظهروا تحيزهم الى فريق دون فريق فجر عليهم ذلك الأمر مداخلة مصر وسوريا فى شؤونهم واخضاع المماليك لهم .

وقد كان لانقسام العائلة على نفسها ودعوة كل فريق لمن يدعمه ويشد أزره نتائج أهمها : تعيين حكام من قبل سلاطين المماليك لحماية الحجاج و انفاذ أوامر الحكومة في الحرمين. ثم هجر الامراء بمرور الزمان مكة و انتقلوا الى مر الظهران (وادى فاطمة) فضعف شأنهم الى أن جاء الى حكم الامارة الشريف حسن الثانى ابن عجلان سنة ٧٩٨ هجرية وبركات الاول ولده فانهمـا كانا من أعظم الاشراف شأناً مع أن زمانهما كان مليئـاً بالفتن والقلاقل و الحروب الداخلية بين الحسن وأبناء عمه رميثة وبين بركات واخوته أنفسهم . وقد عزل الأول عدة مرات عن الامارة ثم أعيد اليها وكان آخر أمره أن ولى للمرة الاخيرة عام ٨٢٩ هـ [٣]

(١) يجملها صاحب خلاصة الكلام سنة ٦٢٦
(٢) خلاصة الكلام ص ٢٧
(٣) خلاصة الكلام ص ٤١

فانه كان بمصر وصدر أمر السلطان بتوليته على امارة مكة ولكنه توفى قبل سفره منها فاقام السلطان برسباى ولده بركات مكانه وأرسل اليه الامر السلطانى بتعيينه ثم طلبه الى مصر فتوجه اليها .

يلاحظ المرء هنا أن الشريف قتادة أسس حكمه على دعائم سيفه واضطر الناس الى الاعتراف به بينما أن أحفاده أصبحوا عالة على السلاطين والامراء يطلبون منهم أن يولوهم الامارة فكأنهم بهذا قضوا على حقهم فى الملك وجعلوا أنفسهم أتباعاً للسلاطين يولونهم متى شاءوا ويعزلونهم متى شاءوا .

ومن الاشراف المشهورين الامير بركات الثانى الذى كان معاصراً للسلطان قايتباى من سلاطين المماليك بمصر والذى توجد المدرسة الكائنة بقرب الميل الاخضر فى المسعى باسمه الى الآن وقد حج قايتباى عام ٨٨٤ وكان مظهره فى الحج مظهر ولىّ للامر أكثر منه مظهر حاج .

ومن أشهر الاشراف أمراء مكة قاطبة الشريف أبو نمى الثانى ابن الشريف بركات المار الذكر فانه سافر الى مصر مرتين مرة للسلام على السلطان الغورى ومرة لاعلان تسليم الحرمين للسلطان سليم الخليفة العثمانى الاول عام ٩٢٢ هجرية (١٥١٧ ميلادية) .

٣ — الاشراف والحكم العثمانى

ان استيلاء السلطان سليم على الحجاز كانت له نتائج بعيدة المدى من حيث علاقة الشرافة بالسلطنة ، وضعف هذه العلاقة وقوتها ، وطروء طوارئ جمة فى البلاد الحجازية لم تكن من مصلحة أهل البلاد أنفسهم . فقد وجد السلطان فى الشريف أداة صالحة لحكم الحرمين فأطلق له الحرية فى العمل واكتفى منه باظهار العبودية والطاعة ، وقراءة اسمه فى الخطبة ، وتسهيل قدوم المحامل من الجهات الشامية والعراقية والمصرية وفيما بعد اليمانية ، واعتبار نفسه تابعاً للسلطان فى صغير الامور

وجليلها ، وموظفاً عثمانياً يصدر بتعيينه فرمان سلطانى .

وقد عهد السلطان سليم بالامارة الى الشريف بركات وأقره عليها بالاشتراك مع ابنه أبى نُمى" الى أن توفى بركات بعد الاستيلاء العثمانى بتسع سنوات فاستقل أبو نمى" بأمر مكة وظل أميراً مدة تزيد عن ستين عاماً . ويحسب أبو نمى" المؤسس الحقيقى للشرافة فانه كان متمتعاً بعطف السلطان سليمان القانونى وخلفائه ، و بسلطة واسعة لادارة الامور و تشييد الاحكام فوضع فى حكمه قواعد عديدة للشرافة والاشراف يدعوها أهل الحجاز (بقانون أبى نمى) .

ويجهل الناس حقيقة هذا القانون ولكنهم يعتقدون انه صارم جداً و بعيد عن جادة العدل والانصاف .[1]

وكما انه لم توضع للشرافة أيام العثمانيين قواعد وضوابط ، فان شكل اتصالها بالدولة وطريقته لم تتعين أيضاً . كان لوالى مصر أكبر قسط من النظارة على شئون الحجاز ، وكان لامراء الحج مثل ذلك أيام المواسم وكان لبعضهم سلطة على عزل الامير[2] وكان أمراء الحج فى اختلاف دائم فيما بينهم ولكل أمير رئيس فى الولاية التى قدم منها ـ العراق وسوريا و مصر يحدب عليه و يعضد سياسته فنشأ عن اختلاف الامراء و الولاة توطيد قدم الشريف الى مدى بعيد . وحينما احتل السلطان سليمان القانونى اليمن جعل للوالى العثمانى فى زبيد بعض النظارة على شئون الحجاز .

ويروى ان أبا نمى وولده حسن لم يوافقا السلطان على تعيين المفتى التركى فى

---

(١) فى كتاب ماضى الحجاز وحاضره للشيخ حسين محمد نصيف بحث عن قانون ابى نمى ص ١٧ ـ ١٨ جاء فيه أن القانون يقع فى ست وثلاثين مادة اهمها جعل الامارة ارثا فى أسرة ابى نمى ، ومنع الاشراف عن الاشتغال ببعض المهن ، وحقوق الاشراف بالنسبة الى العامة وجعل حق الشريف مقابل اربعة أمثال حق العامي .

(٢) ذكر صاحب خلاصة الكلام حادثة جرت بين أمير الحج محمود باشا وأبى نمى عام ٩٥٨ فقد أراد أمير الحج قتل الامير مع اولاده واعلن عزله بأمر والى مصر وحدث فى الحج فوضى عظيمة ص ٥٤٠

مكة عام ٩٤٦ هـ (١٠٣٩ م)، ولم يقبلا ايضا بأوامره التى أصدرها بعد ذلك بثمانى سنوات والقاضية بمنع الشريف من توسيع حدود الشرافة الى أبعد من حد الحجاز التقليدى وهو رأس حلى جنوب القنفذة[1].

وبالرغم عن مظاهر الامارة والسلطة التى يتمتع بها الشريف فان سلطته الحقيقية كانت مستمدة من الخليفة، وعمدته فى التولية على الفرمان السلطانى. وقد حصل مراراً أن أهل مكة أو بعض الاشراف أو جنود الحكومة أو أمراء الحج، كانوا يعزلون الشريف وينصبون ابن عمه عوضاً عنه وصاحب الحق منهم مَن تمكن من استصدار الفرمان السلطانى بالتعيين. وضاعت بمرور الزمان مميزات الامارة المستندة على حق السيف والقوة وقامت على أثرها طريقة الحكم بالفرمان. فمن كانت صلته بالسراى ورجالها وبالولاة فى مصر وسورية والعراق قوية كان له ميزة الحصول على الشرافة. ومع ذلك فان أبا نمى قد توصل الى تقرير جعل الشرافة فى نسله ولم يلها من غيرهم أحد الى أن أزيلت[2].

وقد تعاقب على الشرافة ثلاث عائلات من نسل أبى نمى الاولى عائلة ذوى بركات والثانية عائلة ذوى زيد والثالثة عائلة ذوى عون. أما الاولى فقد استقلت بالشرافة ما يقرب من مائة سنة ثم نافستها عائلة ذوى زيد حوالى ١٠٩٠ وظلت الشرافة تتنقل من زيدى الى بركاتى حتى استقل بها ذوو زيد دون ذوى بركات وظلوا فيها الى أيام فتح محمد على باشا للحجاز.

ويتلخص تاريخ الشرافة من عهد أبى نمى الى أيام الشريف غالب الزيدى فى

---

(١) هو غارث: تاريخ بلاد العرب ص ٩٥ و٩٦

(٢) مما يدل على حقيقة تابعية الشريف للسلطان ما يتناقله الناس من أخبار الرسالة التى ارسلها السلطان سليمان القانونى للشريف ابى نمى وهى من انشاء شيخ الاسلام ابى السعود المشهور. فقد جاء فيها ما يأتى (اما بعد ياشريف فان الحسنة فى نفسها حسنة ومن بيت النبوة أحسن والسيئة فى نفسها سيئة ومن بيت النبوة أسوأ. قف عند حدك والا اغمدنا فيك سيف جدك) فاجابه أبو نمى قائلا (ان العبد مقر بذنبه، تائب الى ربه. فان تؤاخذ فيدك الاقوى، وان تعف فالعفو أقرب للتقوى).

القرن الماضى بأنه تاريخ مطرد ، ووصف متشابه ، لما كان يجرى بين الاشراف أنفسهم من فتن ومعارك كان القصد منها تبديل أمير بأمير ، وفيما يجرى بين الاشراف والموظفين العثمانيين من أمراء الحج وولاة البلاد المجاورة ، وفيما يقع فى الحرمين وأطرافهما من غزو البدو واعتدائهم على السابلة وقطعهم الطريق وانتهابهم للحجاج ، وفيما يقوم به الاشراف من تجريد الحملات عليهم لكبح جماحهم وتأديبهم .

وبما اننا ذكرنا الفرمان السلطانى فيما سبق وألمنا الى انه يشتمل على الصلاحيات التى يمنحها السلاطين للاشراف رأينا أن نورد فيما يلى قسما من فرمان تولية الشريف أبى طالب بن حسن بن أبى نمى عام ١٠١٠ هجرية نقلا عن خلاصة الكلام :

« ليعلم كل من كحل بصره بأثمد منشورنا الكريم ، وشنف مسامعه بلآلىء لفظه العظيم ممن فى دارة تلك الديار ، وهالة تلك الاقطار ، وانتظم فى سلك سكان القرى والامصار ، من السادات الكرام ، والقضاة والحكام ، وولاة الامور من الاعيان ، والوافدين على تلك الديار والسكان ، ان امارة تلك المعاهد ، وما فيها من العساكر ، وما أحاطت به من الاصاغر والأكابر ، وسائر الوظائف والمناصب ، والجهات والمراتب ، مفوضة الى السيد السند الشريف أبى طالب ، ناظراً بعين الانصاف ، متجنباً سبيل الاعتساف ، ويصرف المستحقين بحسن التصريف ، ويصرف من لايستحق برأيه الشريف أقناه مقام أنفسنا فى ذلك المقام وفوضنا اليه النقض والابرام والعلامة السلطانية حجة لما فيه مرقوم ، محققة لما فيه من منطوق ومفهوم ، فليتحقق من وقف على هذا الخطاب ومن عنده علم الكتاب ، من أهل مكة ومن فى جوارها ، وطيبة الطيبة وسائر أقطارها ، وبقية الثغور الباسمة لدولتنا بمباسم السرور من حاضرها وباديها ، أنا أعطينا

القوسِ باريها فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها ، سدد الله سهام رأيه فى اغراض الصواب وفتح له بمفتاح السر كل مغلق من الابواب ما سقطت من أكف الثريا الخواتم ، ورقت على منابر الاغصان خطب الحمائم والسلام » [1].

وأعظم الاشراف سلطة وأوسعهم نفوذاً وجاهاً بعد أبي نمى ولده الحسن ثم الشريف أبو طالب والشريف بركات والشريف أحمد بن زيد مؤسس حكم العائلة الزيدية والشريف عبد الله بن هاشم والشريف عبد الكريم الذى تولى الامارة ثلاث مرات فى مدة تزيد عن ست سنين (سنة ١١٢٣) والشريف سعيد الذى وليها خمس مرات فى مدة تزيد عن عشر سنوات آخرها سنة وفاته عام ١١٢٩ والشريف مسعود الذى وليها ثلاث مرات آخرها سنة وفاته عام ١١٦٥ والشريف مساعد الذى مكث فى الامارة ١٩ سنة الى أن توفى عام ١١٨٤ ، والشريف سرور الذى تولى الامارة عام ١١٨٦ وحارب أعمامه وأتباعهم فى وقائع عديدة انتهت بفوزه . وقد زار الشريف سرور المدينة وقاتله أهلها فغلبهم ونهب أموالهم ثم قاتل قبائل حرب وهذيل عام ١١٩٥ وباشر فى بناء قلعة أجياد وتوفى عام ١٢٠٢ والشريف غالب وهو الذى حصلت حروب آل سعود واستيلاؤهم على الحجاز فى أيامه .

٤ — الشرافة الى اعلاده الدستور العثمانى

حينما استولى سعود الكبير على الحجاز لم يغير شيئاً من أمر الشرافة . وأقر الشريف غالباً فظل فى الامارة طيلة الفترة التى انقضت على الحكم السعودى فى البلاد .

فلما اقتضت مصلحة الحكومة العثمانية القضاء على القوة السعودية والقوة

---

(١) خلاصة الكلام ص ٦٢

العلوية فى مصر أغرت محمد على باشا بأهل نجد وعهدت اليه تجهيز الحملة اللازمة للتنكيل بهم واخراجهم من الحجاز فأرسل عام ١٢٢٣ هجرية (١٨١١ م) قوة نزلت فى ينبع بقيادة ابنه طوسون ولكنها لم تنجح فى مهمتها فامدها بحملة قادها ابنه ابراهيم باشا فى العام الثانى ففتح المدينة ومكة . ثم قدم محمد على بنفسه الى مكة المكرمة وعزل الشريف غالباً عن الحكم ونفاه مع أكثر أفراد اسرته الى مصر ومنها الى سلانيك ونصب يحيى بن سرور شريفاً عوضاً عنه .

وأراد الشريف يحيى أن يظهر سلطته فى مكة وأن يبرهن على عدم مبالاته فطعن الشريف شنبر ابن عمه فى الحرم وقتله وفر هاربا الى البادية عام ١٢٤٣ هجرية (١٨٢٧ ميلادية) .

وأراد نائب محمد على باشا تعيين الشريف عبد المطلب بن غالب فلم يوافقه سيده على ذلك وأمر بتعيين الشريف محمد بن عون العبدلى للامارة وبذلك انتقل الحكم الى يد العائلة الثالثة من نسل أبى نمى .

ونشب خلاف بين الشريف محمد بن عون وأحمد باشا مندوب محمد على باشا بسبب رغبة الشريف فى بسط نفوذه على بعض القبائل فى عسير الا ان محمد على أمره بالتوجه الى مصر مع الباشا فقدمها عام ١٢٥٢ هـ (١٨٣٦ م) وظلت مكة مدة بدون شريف[1] .

وحينما تقرر انسحاب محمد على باشا من البلاد التى احتلها من أملاك السلطنة العثمانية ، وفيها البلاد العربية أرسلت الدولة والياً للحجاز عام ١٢٥٦ هجرية (١٨٤٠ م) . غير ان السلطة كانت ثنائية بين الشريف محمد بن عون والوالى ومن هذا التاريخ تبدأ المنافسة الشديدة بين الوالى الذى يمثل المصالح الحكومية النظامية ويقود العساكر الشاهانية ، وبين الشريف الذى يسعى لاستعادة مجد الامارة الغابر وحكم القبائل البدوية ، والاشراف على شئون الحج والحجاج .

(١) هوغارث : ص ١٠٧

وأدى التنافس بين الامير والوالى الى مداخلة الباب العالى فنفى الشريف محمد بن عون الى الاستانة ونصب الشريف عبد المطلب الزيدى مكانه عام ١٢٩٨ هـ (١٨٥١ م) الا ان ادارة الشريف عبد المطلب لم ترض الحكومة العثمانية فانها رأته عاجزاً عن انفاذ أوامرها المعلنة فى الخط الهمايونى الذى أصدره السلطان عبد المجيد وحصلت فى البلاد فتنة أدت الى عزل عبد المطلب واعادة محمد بن عون.

وبعد موت محمد بن عون عام ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧ م) أقرت الحكومة الامارة فى ابنه عبد الله وفى أيامه حصل اعتداء على قناصل الدول فى جدة وأرسلت الدولة لجنة لاعادة تنظيم البلاد على أساس الاصلاحات التى كانت آخذة فيها فى سائر بلادها وجعلت الامارة ضيقة بجانب الولاية وحددت وظائف الاولى وضيقت عليها جداً. غير ان تطبيق أوامر الحكومة كان على الغالب تابعاً لضعف الوالى ومزاياه الشخصية.

ففى عام ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) (سنة فتح قناة السويس) أدخلت الحكومة كثيراً من الاصلاحات البلدية الى مكة واضطر الشريف الى الرضوخ. وبعد وفاة عبد الله عينت الحكومة أخاه الشريف حسيناً أميراً على مكة فقتل فى جدة عام ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠ م) فأعيد عبد المطلب للامارة ثم عزل بعد مرور سنتين وعين الشريف عون الرفيق بن محمد بن عون أميراً عام ١٢٩٩ هجرية.

بلغت الامارة على عهد عون الرفيق منتهى ضعفها وغاية هبوطها. وأهمل الشريف أمر البادية، فساء الامن وعم القلق وانتشرت الفتن وكان هم الشريف التظاهر بالبله والاعمال الجنونية لكى يكون السلطان راضياً عنه. واتفقت مصلحة الوالى الشخصية مع مصلحة الشريف فتقاسما المصالح وتقارضا المنافع وأنت الناس من الجور والظلم الى أن توفى الشريف عون عام ١٣٢٣ هجرية (١٩٠٥ م) فصدر الامر بتعيين على باشا ولكنه عزل بعيد اعلان الدستور العثمانى ومات الشريف

عبد الاله قبل أن ينصرف من الاستانة الى مقر الامارة فوقع الاختيار على الشريف حسين بن على بن محمد بن عون .

٥ — الشريف حسين

ان تاريخ حياة الشريف حسين بن علي جدير بأن يكتب في عدة مجلدات نظراً لما فيه من العبر والتجاريب ، وما يحويه من وقائع يجمل بالأمة العربية أن تتدبرها فى بدء نهوضها الحالى ، وجهادها المستمر للبلوغ الى أمانيها العظمى . غير أن المجال لايتسع لسرد ذلك فنجتزئ بالقليل منه .

ولد الشريف حسين بن علي فى الاستانة عام ١٢٧٠ هـ الموافق لعام ١٨٥٣ م ، وكان والده وجده فيها خلال إمارة عبد المطلب فى مكة ، وعين جده للامارة بعد ذلك بسنتين فقدم معه الى الحجاز وأقام فى مكة الى أن بلغ أشده .

ومات والد الحسين فى الاستانة عام ١٢٨٧ هـ فمكث هو بقرب عمه عبد الله أمير مكة الى أن مات وولى عمه الآخر عون الرفيق الحكم عام ١٢٩٩ .

كان عون الرفيق فى سياسته غشوماً ، متعسفاً ، مهملا شؤون البلاد وأهلها ، تاركا أمر العربان وهم عماد الامارة وعدتها فى الملمات ، فأراد الحسين أن ينهج فى معاملة هؤلاء على غير النهج الذى اختطه عمه فنقم هذا عليه ، ونسب اليه الدسائس والفتن وطلب ابعاده الى الاستانة مقر الخلافة ، فأنفذت الحكومة طلبه وعين الحسين عضواً فى مجلس شورى الدولة وظل فى الاستانة الى أن عين بعد وفاة عمه الثالث عبد الإله عام ١٣٢٦ أميراً لمكة . ورُوى أن السلطان عبد الحميد كان معارضاً فيه الا أن اصرار كامل باشا الصدر الاعظم فاز بالنهاية وصدر الفرمان بتعيينه[1] .

جاء فى فرمان الشريف حسين ما يأتى :

---

(١) ذكر المستر هوغارث فى تاريخ بلاد العرب ص ١١٨ ما يأتى « وكانت الفترة فترة النشوء الدستورى فى تركيا وكان الصدر الاعظم محبا للانكليز ناخذ بالنصيحة البريطانية قبل تعيين خلف للشريف المعزول » .

«... وبناء على ذلك ولوقوع انفصال أمير مكة الشريف على باشا اقتضى الحال الى احالة الامارة الشريفة المذكورة لذات من الاشراف ذوى الاحترام... الشريف حسين باشا... فأحلنا وفوضنا الامارة الشريفة المذكورة الى عهدة أهليته... وأمرنا المشار اليه أن يستقبل الحجاج ذوى الابتهاج المتوجهين من سائر ممالكنا الشاهانية، ويوصلهم الى مكة المكرمة سالمين مطمئنين وبعد أدائهم مناسك الحج الشريف على الوجه اللائق أيضاً يشيعهم ويستكمل أسباب عزيمتهم بكل اعتناء ودقة الى الشام؛ وأن يكون الناظر على توزيع وتقسيم الصرة الهمايونية المرسلة من قبل سلطنتنا السنية الى أربابها بواسطة المأمورين بموجب الدفاتر الموجودة وأن يستجلب من العموم الدعوات الخيرية لذاتنا الشاهانية، وأن يهتم فى توفيق الامور والمصالح الواقعة والجارية بالعدل والحقانية متحداً مع وزيرنا... والى ولاية الحجاز وقمندان فرقتنا الهمايونية كاظم باشا...[١]»

ومن مقابلة ما اقتبسناه من الفرمان بالفرمان الذى أصدر للشريف أبى طالب يظهر الفرق بين الصلاحية التى أعطيت لكليهما.

وصل الحسين الى الحجاز فى أواخر عام ١٣٢٦. وكان مشهوراً فى الاستانة بالزهد والتقوى والصلاح، فعلق أهل البلاد عليه الآمال الجسام لأنهم كانوا خارجين من حكم جور واستبداد، ضاقوا ذرعاً به، وتشوشت نفسيتهم بسببه زماناً طويلا. فأملوا الآن بالفرج على يدى الحسين، كما أملوا بكلمات الحرية والمساواة والعدالة التى كانت شعار القائمين بأمر الحركة الدستورية فى البلاد. والحق يقال ان الناس كانوا فى اضطراب كلّي بعد الدستور لايعلمون ماذا تسفر عنه الحركة الجديدة. كانوا يعلمون أن سلطة الوالى والشريف هى القانون. فأرادوا وقتئذ أن يعرضوا كلا من الامير والوالى والدستور على المحك ليعلموا أى الثلاثة هو الأثبت، يراجع أصحاب المصالح الشريف فيعلم أن الدستور حدد شكل المقاضاة

(١) مقتبس من كتاب ماضي الحجاز وحاضره ص ١٥ — ١٦

والخاصمة ، وأنه ممنوع بحكم الدستور من السير على هواه فى الامر ولكنه ان قال لهم ذلك فقد هيبته فيظهر التألم من أفعالهم ويتوجع لاختلافهم وهم أبناء وطنه وانه لايحب أن يرى بينهم اختلافاً فينصحهم بالصلح والتصافى بدون خصام أو تقاض فينصرفون من لدنه داعين له ولعطفه الابوى ، ومحبته لاهل وطنه ، ويقوم أناس آخرون يذيعون أن سبب امتناع الشريف عن النظر فى قضايا المتخاصمين هو غير ما يتظاهر به ، وان سيف الدستور والحرية مسلط فوق رأسه يمنعه من ذلك . ويقف الناس حيارى مذبذبين لايعلمون ماذا يكون من نتيجة الصراع بين هذا الشريف وبين الدستور وأخيراً يرى الشريف أن كرامته وهيبته تستلزمان عملا يدحض مدعيات أضداده ويظهره فى عيون الناس فيستعمل سلطته الفردية فى تأديب أحد الاشراف عبد الله الكلفوت الذى كان أشد الناس حماسا للدستور وتهجما على سلطة الشريف ويضعه فى السجن فينتظر الناس أن يحمى الدستور الكلفوت . يحتج الوالى على عمل الشريف ويبرق للاستانة وتدور المخابرات بين الباب العالى والامير والوالى ، والكلفوت فى السجن يراه الناس فيه دون أن يعلموا بالمخابرات السرية الجارية . وأخيراً يعلم الشريف أن الاستانة مصرة على اخراج الكلفوت وان اصراره يفضح سره فيتظاهر بالعفو عنه ويخرجه من السجن والناس لايعلمون أن خروجه كان بأمر الدستور . يغضب الوالى من تصرف الامير ويرفض العمل معه تحت ظل دستور غير محترم فيستقيل من وظيفته ، فيعتقد الناس أنه عزل عزلا بسبب معارضته للامير . فإذن الامير فوق الدستور ! وإذن الامير يحكم برغم الدستور ! وإذن فالدستور لايحمى الناس من الجور . إذن فليحى أميرنا لانريد دستوراً ولا نريد بأميرنا بديلا !!..

بهذه الاعمال وأمثالها تمكن الشريف من الظهور أمام أهل الحجاز بأنه محب لهم مريد بخيرهم وانه هو ملكهم ، وأن لامرجع إلا بابه . يأتى الولاة وكلهم ضعيف لايثبت أمام تعسف الامير فيستقيل من عمله ويشيع بين الناس أن الشريف عزله

فيعظم مقام الشريف ويشتد نفوذه .

وتقرب الحسين من البادية بأساليبه المختلفة وأكثر البدو يعلمونه من أيام امارة عمه عبد الله وعون الرفيق فينجح فى مهمته الى مدى بعيد .

وتقرب من العائلة العلوية بسبب أواصر الصداقة القديمة التي جعلت الاشراف العبادلة يعترفون بأنهم غرس نعمة محمد علي وأحفاده فكان له ماأراد .

وتحكك بالانجليز بواسطة أعوانه فى الاستانة وبواسطة اللورد كتشنر فى مصر والمرغنى فى السودان .

وتزلف الى مبعوثى العرب فى دار الخلافة وجعلهم يعتقدون فيه السعى لمصلحة العرب وجمع كلمتهم لنيل حقوقهم المغصوبة من الترك .

وعلى الاجمال فان الحسين منذ وصوله الى الحجاز لم يترك وسيلة من وسائل الظهور والاستعداد لليوم الموعود لم يتخذها .

وأراد بسط سلطانه على سائر الحجاز ومافى أطرافه وتوسيع حدود الامارة وصلاحياتها ، وليس فى عمله هذا مايحفظ الدولة أو يثير شكوكها فوافقته على خطته. ادعى أن عتيبة تابعون للحجاز فدعاهم اليه وحرضهم على الخروج على ابن سعود فوفق فى خطته وتغلغل فى بلاد عتيبة حتى وصل الى قرب الوشم والقصيم فى نجد ، وتمكن بسبب خيانة بعض العتبان من أسر سعد بن عبد الرحمن شقيق الملك عبد العزيز عام ١٣٢٨ ﻫ (١٩١٠ م) . وهناك توسط خالد بن لوئى بين الشريف والملك عبد العزيز فرجع الحسين عن نجد بورقة فيها ما يفيده لدى الدولة ولا يضر ابن سعود ففك أسر أخى الملك . ولكن الورقة كانت على الضد من ذلك مقدمة لحوادث جسام بينهما [١] .

وحينما ثار الادريسى على حكم الدولة فى صبيا وأبى عريش رأى الحسين أن

---

(١) يوجد خلاف فى السنة الحقيقية التي خرج فيها الشريف حسين الى نجد الا أننا تأكدنا كون ذلك حدث أيام ثورة العرائف على ابن عمهم عبد العزيز وان العرائف كانوا فى جيش الحسين حينما سار الى أبها وبناء على ذلك فاننا جزمنا بان الخروج الى نجد كان قبل غزو أبها .

الفرصة سانحة لتقوية مركزه فى نظر الترك والعرب والحجاز والبادية . فعرض خدمته وخدمة أنجاله على الباب العالى فولته الحكومة قيادة الحملة التأديبية التى سيرتها لفك الحصار عن القوة العثمانية فى أبها وتأديب القبائل العاصية ، فسافر من مكة فى ربيع الثانى عام ١٣٢٩ وعاد بعد ذلك ببضعة أشهر بعد أن وطد لنفسه بين البادية فى الحجاز وعسير . وعُهد اليه بتجريد حملة أخرى على الادريسى فأنفذ على رأسها نجله الثالث فيصل (جلالة ملك العراق الآن) الى القنفذة ولكنه عاد من غير طائل [1] .

سبق لنا أن أوضحنا ما كانت عليه الشرافة من الوجهتين القانونية والعملية يوم تولاها الشريف حسين ، وسردنا أيضاً المساعى التى بذلها بعيد وصوله الى الحجاز لاستعادة هيبتها ورفع شأنها ونوال بعض الامتيازات التى سلبتها الدولة منها ووضعتها فى يد الولاية . غير أن الحسين فوجىء بالقانون الذى وضعته الدولة لادارة الولايات والذى يقضى تطبيقه على البقية الباقية من الشرافة ويجعل منها أثراً بعد عين . فعمل جهده بواسطة أصدقائه العديدين وبالاخص بواسطة البرنس سعيد حليم باشا الصدر الاعظم لتأخير انفاذ حكم ذلك القانون فى الحجاز الى أن تحين الظروف الملائمة لتطبيقه تدريجياً فكان له ما أراد . ومنذ تلك الساعة شرع الشريف حسين فى تدبير أموره واعداد معداته للتخلص من الكارثة المنتظرة حينما تتفرغ الدولة من مشاغلها وتزول من أمامها الاسباب التى حملتها على القبول بتأخير تطبيق القانون الآنف الذكر على ولاية الحجاز لانه كان يعلم حق العلم أن سكوت الدولة عن الحجاز انما هو سكوت موقت وإمهال لا إهمال وان الساعة آتية لاريب فيها .

---

١) وضع الشريف شرف بن عبد المحسن البركاتي كتيبا عن هذه الحملة سماه الرحلة اليمانية شرح فيه المواقع الحربية والاعمال التأديبية التي قامت بها حملة الشريف حسين لفك حصار أبها .

والظاهر أن الدولة شعرت من حركات الشريف حسين مارابها فرمته بكبير من رجال جمعية الاتحاد والترقى هو القائد وهيب باشا وفوضت اليه معالجة مشكلة الحجاز والشريف حسين حسب اللزوم والحاجة . فتمالك الشريف بعض روعه أو أغضى عن أمور كثيرة ، وحبس يده عن التصرف بشؤون كانت عادته أن يتصرف بها زمن الولاة السابقين . إلا أن حقيقته لم تخف عن وهيب باشا ففاوض الاستانة مراراً من أجل عزله أو بالاقل من أجل تطبيق أحكام قانون الولايات على الحجاز فلم يوافقه الباب العالى على طلبه . وكان للشريف حسين رقباء وجواسيس يوافونه بأخبار وهيب وأعماله ويطلعونه على صور برقياته الرمزية الى الباب العالى والاجوبة عليها فتحققت لديه نوايا الحكومة وانها تدبر للشرافة أمراً عسيراً ان لم يكن عاجلا فآجلا .

وسافر وهيب باشا بعد اعلان الحرب العمومية من الحجاز ، فبعث اليه الشريف حسين فى طريقه الى المدينة من سرق له أوراقه فوجد فيها البرهان القاطع على ماتنتوى الدولة فعله بعد الحرب فى الحجاز فقرر اهتبال فرصة انشغالها بالحرب العمومية لتثبيت مركزه والبت فى قضية الشرافة بصورة حازمة لاتدع للدولة مجالا للنكوص عنها بعد خروجها من الحرب .

نصل الآن الى فترة فى تاريخ الشريف حسين ، لاتزال غامضة جد الغموض بالرغم عما نشر عنها من وثائق ومكاتبات . لانها تشمل تاريخ حقبة من حقب تاريخ الامة العربية كان الشريف حسين فيها — خطأ أو صوابا — ممثل العرب والمفاوض باسمهم والمساوم على مقدراتهم السياسية والاجتماعية المقبلة . فجدير بأبناء العرب أن يدرسوا تاريخ هذا الدور بدقة وأن ينشروا المعلومات الراهنة عنه ليقف عليها الخلف ويعتبروا بما وقع للسلف . وهانحن أولاء نذكر بإيجاز ملخص ماوقفنا عليه من الحقائق المستقاة من مظانها الاصلية وأسانيدها الموثوقة .[1]

(١) نأسف جدا أن ضيق المجال يمنعنا من التبسط فى هذا الموضوع الخطير الذى جمعنا له من الوثائق الاصلية والتقارير مجموعة ضخمة لم تنشر للآن مع انها معلومات خطيرة للغاية

بمجرد دخول الحكومة العثمانية الحرب الى جانب ألمانيا أصبحت أغراض السياسة البريطانية الرئيسية فى جزيرة العرب عبارة عن :

أولا : تأمين سلامة المواصلات البريطانيـة بين الشرق والبحر الابيض المتوسط بطريق البحر الاحمر وقناة السويس .

ثانيا : مقاومة جهود الحكومة العثمانية داخل بلادها وخارجها والقضاء على الدعايات الواسعة التى بذلتها لاعلان جهاد عام فى البلاد الاسلامية المختلفة .

فمن أجل الوصول الى هذين الغرضين الجوهريين قامت بتدابير عديدة منها اثارة العرب وهم عماد الاسلام ، على دولة الخلافة ، والعمل لانشاء خلافة عربية فى البقاع الاسلامية المقدسة . واتفقت هذه الاغراض مع الامانى الوطنية التى كانت تختمر فى رؤوس المتنورين من شبان العرب ، فلم يجدوا غضاضة فى التفاهم مع الانكليز وشرعوا يفاوضونهم بالفعل فى مصر والسودان والعراق وسوريا إلا أن الانكليز رجحوا أن يتخذوا الشريف حسين واسطة لتحقيق أغراضهم لانهم كانوا يعلمون مطامعه فى الحجـاز ونقمته على الدولة من أجل الشرافة فشرعوا فى مفاوضته .

ذكرنا أن الشريف حسين كان يتودد للعائلة العلوية وللانكليز معاً . ففى شهر فبراير سنة ١٩١٤ ، أى قبل اعلان الحرب العمومية ببضعة أشهر زار الشريف عبد الله نجل الشريف حسين الثـانى الخديوى عباس بالقـاهرة ، وزار اللورد كتشنر فى الوكالة البريطانية ، وتعرف به وجدد معرفته بالمستر ستورس سكرتيره الشرقى . فما كادت الحرب العمومية تعلن حتى تبين للحكومة البريطانية أن جمعية الاتحاد والترقى كانت منحازة الى ألمانيا وانها على وشك الانخراط فى الحرب معها .

فتذكر اللورد كتشنر الذى كان اذ ذاك وزيراً للحربية فى بلاده والذى كان يعلم بنوايا الشريف حسين ومطامعه ونقمته على الدولة واستعداده للقيام عليها من أجل الشرافة — تذكر صداقته وصداقة ستورس للشريف عبد الله فأبرق الى المندوب السامى فى مصر فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩١٤ (أى قبل دخول تركيا فى الحرب)

لعجم عود الشريف حسين فى حالة دخول تركيا الى جانب ألمانيا ، والتثبت من موقفه فلما انضمت تركيا الى الدول الوسطى تكررت المراجعة من قبل الانكليز ودخلت المفاوضات بين الشريف حسين والسر هنرى مكمهون دوراً جدياً .[1]

كانت أغراض الشريف من قيامه على الدولة مقتصرة فى بادى الامر على شرافة مكة وإمارة الحجاز ولكنه حينما روجع من قبل مثقفى العرب الذين أوفدوا اليه سراً بعض من نعلم ممن لا يزالون على قيد الحياة لم يتأخر عن المفاوضة من أجل البلاد العربية الاخرى ، إلا انه كان فى مفاوضاته واحداً اثنين : اما أنه كان غير آبه بما وراء الحجاز من بلاد عربية ومتراخياً فى التفاهم بصراحة على حقيقة الاستقلال الذى ينبح لها وان مفاوضته من أجلها كانت مسايرة وارضاء للذين راجعوه من أبناء قومه ، واما أنه كان حسن النية فى ذلك ولكنه كان جاهلا أساليب السياسة الدولية فلم يدرك مراميها ولم يحترس من أحابيلها .

دامت المفاوضات بين الجانبين وقتا طويلا . ونشرت صور الكتب التى تبودلت بينهما فى الصحف السيارة والمجلات المختلفة ولكنها لم تنشر رسميا من قبل الحكومتين[2] وكان القصد منها تعيين مدى المساعدات المتقابلة وكيفية قيام كل من الفريقين بقسطه منها . وقد طلب الشريف تحديد البلاد العربية التى تساعد بريطانيا على استقلالها ، فماطلته بريطانيا فى ذلك واشترطت بعض استثناءات فات الحسين أن يتثبت من مراميها ، وما يمكن أن تؤول به ، أو ما يمكن أن تعنيه وتم الاتفاق نهائيا على أن يقوم بالثورة على الترك مقابل اعتراف بريطانيا وتعهدها باستقلال العرب بدون تعيين حدود البلاد التى يعضد فيها الاستقلال واستثنت بريطانيا :

---

(١) نشر فى كتاب وضع ضمن سلسلة من الكتب التاريخية عن تاريخ بلاد العرب الحديث برئاسة المستر فيشر وتحرير فلي ، مثل هذه المعلومات وهى لا تختلف عما عندنا من الوثائق أنظر ص ٢٣٨ وما يليها .

(٢) كثر الحاح البرلمان البريطانى على الوزارات المتتابعة لنشر هذه الوثائق الا ان الحكومات من جميع الاحزاب لم تخرج عن القاعدة الموضوعة وأبقت الوثائق الخاصة بها سرية حتى الآن .

١ — المنطقة الواقعة غرب الخط من حلب وحماه وحمص ودمشق حتى البحر
٢ — المناطق التى لاتستطيع أن تتصرف فيها مستقلة عن حليفتها فرانسا .
٣ — منطقة عدن
٤ — ولاية البصرة
٥ — المناطق العربية التى لاتقدر أن تتصرف بها من تلقاء نفسها

فاذا أمعنا النظر فى ذلك ، علمنا أن عدم سؤال الشريف عن المعنى الذى قصدته بريطانيا بقولها « البلاد العربية التى ليست حرة التصرف فيها » جعل البريطانيين يفسرون وعودهم بانها لاتشمل إلا الحجاز تقريبا . فانهم يوم اتفقوا مع الشريف كانوا متفقين مع فرنسا على سوريا ومع روسيا على فلسطين ، ومع الادريسى على عسير ومع آل سعود على نجد والحسا ، ومع أمراء العرب المختلفين على المقاطعات الساحلية والكويت .

أعلن الشريف حسين ثورته فى ٩ شعبان سنة ١٣٣٦ فشرع شبان العرب فى الالتحاق به من سائر أطراف السلطنة العثمانية ثم أعلن نفسه ملكا للعرب فمنعه الانكليز منه لان ملك العرب يجب أن يكون حاكما على سائر بلاد العرب ، اليمن وعسير ونجد ، فاكتفى بلقب ملك الحجاز . وتمكن الحسين خلال الحرب من الاستيلاء على غالب الحجاز ماعدا المدينة ، وكان نجله الامير فيصل قائداً للفرقة العربية التى احتلت سورية مع الحلفاء . وانقشعت الحرب عن ملك الحجاز ، ممتداً من معان شمالا الى القنفذة جنوبا ومن ساحل البحر الى سفوح جبال الحجاز شرقا .

أراد الشريف حسين بعد الحرب أن يمد سلطانه على واحتى ترَبة والخرمة ، وكان أهلهما من سبيع والبقوم وعتيبة ، منحازين الى ابن سعود فنشبت فى تربة معركة هائلة بين الاخوان وقوات الشريف النظامية والبدوية ، أسفرت عن فوز الاخوان فوزاً مبيناً وبقاء الواحتين لنجد وخسارة الحجاز أكبر قوة عسكرية

جمعها ومقدمة للمشادة التى أسفرت عن استيلاء الملك عبد العزيز على الحجاز وثل عرش الحسين فيه [1].

لم يحقق الحسين آمال العرب فتفرق عنه المخلصون الذين التفوا حوله مسارعين الى خدمته فى تشييد دعائم ملك جديد للعرب وأهمل أمر حكومته فلم تكن حكومة بالمعنى الصحيح وتعثرت الآمال وضاعت الامانى . وعاد البدو الى ديدنهم من سرقة ونهب واتلاف المال وقطع الطريق ، وانقلبت الحكومة حكومة عسف وجور ، وتمادى الحسين فى ارهاقه الناس وبالاخص لاهل نجد ، واختلف مع المصريين والانكليز وأثار كوامن حقد المسلمين اجمالا ، ولم يكن مستعداً لمجابهة الاخطار لامن حيث القوة ولا من حيث النظام فهاجمت القوات النجدية الطائف فى صفر عام ١٣٤٣ (سبتمبر سنة ١٩٢٤) واحتلته .

وفى شهر ربيع الاول سنة ١٣٤٣ طلب منه التخلى عن العرش ، فسافر من جدة الى العقبه ثم أخرج منها الى قبرص واشتد به المرض فنقل الى عمان حيث وافته منيته .

---

(١) حصلت معركة تربة ليلة ٢٥ شعبان ١٣٣٧ الموافق ٢٥ مايو ١٩١٩ .

الفصل الثانى عشر

آل سعود

تمهيد ـ محمد بن سعود ـ عبد العزيز بن محمد ـ سعود بن عبد العزيز ـ عبد الله
ابن سعود ـ تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود ـ فيصل بن تركي
الفتنة بين ابناء فيصل ـ عبد الله بن فيصل ـ الامام عبد الرحمن
ابن فيصل ـ محمد بن فيصل والحكم الرشيدى .

---

١ — تمهيد

يمكن تقسيم تاريخ آل سعود الى الادوار الآتية :

الدور الأول : ويبدأ من تاريخ نشوء حكومتهم على يد الامير محمد بن سعود ابن محمد بن مقرن بن مرخان الى بدء ولاية الامير عبد الله بن سعود الكبير من ١١٣٧ — ١٢٢٩ هجرية الموافق ١٧٢٤ — ١٨١٤ م .

الدور الثانى : ويبدأ من تاريخ ولاية عبد الله بن سعود الى نهاية الاستيلاء العثمانى بواسطة المصريين من ١٢٢٩ الى ١٢٨٢ هجرية الموافق ١٨١٤ — ١٨٦٥ ميلادية .

الدور الثالث : ويبدأ من الفتنة الاهلية بين أبناء فيصل بن تركى الى ان استولى محمد بن رشيد على البلاد النجدية من ١٢٨٢ ـ ١٣١٨ هجرية ، الموافق ١٨٦٥ — ١٩٠٠ ميلادية .

الدور الرابع : ويبدأ من قيام الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى الزمان الحاضر .

٢ - محمد بن سعود

ينتسب آل سعود الى سعود الاول مؤسس العائلة وهو ابن محمد بن مقرن بن مرخان من قبيلة ولد على من قبيلة عنزة . فسعود الاول مؤسس الحكم السعودي كان مقيما فى الدرعية وتمكن بدهائه وحنكته من تثبيت امارته فى الدرعية وما جاورها من الواحات الصغيرة ووضع بعمله هذا أساس مملكة آل سعود ، وحين وفاة المذكور عام ١١٣٧ هجرية ١٧٢٤ ميلادية كان له أربعة أولاد ثنيان وفرحان ومحمد ومشارى . وقد كان ثنيان قائداً مجربا و بطلا مغوارا فى الحروب بينما كان أخوه محمد فارساً من فرسان السياسة الفطاحل . تعاضد الاخوة الأربعة على تثبيت دعائم الملك المورروث عن والدهم سعود وتعاونوا فيما بينهم تعاوناً متقابلا تاما . وفى عام ١١٥٣ هجرية ١٧٤٠ ميلادية اتفق محمد بن سعود مع الشيخ محمد بن سليمان بن عبد الوهاب المصلح الكبير وباعث روح النشاط الدينى والعقيدة السلفية الصحيحة وتعاهدا على أن يكون محمد حارساً للدين و ناصراً للسنة وقامعاً للبدع ومعلناً سيف الحق فوق رؤوس عباد التقليد والبدع والخرافات . وحينما توفى ثنيان عام ١١٦٠ هجرية ١٧٤٧ ميلادية ، اعترف الجميع لمحمد أخيه بالأمامة الدينية ، والزعامة الزمنية المطلقة .

ان حادثة اتفاق الامام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب على القيام بالدعوة الخالصة الى الدين الصحيح والتعاضد على نصرة الحق وقمع البدع وإزالة معالم الشرك ونشر الدعوة لهى من أهم الحوادث التاريخية فى الأعصر الحديثة فى بلاد العرب فقد كانت الدعوة الدينية بنفسها من أجلّ الاعمال الانسانية فضلا عن النتائج السياسية التى حصلت منها .

ليس هذا مجال التفصيل فيما كان لذلك الاتفاق بين الزعيم السياسى والمصلح الدينى من نتائج ، وانما نقول : ان تعاضدهما قد أثمر كل الخير للاسلام والعرب ،

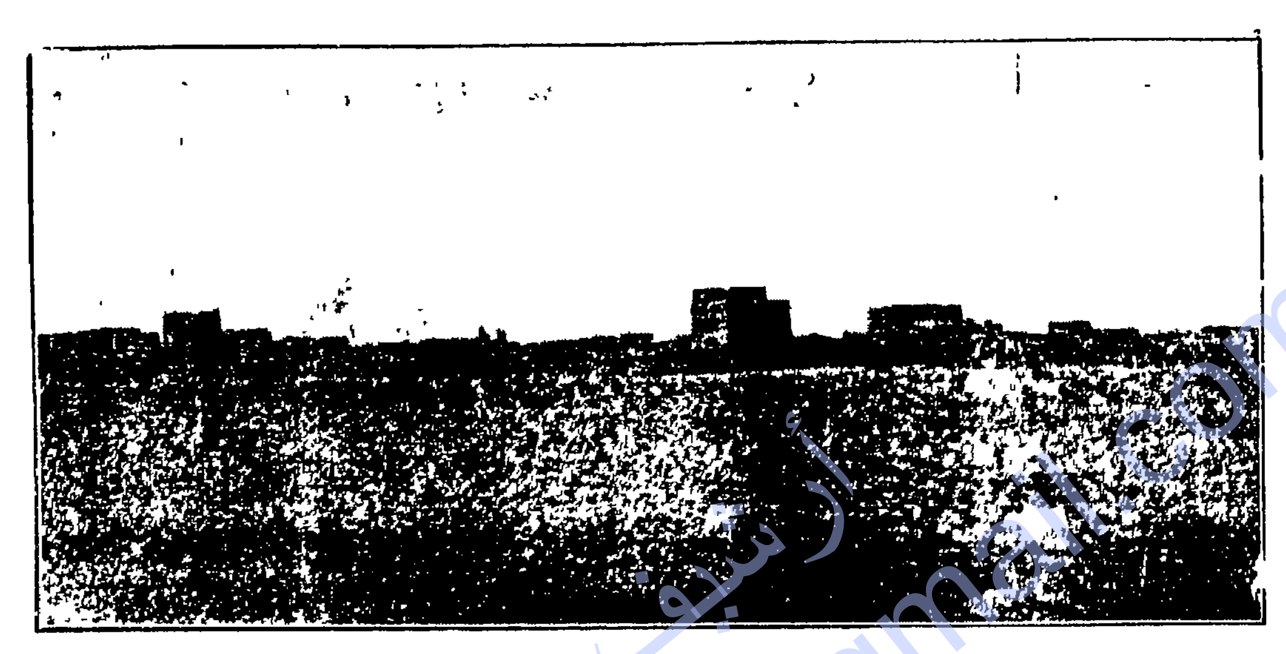
فقد شرعا فى بث الدعوة الاصلاحية الدينية والاجتماعية بين أهل البلاد المجاورة للدرعية ثم توسعا فى الدعوة الى سائر أطراف نجد ولقيا فى سبيل الدعوة كل مشقة وعناء . وشهد محمد قبيل وفاته عام ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) مملكة واسعة الاطراف تشمل أكثر نجد ، ورأى مبلغ انتشار الدعوة بين أهل نجد أنفسهم . ولم يخلص من حكم الإمام محمد سوى بلدة الرياض والحسا والقصيم ، وكان أمير الرياض دهام ابن دواس من المنافقين يغتنم كل فرصة للايقاع بابن سعود .

وتوفى الامام محمد بن سعود سنة ١١٧٩ هجرية الموافق ١٧٦٥ ميلادية تاركاً الأمر لولده عبد العزيز .

٣ — عبد العزيز بن محمد

كان عبد العزيز مشهوراً بغيرته على الدين وبحماسته فى نشر الدعوة الاصلاحية من أيام والده ، فانه قاد جيوش أبيه الغازية وحمل بيارقها الى الاقطار البعيدة جداً عن الدرعية ، فلما خلف والده فى الامارة شمر عن ساعد همته وشرع فى نشر دعوة التوحيد فى المقاطعات الشمالية . فتوجه الى القصيم واستولى على بريدة والرس وتنومة وحاصر عنيزة ولكنه ارتد عنها خائباً . ومع أن أكثر بلاد القصيم لم تخضع له بالفعل فان نفوذه الادبى والدينى فيها كان عظيما لا يشاركه فيه أحد . وكان دعاة الدين طلائع التوسع أينما حلوا ، فحاول أعداء ابن سعود أن يفتكوا بأتباعه فى القصيم ، غير أن حركتهم فشلت ولم يدم استيلاؤهم على بريدة إلا وقتاً قصيراً لان القبائل المتحالفة من بنى خالد وشمر والظفير وعنيزة اختلفت بعد موت ابن عريعر وفكت الحصار عن القصيم .

وقد كان عبد العزيز موجساً دائماً من بقاء ابن دواس المذبذب فى مؤخرته



١٦ — قرية الروشن أكبر قرى واحة بيشة



١٧ — بلدة العلا احدى محطات سكة حديد الحجاز

ولذلك عزم على سحقه والاستيلاء على الرياض فوفق الى ذلك عام ١١٨٧ هجرية ١٧٧٣ ميلادية .

وسنحت لابن سعود فرصة للانتقام من ابن عريعر و بنى خالد والتدخل فى شئون الحسا حينما حصل نزاع بين آل عريعر أنفسهم . فشرع فى شن الغارة على أطراف الحسا فى الوقت الذى كان فيه سعدون بن عريعر يهاجم القصيم ويحاصر بريدة ، ولكنه ما كاد يسمع بخبر مهاجمة السعودى لبلاده حتى نكص اليها للدفاع عنها .

وقامت فتنة بين آل عريعر أنفسهم واستنجد فريق منهم بثوينى بن سعدون شيخ المنتفك واستنجد الفريق الآخر بابن سعود . احتل ثوينى السعدون القسم الشمالى من الحسا واحتل ابن سعود الاطراف الجنوبية منه . والجوار يجلب دائماً التنازع والتشادد فحصل بين السعدون وابن سعود ما أوجب شن كل فريق الغارة على الآخر ، واستفاد السعدون من الحكومة العثمانية التى أمدته بالجند و المال والمعدات لقتال خصمه ابن سعود وتقدمت الجيوش العثمانية ومعها ثوينى الى بلاد ابن سعود متبعة طريق الحج الى القصيم ففتحت البلادُ أبوابها للغزاة فنهبوها ، وحاصروا بريدة الا أنهم فكوا الحصار عنها لاضطرار ثوينى الى الرجوع الى بلاده لدرء فتنة رتبها أعداؤه عليه . لاحت الفرصة لعبد العزيز ففتح كافة القصيم ومنها عنيزة وأصبح ملكه ممتداً من قرب جبل شمر الى الخليج الفارسى .

وحينما فرغ عبد العزيز من القصيم وجه عنايته الى الغرب ، الى قبائل عتيبة وما جاورها من القبائل الخاضعة للاشراف فى مكة . غير أن مسعى عبد العزيز فى نشر الدعوة بينها أوقع الفتنة بينه و بين الشريف فوجه هذا طعنة نجلاء الى ابن سعود باعلانه منع قدوم الحجاج بطريق نجد و بدعايته التى شرع ينشرها عن أتباع ابن سعود وأنهم وهابيون غير مسلمين . وكان من أثر دعاية الشريف غالب أن تجمهرت قوات كبيرة من البدو وساروا تحت قيادة الشريف عبد المعين أخى

الشريف غالب الى نجد من أجل قهر ابن سعود والاستيلاء على بلاده وعلى عاصمته ولكن المقاومة التي قوبل بها الجيش الزاحف في السّر جعلته يتفرق ولم يفتّ هذا الفشل من عضد الشريف غالب فقام بنفسه على رأس الجيش ثانية لأنه أدرك أن ابن سعود يحاول أن يقوم بحركة التفافية ليقطع ساقته فعاد الى الحجاز عن طريق السوارقية عام ١٢٠٥ هجرية (١٧٩٠ م) وأدب ابنُ سعود القبائل الثائرة فقهر شمر وغلب مطير وعتيبة وبني عبد الله .

وفي السنة التالية قهر الأمير سعود نجل الامير عبد العزيز قوات بني خالد وقوات أمير الحسا بقرب اللصافة وهاجم مركز ابن عريعر في المفوف فسلم له بدون مقاومة ، وشرع حالا في بناء حصن فيه بقي للآن باسم الكوت .

وفي السنة نفسها وجه الامير عبد العزيز سراياه الى الجوف شمالي النفود فوفقت الى الاستيلاء على كافة وادي السرحان وضمه الى حكمه .

وغزا ابنه سعود مقاطعة الخرج والافلاج ووادي الدواسر ووصل في غزواته الى عسير غرباً والى عُمان جنوباً . ولم يكتف بذلك فشرع في انفاذ السرايا الى حدود العراق . خافت السلطات العثمانية والولاة في البصرة وبغداد من امتداد سلطانه وانتشار نفوذه بهذه السرعة المدهشة ومن طموحه الى الاستيلاء على البصرة فجمع الوالي سليمان باشا الجوع لصد القوات المهاجمة وجهز جيشاً مختلطا من العساكر والبدو والمتطوعة من أهل البصرة والزبير ومن الظفير وبني خالد ومطير وجعله تحت قيادة ثويني السعدون الذي ورد ذكره فيما مضى غير أن هذا الجيش لم يفز بأي غرض من أغراضه لأن ابن سعود احتاط للامر وأرسل ابنه سعود وخادمه ابن معيقل للقياه فتقابل الفريقان في الحفر وفي هذه الاثناء قتل ثويني السعدون فكان قتله سبباً في تفرق الجيش وتقدم ابن سعود الى السماوة واستاق أموالا عظيمة عاد بها سالماً مطمئناً الى بلاده ، ثم ساق سليمان باشا جيشاً جديداً على الحسا بقيادة

شخص تركي اسمه علي بك وتقدم الجيش حتى وصل الى الحسا نفسها وصادف تعضيداً غير قليل من سكان تلك الجهة الا أن ابن سعود نجح في النهاية وانصرف الجيش دون طائل عام ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م).

وفي هذه الاثناء طلب الشريف غالب من الأمير عبد العزيز أن يصالحه ويتعاهد معه فقبل منه بذلك. وقدم ولده سعود للحج والزيارة عام ١٢١٥ هجرية (١٨٠٠ ميلادية).

ولما لم يجد الوالي سليمان باشا وسيلة للنكاية بابن سعود عزم على عمل آخر يقهره به فهاجم أتباعه قافلة من قوافل الحجاج المسافرين بحمايته فاراد ابن سعود الانتقام منه وقام بحركات واسعة ضد العراق وواليها وهاجم منطقة الفرات السفلى واستولى على كربلاء وهاجم كافة الحواضر الواقعة بين النجف والزبير عام ١٢١٦ هجرية (١٨٠١ ميلادية).

وقتل عبد العزيز في مسجد الطريف بالدرعية من قبل شيعي من أهل العراق بعد ذلك بسنتين بعد أن شاهد نجاح عمله واتساع ملكه الذي أصبح ممتدا من شواطىء الفرات ووادي السرحان الى رأس الخيمة وعمان ومن الخليج الفارسي الى أطراف الحجاز وعسير.

٤ — سعود بن عبد العزيز الملقب بالكبير

ان عصر سعود الكبير يحسب بحق الدرة اللامعة في تاريخ حكومة آل سعود الاولى. فقد اكتسبت دولته على زمانه أكبر رفعة وأعظم موقع وحين نشوب الحرب بينه وبين المصريين والترك قبيل وفاته بقليل كانت بلاده ممتدة من أطراف عمان ونجران واليمن وعسير الى شواطىء الفرات والبادية السورية ومن الخليج الفارسي الى البحر الاحمر.

سبق لنا أن ذكرنا كيف أن سعود كان عضد والده عبد العزيز في توسيع ملكه وفي نصرة الدين ونشر الدعوة الاصلاحية وكيف أنه كان القائد الاكبر لجيوش أبيه، فحين توليه الامارة عهد بالقيادة الى ولده عبد الله، الذي كانت فاتحة أعماله تأديب بعض قبائل الحجاز، والاستيلاء على تيماء وخيبر، وشن الغارة على أطراف عُمان.

أراد سلطان بن حمد بن سعيد أمير مسقط أن ينتقم من ابن سعود فتوجه الى البصرة واتفق مع الحكومة العثمانية على حرب ابن سعود مقابل تعهده بالاعتراف بسلطتها على بلاده في مسقط وعمان وشرقي افريقيا وانفاذا لعهدها أرسلت جيشاً من البصرة لمهاجمة ابن سعود الا أن وصول خبر قتل سلطان من قبل قرصان البحر أجبرها على استعادة القوة الى العراق.

وقد كانت أعمال سعود عامة أعمالا جليلة انتشرت بها سلطته على الفرات الاوسط حتى الهيت وعانة وحتى حلب في سوريا الا أن أهم أعماله بلا نزاع فتح الحجاز بصورة نهائية، ووضع الحرمين الشريفين تحت حمايته.

كان سعود قد حج قبل قتل أبيه وكان الشريف غالب يتظاهر بصداقة آل سعود ونصرتهم، غير أنه كان ناقماً عليهم في الخفاء ساعياً لاثارة القلاقل ضدهم وشجر الخلاف بين الجانبين بسبب قبول أهل الوديان في تَرَبة والخرمة للدعوة الاصلاحية للتوحيد، واختلاف عثمان المضايفي مع نسيبه الشريف غالب، فالتحق المضايفي بابن سعود وسلمه الطائف عام ١٢١٨ هـ (١٨٠٣ م) الا أن فتح مكة كان بعد ذلك بثلاث سنوات. وقد حاول غالب أن يخدع ابن سعود ثانية حينما حاصرته جنود نجد وقطعت الامدادات عنه وعن مكة من جميع الجهات الا أن سعود كان يعلم خيانة غالب وغدره فلم يقبل مصالحته. ودخلت جيوشه مكة عام ١٢٢١ هـ ١٨٠٦ م ولم يعزل غالباً عن الامارة.

الا أن غالب لم ينقطع قط عن دس الدسائس على أهل نجد . وقد ساعده فى وقيعته بهم عند الحكومة العثمانية ان سعود بعد أن فتح الحجاز شرع يمهد للاستيلاء على الديار الشامية ساعياً الى ذلك بواسطة الولاة والدعاة فادركت الحكومة العثمانية آنئذ أن الامر بلغ من الخطورة مبلغاً لا يمكن السكوت عليه لا سيا لأن أهل نجد فى الحجاز هدموا القباب والاضرحة التى كانت تكرم ويتمسح بها ، وجعلوا الحج تحت سيطرتهم ان شاؤا سمحوا به وان شاؤا منعوه .

وكانت الحكومة العثمانية تريد كذلك أن تتخلص من محمد على باشا فى مصر فولته ولاية جدة أملا فى دفعه واقصائه عن مصر وكان قصدها اصطياد عصفورين بحجر واحد فتضافرت مصالح الحكومة العثمانية والأشراف والمصريين أيضاً على أهل نجد واستعملوا الدين مطية للاغراض السياسية ونشروا عن أهل نجد أنهم أحدثوا بدعة جديدة فى الاسلام ومذهباً خامساً لا يقره أهل الجماعة والسنة وغير ذلك من الدعايات التى ظلت ذات أثر كبير فى اهاجة الرأى العام الاسلامى على أهل نجد حتى زماننا الحاضر .

ففى عام ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) شرع محمد على فى انفاذ المهمة التى أودعت اليه ووصلت جيوشه الى ينبع واحتلت المدينة ومكة المكرمة بعد ذلك بسنة .

وتوفى سعود فى الدرعية عام ١٢٢٩ هـ (١٨١٤ م) بعد أن شهد العظمة التى بلغتها بلاده ، وقد كان سعيدا بموته قبل أن يرى ماذا حل بها على يد الدولة .

٥ — عبد الله بن سعود بن عبد العزيز

تولى عبد الله بعد وفاة أبيه وكان محمد على باشا هاماً بمحاربة أهل نجد منذ ثلاث سنين بواسطة جيش أمر عليه ولده طوسون ومع أن الجيوش المصرية أخرجت

أهل نجد من الحجاز فى خلال سنتين فان القضاء على حكم آل سعود وفتح الدرعية لم يتم إلا خلال سبع سنوات كلفت الجانبين : الجانب النجدى والجانب التركى المصرى أموالا وأرواحا عديدة ، فقد وصل الامير طوسون بن محمد على باشا فى فتوحه الى بلدة الرس فى أول القصيم من جهة الغرب ولكنه لم يستطع التقدم أكثر من ذلك ، فعقد مع عبد الله بن سعود صلحاً عاد بعده الى مصر ، حيث توفى بالاسكندرية .

وكأنَّ صلح طوسون لم يرض محمد على ولا الباب العالي فجهز محمد على جيشاً جديدا من العساكر النظامية والالبان والمغاربة وبدو الحجاز ، وأمَّر عليه ولده ابراهيم باشا الذى وصل الى المدينة عام ١٢٣١ هجرية (١٨١٦م) واحتل الحناكية الواقعة على بعد تسعين ميلا شرق المدينة ، وحينما استوثق من ولاء عربان مطير وشمر وأحلافهم سار الى الرس فحاصرها أربعة أشهر ثم افتتحها بعد حصار طويل .

ثم رحل ابراهيم باشا الى عنيزة فسلمت له وتبعتها البلاد الاخرى فسلمت بريدة بعد وقت قصير ، ثم انصرف ابراهيم الى جنوبى القصيم واجتاز الى الوشم وافتتح أهم بلدانه شقرا وسار منها الى حرمة حيث لقى مقاومة عنيفة من أهلها .

ولم تجدِ ابن سعود قوته وحنكته ولم تفده قبائله وجيوشه ، فسقطت البلاد النجدية واحدة تلو الاحدة فى قبضة ابراهيم الظافر الذى وصل هو وجيوشه الى الدرعية فى جمادى ١٢٣٣ (ابريل ١٨١٨) وقد دافع المحصورون من آل سعود وقومهم عن الدرعية دفاع الابطال ، وكان ابراهيم على وشك العودة فاشلا من عمله ، بسبب نقص مؤونته وذخيرته واحتراق قسم كبير من مخيمه ، الا أن وصول الامدادات شددت عزمه على الحصار فسلمت الدرعية وسلم عبد الله بن سعود وكبار عائلته الى الظافر فاستاقهم الى المدينة المنورة وأركبهم الى مصر ثم الى الاستانة ، فاحتزت رؤوسهم فيها .

أما ابراهيم باشا فانه عملا بأوامر والده الواردة من مصر دمر الدرعية وجعلها قاعاً صفصفاً وهدم مساجدها وقصورها وقطع نخيلها وشجرها ولم يترك فيها عامراً.

وفى هذه الآونة قام أحد أبناء آل معمر أمراء العيينة واستولى على بعض العارض والوشم والقصيم وحالف عسكر الحكومة العثمانية فقام مشارى بن سعود الكبير لمقاومة ابن معمر ولكنه غلب وألقى القبض عليه وسلم الى المعسكر التركى وقتل.

وكان تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود (ابن عم سعود الكبير) فاراً فى مقاطعة الخرج فعاد الى العارض ونازع ابن معمر وقتا غير طويل وقتله بابن عمه مشارى وتولى الحكم مكانه.

٦ — تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود

بولاية تركى ينتقل الحكم فى آل سعود من سلالة عبد العزيز بن محمد الى سلالة أخيه عبد الله بن محمد وتبقى فى هؤلاء الى يومنا الحاضر.

فى أواخر سنة ١٢٣٧ هـ (١٨٢١ م) أرسل الترك أحد قوادهم المدعو حسين أبو ظاهر المشهور بقسوته وغلظته لاجل تمكين السيطرة العثمانية بعد انسحاب ابراهيم باشا المصرى وكانت الجيوش تخيم فى المراكز الرئيسية فى نجد فى الرس وشقرا وبريدة وعنيزة وثرمدا والمغوف ولكنهم انسحبوا من الاخيرة نظراً لصعوبة المواصلات.

فلما تولى الامام تركى أخذ على عاتقه دفع الترك والمصريين بمعونة ولده فيصل فتوفق الاثنان خلال عشرين سنة فى الحرب والنزال الى اجلائهم عن داخلية البلاد العربية سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٤٠ م). وأول عمل بدأ به تركى توحيد الناس وتأليف القلوب فأعاد سلطته على كل العارض وكانت جيوش الترك تعاونها قوات مطير وشمر بزعامة فيصل الدويش تناضل قوات تركى وولده فيصل دون أن تنال منهما.

و تمكن الامام تركى من فتح الحسا والقطيف بواسطة ولده فيصل وعقد مع صالح بن على أمير حائل و زعيم شمر صلحاً اكتسب به نفوذا تاما على أكثر الجبل والقصيم. ولكنه بعد حكم دام عشر سنين اغتاله أحد أبناء عمه المدعو مشارى بن عبد الرحمن بن سعود طمعاً فى أن يتولى مكانه مع أن هذا كان منفيا الى مصر فحينما عاد منها أكرمه عمه تركى وعينه أميراً على المنفوحة وقربه اليه فكان جزاؤه منه أن قتله غيلة فكان قتاله أول جريمة سياسية من نوعها فى آل سعود .

وكان الامير فيصل بن تركى نجل الامام المقتول على رأس جيش محارب فى أطراف القطيف فلما سمع بخبر اغتيال والده أقبل على جناح السرعة وتمكن من قتل مشارى والاستيلاء على كرسى الحكم عام ١٢٤٦ هجرية (١٨٣٠ م) .

ان حادثة قتل الامام تركى لها أهمية مضاعفة . فهى أول جناية سياسية عائلية وهى التى أنتجت فيما بعد أوخم العواقب لآل سعود لكونها أساس حكم آل الرشيد .

٧ — فيصل بن تركى

ظل فيصل يناضل و يقاتل تسع سنين الا انه رضخ بعد ذلك للاقدار واستسلم للقائد خورشيد باشا الذى أرسل من المدينة لاخضاع نجد لحكم الدولة فخورشيد باشا هذا هو الذى ثبت عبد الله بن رشيد على حائل ووافقه على طرد ابن على منها و هو الذى انتزع الامام فيصل من امارته واستاقه معه الى مصر فمكث فى الاسر وقتاً غير قصير .

وكان برفقة خورشيد باشا أحد أفراد عائلة آل سعود المدعو خالد وهذا كان حائزاً لثقة المصريين جلبه الباشا لكى يستميل به أهل نجد ويكون آلة بيده ينفذ بها أغراضه وأغراض الدولة . وكان خالد هذا بعيداً عن عادات قومه فنفر منه أهل نجد وخلعوه بعد سنتين تقريبا وولوا الامارة بعده عبد الله بن ثنيان الذى لم يدم حكمه الا بعض السنة .

وفى هذه الاثناء عاد فيصل من أسر محمد على باشا واستعاد الحكم مرة ثانية وبقى فيه الى عام ١٢٨٢ هـ (١٨٦٠ م) وامتدت سلطته على الحسا والقصيم والعارض حتى أطراف الحجاز وعسير ولم تكن عنيزة فى القصيم تابعة لفيصل لانه اعترف لأميرها زامل آل سُليم ببعض الاستقلال فى شئونها .

لم تعش حكومة فيصل القوية الا مدة حياته . وحين وفاته وقع الاختلاف بين أبنائه الاربعة سعود وعبد الله ومحمد وعبد الرحمن فأدى ذلك الى اضعافهم جميعا واستيلاء ابن رشيد على بلادهم وبوفاة فيصل يبدأ الدور الثالث الذى وسمناه بأنه دور الفتن الاهلية والاختلال الداخلى والاستيلاء الرشيدى .

٨ — الفتنة بين أبناء فيصل

حين وفاة فيصل كان ابنه محمد أميراً على المنطقة الشمالية وكان سعود أميراً على الخرج والافلاج وكان عبد الله أميراً فى الرياض وكان ولده الصغير الامام عبد الرحمن فى الرياض بجانب أخيه عبد الله .

فتولى عبد الله بن فيصل الامارة الا ان أخاه سعود الذى كان فى الخرج لم يطعه وحاول الخروج عليه . لجأ الى آل عائض فى عسير فلم ينصروه وعاد الى نجران خائباً وعقد اتفاقا مع أقارب من العجمان وآل مرة على المقاومة وأعانهم آل خليفة وابن حثلين تجاه الهفوف واستولى عليها قبل أن يصل أخوه عبد الله بالمدد لنصرة السديرى أمير الحسا من قبله . فبلغ عبد الله خبر سقوطها فى منتصف الطريق فقسم جنوده الى أقسام وأصدر اليها الاوامر لكى تجتمع على ماء (جوده) فالتقى الجيشان هنالك عام ١٢٨٨ هـ (١٨٧٠ م) ودارت الدائرة على الفريقين الا ان خسارة عبد الله كانت أعظم ففر من بلاده الى عنيزة ولكن ابن سليم لم يقبله فيها فلجأ الى حائل فرفض ابن رشيد قبوله أيضاً. فاتجه الى مطير فنصره سلطان الدويش .

وأخيراً يئس عبد الله من بلاد العرب لحول وجهه شطر مدحت باشا فى بغداد فاستفاد الوالى الطموح من ذلك وأرسل معه جيشا بقيادة نافذ باشا الى الحسا فاحتلها وجعلها متصرفية عثمانية تابعة للبصرة . وكانت نتيجة عمل عبد الله ابن فيصل انه أراد أن ينزع الحسا من أخيه سعود نخسرها هو أيضا وكان الربح للدولة العثمانية عام ١٢٨٨ هـ (١٨٧١م) .

حاول سعود بن فيصل أن يستعيد الحسا ولكنه ارتد عنها خائبا ثم أراد الاستيلاء على ديار عتيبة فقابل ابن ربيعان فى معركة حامية جرح فيها جرحاً بليغا نقل على أثره الى الرياض ومات متأثراً من جرحه عام ١٢٩١ هـ (١٨٧٤ م) .

٩ — عبد الله بن فيصل

بعد وفاة سعود رجع أخوه عبد الله من منفاه الاختيارى الى الرياض ولكن أولاد أخيه سعود المتوفى لم يخضعوا له وظلوا فى الخرج .

وحاول عبد الله أن يسترجع الحسا من الترك أيضاً فحبط فى مشروعه وحاول عام ١٢٩٦ هـ (١٨٧٩ م) أن يظهر صولته فى القصيم فاستولى على عنيزة الا أن بريدة قاومته مقاومة عنيفة واستنجد أهلها بمحمد بن رشيد من حائل ، فجاءها هذا وفكها من نفوذ ابن سعود وحازها لنفسه ، واستسلم عبد الله للتقادير ، وعمل جهده للاستنصار بعتيبة وسبيع لغزو ابن رشيد فى دياره ولكن مسعاه حبط وتمكن منه أولاد أخيه سعود فحاصروه فى الرياض ثم أسروه .

فاستنجد عبد الله بمحمد بن رشيد الذى جاءه حالا الى الرياض وفك عبد الله من أسره وطرد أولاد سعود الى الخرج . وعرض الظافر على الامام عبد الله الفيصل أن يبقى فى ملكه وانه ما أتى الا فزعة له وأصر عليه بذلك فلم يقبل عبد الله الا الذهاب مع محمد الى حائل وذلك سنة ١٣٠٦ وبعد أن أقام فى حائل سنة طلب الرجوع الى الرياض فتوفى بعد وصوله بخمسة عشر يوما عام ١٣٠٧ .

١٠ — الامام عبد الرحمن بن فيصل

يتلخص حكم الامام عبد الرحمن بأنه محاولة من جانبه للافلات من الوقوع فى براثن العدو الشمالى محمد بن رشيد ، ومحاولة هذا أن يبسط سلطانه على كافة البلاد الخاضعة لابن سعود بصورة نهائية . رجحت كفة ابن رشيد فى آخر الأمر ولم تغن حكمة عبد الرحمن وشجاعته وحسن إدارته شيئاً .

تخلص ابن رشيد قبل كل شيء من أبناء سعود بأن أمر مندوبه سالم السبهان باغتيالهم فدبر لهم مهلكا قتل فيه ثلاثة و بقى عبد العزيز بن سعود الذى أخذ مع كافة العائلات الى حائل .

ومع أن عمل محمد بن رشيد كان فى الظاهر تمضيداً للامام عبد الرحمن فان حقيقته كانت بعكس ذلك . حاول مرات عديدة أن يوحد كلمة الناس على ابن رشيد فلم يفلح وأرسل محمد بن رشيد الاسرى من آل سعود ليعلم عبد الرحمن ضمناً أنه لا يستطيع حراكا . فما كان من الامام الا أن تحالف عام ١٣٠٨ هـ (١٨٩١م) مع زامل آل سليم أمير عنيزة وحسن بن مهنا أمير بريدة على أن يقوموا معاً بحركة يقضون بها على ابن رشيد فاجتمعت الجموع فى محل واقع غربى القصيم اسمه مليدة فدارت الدوائر على أهل القصيم وأحلافهم .

وقدم الامام عبد الرحمن الى حائل فاقام فيها برهة قصيرة ثم عاد منها الى الرياض ليعد معداته للرحيل الى قطر ، ثم الى الكويت حيث أقام فى ضيافة الحكومة العثمانية بضع سنوات بقرب آل صباح ، ولم يعد الى الرياض الا بعد قيام ولده عبد العزيز لاسترجاع ملك آبائه .

١١ — محمد بن فيصل بن تركي

والحكم الرشيدي

بعد انسحاب الامام عبد الرحمن من الرياض ولى ابن رشيد محمد بن فيصل ابن سعود مكان أخيه ، ولكن لم يكن لمحمد سلطة حقيقية . كان له مظهر الامارة والحكم بالاسم وكانت قوة ابن رشيد هي العليا ودامت الحال بضع سنين وابن رشيد يعمل جهده للقضاء على عوامل الشغب والفتنة فوفق في عمله ، وأصبح السيد المطاع في الجزيرة .

وتوفى محمد في الرياض فلم يعين الرشيدي أميراً من آل سعود بل أرسل أحد أتباعه أميراً على العارض وقضى على حكم آل سعود نهائياً .

و تمخضت الايام عن شبل جديد من آل سعود الاشاوس نهض من منفاه في الكويت عام ١٣١٨ من الهجرة لاسترجاع ملك آبائه فوفقه الله الى ذلك ، وكان من أثر جهاده قيام هذه المملكة الكبرى التي نسميها : « المملكة العربية السعودية » .

الفصل الثالث عشر

آل الرشيد

عبد الله بن علي الرشيد ــ طلال بن عبد الله ــ متعب بن عبد الله ــ بندر ــ محمد بن عبد الله بن رشيد ــ عبد العزيز بن متعب ــ سلطان وسعود ــ وكالة السبهان عقاب بن عجيل ــ عبد الله المتعب ــ محمد الطلال .

---

١ ــ عبد الله بن علي الرشيد مؤسس الامارة

في أوائل القرن الثالث عشر الهجري كانت بلاد شمر وقبائلها خاضعة لامراء من عشيرة الجعفر من فخذ الربيعية من بطن عبدة من قبيلة شمر . وكان الامير هو محمد بن عبد المحسن بن علي . فلم يطل به الأمر حتى ظهر له منافس قوي في شخص علي بن رشيد الذي ينتمي الى الجعفر أيضاً . وكان لعلي بن رشيد ولدان : عبد الله وعُبيد الله (ويسمى هذا الاخير للاختصار عبيداً) كانا على الدوام بصحبة عيسى ولد الامير بن علي كما كان والدهما صديقاً للامير نفسه . وأدى تخوف محمد بن عبد المحسن من عبد الله بن علي بن رشيد أن تحبب اليه بمختلف الوسائل ومنها تزويجه بابنته .

ولكن هذا التحبب وذلك الطموح لم يمكن التأليف بينهما ، فما كادت العساكر المصرية والتركية تشرع في الانسحاب من نجد عام ١٢٣٦ ﻫ (١٨٢١) ميلادية حتى انتقل النزاع بين ابن علي وابن رشيد من حيز القول الى حيز العمل واضطر عبد الله بن رشيد الى الفرار من حائل والالتجاء الى الحلة في العراق ثم الى الرياض التي كان الامير تركي بن سعود شارعاً في انشائها بعد انسحاب الترك والمصريين ، وعقدت بين عبد الله بن رشيد وفيصل بن تركي صداقة وطيدة كان

من نتيجتها استفزاز تركى آل سعود للاستيلاء على حائل والانتصار لصديقه عبد الله بن رشيد على خصمه محمد بن على .

وحينما قتل الامير مشارى بن عبد الرحمن بن سعود الامام تركى ابن عمه واستولى على الامارة فى الرياض كان فيصل بن تركى غائباً فى غزوات قام بها على القطيف فلما بلغه الخبر عاد الى الرياض ومعه عبد الله بن رشيد الذى أظهر بسالة تستحق الذكر فى قتل مشارى واستعادة الامارة لفيصل ، وكانت مكافأة فيصل لعبد الله على حسن صنيعه أن عينه حاكماً على حائل محل ابن على ، فدخل عبد الله حائلا بعد غياب أربع عشرة سنة وجمع حوله أنصاره وأصدقاءه وكان على رأسهم أخوه عبيد .

ولكن عبد الله بن رشيد لم يستطع الاحتفاظ بحائل طويلا ، لأن عيسى بن على التجأ الى الترك فى القصيم فنصروه وأعادوه الى حائل واضطروا عبد الله بن رشيد وكافة أهله الى الفرار منها والالتجاء الى واحة الجبه الواقعة وسط النفود .

ثم ان عبد الله اغتنم فرصة رجوع العساكر التركية من مناصرة ابن عيسى فهجم مع أتباعه على قرية قفار التى هى من أملاك ابن عيسى وجعلها مقر امارته وجاءت قوة عسكرية قوية من المدينة الى جبل شمر عام ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ م) برئاسة خورشيد باشا والى مصر فقابلها عبد الله بن رشيد فى المستجدة وقدم الى خورشيد باشا خضوعه وقدم له هدايا وفيرة جعلت الباشا يوافق على مناصرة عبد الله واجلاسه على كرسى الامارة فى حائل مقام أميرها عيسى بن على الذى فر الى المدينة المنورة فقتل فى الطريق قبل أن يبلغها .

ومنذ ذلك الوقت استتب الأمر لابن رشيد فى حائل والبلاد التى حواليها ثم أرسل أخاه عبيد الى الجوف فى وادى السرحان وأجبر قبائلها على الخضوع ودفع الزكاة له . وكان يعتمد على خورشيد باشا وعلى مساعدته له فلم يخش بأساً من توسعه وبسط نفوذه على سائر العشائر فى الجبل وأطرافه .

وشرع عبد الله فى اتمام بناء قصر برزان فى حائل وكان ابن على شارعاً فى بنائه . ومات عام ١٢٦٣ هـ (١٨٤٧ م) تاركاً من الاولاد ثلاثة : طلال، ومتعب ، ومحمد بعد أن حكم اثنتى عشرة سنة .

٢ — طلال بن عبد الله

خلف طلال والده عبد الله وكان عاقلا حكيما سعى جهده لاصلاح حالة البلاد التى تركها له أبوه . واهتم النـاس على زمانه بالصناعة واصـلاح ما دمرته الحروب السابقة ، ونعمت البلاد بنعمة الراحة والسكينة ، وتم على زمان طلال ثلاثة أمور جوهرية :

أولا : فتح وادى السرحان والحاقه رأساً بامارة ابن رشيد وتعيين حاكم رشيدى على الجوف وسكاكة وسواها من قرى وادى السرحان عام ١٢٦٩ هـ (١٨٥٣ م) .

ثانياً : فتح خيبر وتيماء وضمها الى أملاك ابن الرشيد بعدانسحاب الترك منهما

ثالثاً : اتمام بناء قصر برزان فى حائل .

وقد دام حكم طلال ٣٢ سنة ومات عام ١٢٨٥ هـ عن عمر يبلغ ٤٥ سنة متأثراً من جرح أصابه ، وقيل انه انتحر تاركا من الاولاد ستة لم يمت واحد منهم موتاً طبيعياً بل قتلوا جميعهم قتلا كما سيأتى بيانه .

٣ — متعب بن عبد الله

تولى الامر بعد وفاة طلال أخوه متعب الذى كانت له آراء خاصة فى شئون الامارة ، فجمع حوله أكثر المتقدمين فى السن من عائلته وقربهم منه وبذل لهم خيراته . فحفظ أولاد أخيه المتوفى طلال عليه وعملوا بكل ما أوتوا من قوة لجمع عدد غير قليل من الشبان المتحمسين حولهم . ولم يدم حكم متعب طويلا إذ قام عليه أبناء أخيه وقتلوه أمام قصره برزان .

٤ — بندر بن طلال

ما كاد يذاع خبر مقتل متعب حتى خاف أهل حائل من نتائجه، وفر كبار الرشيد وعلى رأسهم عبيد أخو عبد الله المؤسس ومحمد بن رشيد الى الرياض للاستنصار بآل سعود على أبناء طلال . ويقال ان عبيداً مات فى الرياض وبعضهم يقول انه مات بعد رجوعه منها الى حائل، وقد بلغ من العمر عتيا .

والظاهر أن السعودى نصح محمد بن رشيد بالهدوء والموادة الى أن تحين الفرصة المناسبة للانتقام من المعتدين، فقبل محمد النصح ومكث فى حائل دائباً ليله ونهاره لاجتذاب الناس الى جانبه . وعينته الدولة أميراً للحج العراقى ، ففى حج عام ١٢٨٨ أوصل محمد الحجاج الى العراق وقفل فى ربيع الثانى من العام المقبل وجلب معه الى حائل قبائل الظفير الذين كانوا ممنوعين على عهد بندر من القدوم اليها . فلما وصل محمد قابله بندر خارج الديرة بقرب حائل فأعلمه الاول بما فعل وانه جلب الظفير بوجهه فلم يقره بندر على فعلته ورفض وجاهته . فتمكن محمد من قتل بندر فى تلك الساعة وهو على ظهر فرسه وقتل اثنين من اخوانه وهما بدر ومسلط . وتولى محمد الحكم وفتك باخوان بندر كلهم خلال السنتين القبلتين وهم نهار وعبد الله ونائف ، ويقال ان نائف قتل أثناء لعب الخيل بسهم أصابه من يد مجهولة بحضور الامير محمد .

٥ — محمد بن عبد الله الرشيد

لم تبلغ قوة آل الرشيد ما بلغته على يد محمد فقد أصبح بعد جهاد وجلاد طويلين أميراً على سائر البلاد النجدية من وادى السرحان الى وادى الدواسر ومن تيماء وخيبر الى قرب الخليج الفارسى . وكثيراً ما كانت سلطته تمتد الى تدمر وجبال حوران .

وقد يسرت له الاقدار الاستيلاء على امارة ابن سعود في العارض نظراً للخلاف الذى نشأ بين أولاد فيصل بن تركى فقد اقتتل سعود وعبد الله ولدا فيصل ولم يستفد مما حصل إلا محمد بن رشيد .

وثارت القصيم على حكم محمد واتفق أهل عنيزة وبريدة مع الامام عبد الرحمن ابن فيصل بن سعود فى الرياض على مقاومة حكمه ولكن هذا تغلب عليهم فى المليدة فقتل زامل السليم وابنه على وأخذ حسن بن مهنا أمير بريدة أسيراً الى حائل ومات فيها بعد ثمانى سنوات وقتل من أهل القصيم فى المليدة ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل وكان مع أهل القصيم قسم من عتيبة ومطير وقتل من جمع ابن الرشيد أربعمائة رجل أما موقع المليدة فهو غرب القصيم على بعد ست ساعات .

وحينما رغب محمد بن رشيد فى نصب الامام عبد الرحمن أميراً على الرياض مقابل سعيه لوضع كافة بلدان ابن السعود تحت حكمه رفض الامام عبد الرحمن ذلك وانسحب الى قطر والبحرين عام ١٣٠٩ هـ (١٨٩١م) ثم استقر به المقام فى الكويت كما ذكرناه فى موضعه .

ومنذ ذلك الحين استتب الامر لمحمد فى سائر البلاد النجدية ولم يبق أمامه من ينازعه إلا ابن صباح أمير الكويت فما كسته رياح التقادير وجرت عليه منازعته مع الصباح الوبال غير أن محمد بن رشيد لم يشاهد بعينه سقوط عائلته بل ظلت فى مظهرها الخارجى قوية محترمة . ومات محمد عام ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) بذات الجنب .

٦ — عبد العزيز بن متعب

كان عبد العزيز بن رشيد من طراز مخصوص . فلم يكن يعلم أساليب السياسة ولم يكن يعتمد فى امارته عليها بل كان كل ما يفكر فيه الاعتماد على القوة . ولذلك فانه طيلة السنوات الثمانية التى تولى فيها الامارة لم يكن يقيم طويلا فى حائل .

وبالرغم من مواتاة الظروف السياسية له فانه ما استطاع الاستفادة منها. كانت الحكومة العثمانية حتى ذاك الحين غير مكترثة بشؤون البلاد العربية ولكنها بعد أن عزمت على مد السكة الحديدية وخط التلغراف من الشام الى المدينة المنورة كان لابد لها من أمير عربي يتعهد لها بمنع القبائل من تخريب الخط ويتعهد لها بحراسته والدفاع عنه. ومن جهة ثانية كانت فى حاجة الى قوة عربية تستطيع أن تسوقها ضد مبارك بن صباح الذى ظهر منه مايفيد عدم مبالاته بالترك وانحرافه الى جهة الانكليز. وأخطأ عبد العزيز خطأ فاحشا فى اطلاق سراح الاسرى المقيمين فى حائل من آل سعود فان هؤلاء بعد مرور وقت قصير انقلبوا عليه واتفقوا مع أعدائه للكيد له.

وصرف عبد العزيز أكثر أيامه فى شن الغارة على ابن صباح وقومه وكانت الحرب بينهما لاتخمد فضعف أمره وقوى أعداؤه. واستفاد من ذلك الاميرعبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذى كان مقيما فى الكويت فانه ذهب عام ١٣١٩ بسرية من قومه وعشيرته الاقربين الى العارض واحتل الرياض وقتل فيها عجلان الامير المنصوب من قبل ابن رشيد وأنشأ لنفسه امارة ثلت فى الختام عرش ابن رشيد وقضت على عائلته.

وقد قتل عبد العزيز بن رشيد فى الطرفية بقرب بريدة فى معركة حامية الوطيس بينه وبين قوات ابن سعود كان النصر فيها للأخير عام ١٣٢٤ هـ.

٧ — سلطان وسعود ابن رشيد

ان تاريخ عائلة الرشيد بعد قتل عبد العزيز بن متعب حتى سقوط تلك العائلة نهائياً على يد ابن سعود بعد ذلك بخمس عشرة سنة عبارة عن مأساة دموية مثلت أدوارها فى حائل فقد تولى الامارة خلال هذه المدة القصيرة بضعة عشر أميراً أو نائباً للامير.

تولى الامارة بعد عبد العزيز ولده متعب . إلا أن أمرها لم يدم له طويلا فقتل هو وأخوه مشعل على ايدى سلطان وفيصل وسعود أبناء حمود آل عبيد وبعد مضى بضعة أشهر أخرى قتل سلطان محمداً أخا متعب الثالث ولم يبق من نسل عبد العزيز إلا طفل صغير عمره ثمانى سنوات اسمه سعود فقد نجا بسعى أخواله آل السبهان وفرارهم به الى المدينة المنورة .

وفى زمان سلطان بن حمود هذا فقدت امارة حائل مقاطعة القصيم نهائيا كما أنها أضاعت مقاطعة خيبر.

ولم يدم سلطان فى الحكم طويلا فقتله أخواه سعود وفيصل .

أما سعود فقد عين أخاه فيصلا أميراً على الجوف لكى يتخلص من شره وبالرغم عن هذه الجرائم العائلية فان آل حمود لم يتمتعوا بالحكم طويلا فانتهز المخلصون لاولاد عبد العزيز بن متعب فرصة عدم الاستقرار فى حائل وجلبوا سعود الصغير من المدينة ونصبوه أميراً عليهم وحصلت بعد ذلك مجزرة دموية قتل فى خلالها أكثر أفراد عائلة آل عبيد وفر فيصل بن حمود من الجوف والتجأ الى ابن سعود فى الرياض ومات قبيل احتلال حائل وإزالة حكم الرشيد عنها بقليل

٨ — وكالة آل السبهان بالنيابة عن نسيبهم سعود بن عبد العزيز المتعب

بما أن سعود كان قاصراً فقد ناب عنه فى ادارة الاحكام خاله حمود السبهان ولكن هذا مات مسموما بيد مجهولة فتولى الوكالة بعده زامل السبهان وفى زمان هذا خرجت الجوف ووادى السرحان من حكم الرشيد .

وأدرك زامل أنه من الصعب عليه مقاومة هذا العدد الكبير من الاعداء فقد كان محاطاً بهم من كل جانب فى الجنوب ابن السعود وفى الشرق ابن صباح ومن والاه من القبائل وفى الشمال الزولا وابن شعلان فلم يجد طريقا أسلم من أن يصطلح مع ابن سعود فعقد معه اتفاقا اعترف له فيه بالسلطة العليا . ثم أنه اتفق مع

الترك فنصروه وأمدوه بما يلزم من أسلحة وذخيرة ومال . ولكنه قتل فى ربيع عام ١٣٣٢ هـ (١٩١٤ م) بيد أحد أقاربه سعود بن سبهان . بعد وفاة حمود السبهان وقتل زامل السبهان لم يكن للامير سعود بن رشيد وكيل رسمى فى الامارة إلا أنه كان يستعين ببعض الاعوان أهمهم شأناً عقاب بن عجيل وسعود بن سبهان وقد سمحت الفرص لسعود السبهان باللعب من عدة وجوه فقد فاوض الترك وفاوض الفرنساويين وعمل جهده للاتفاق مع الانكليز بواسطة المقيم السياسى فى الكويت ولكنه لم ينجح .

وقد قوى نفوذ سعود السبهان فى حائل قبل فراره الى درجة جعلته يفكر فى قتل سعود الامير ويستولى على الامارة مكانه . ولكنه كان يعمل عملا لا يستطيع أن يحققه فاكتشفت مؤامراته وفر الى قرب الزبير حيث دهمته منيته فيها عام ١٣٣٩ هـ (١٩١٩ م) .

٩ — عقاب بن عجيل

عهد الامير سعود بعد ذلك بإدارة الاحكام الى عقاب بن عجيل وكان هذا عاقلا حازما شرع فى مفاوضة ابن سعود والتفاهم معه كما أنه تفاهم مع الشريف حسين فى مكة ولقى منه المساعدات الكثيرة طمعاً فى أن يسوقه ضد ابن سعود غير أن كل ذلك لم يجد آل الرشيد شيئاً إذ أن السوس قد نخر فى هيكل امارتهم والحزازات الاهلية عملت عملها فيهم ففى عام ١٣٤٠ قتل الامير سعود بن عبد العزيز بيد ابن عمه عبد الله بن طلال بن نائف ولكن هذا لم يهنأ بالامارة لانه قتل فى نفس الساعة بايدى عبيد الامير القتيل .

١٠ — عبد الله بن متعب بن عبد العزيز

وأجمعت الآراء بعد ذلك على نصب عبد الله بن متعب أميرا على حائل الا

ان هذا رأى ملتى ادارة الامارة من مصاعب وسط الدسائس والمؤامرات العائليـة فقبض بعد توليه الامارة على محمـد بن طلال شقيق عبد الله الطلال قاتل الامير سعود والقاه فى السجن ، الا ان العلاقات مع ابن سعود كانت غير حسنة وكانت طلائع جيوش الاخير تهاجم جبل شمر وتغزو بلاده وميـاهه ، كما ان ابن شعلان كان يهدد حائل من الشمال فرأى عبد الله ان الطريقة المثلى هى مصالحة ابن سعود فاشترط عليه الملك عبد العزيز عدم مداخلة آل الرشيد فى شئون شمر وهذا معناه عزل آل الرشيد عن الامارة فلم يمكنه قبول الشرط فوقعت الحرب بين الجانبين وكان من نتيجتها أن استسلم عبد الله المتعب الى جيوش ابن سعود فاقتيد الى الرياض ولا يزال الى الآن متنقلا بينها و بين مكة .

١١ — محمد بن طلال ونهاية امارة عائلة الرشيد

بعد استسلام عبد الله المتعب نصب محمد الطلال مكانه فأدار دفة الحرب برهة ثم انسحب الى حائل حيث حوصر هو وجماعته الى أن سلمت حائل لابن سعود فى ٢٩ صفر سنة ١٣٤١ (نوفمبر سنة ١٩٢١) ، و بذلك انتهى حكم آل الرشيد و ضمت بلادهم الى حكم ابن سعود بعد أن دامت امارتهم ما يقرب من ٩١ سنة

الفصل الرابع عشر

أشراف أبو عريش وآل عائض والادارسة

اشراف ابو عريش – آل عائض – السيد محمد علي الادريسي
زوال امارة الادارسة .

---

١ – أشراف ابو عريش

ان تاريخ شرافة أبو عريش قديم غير أن معلوماتنا عنه ناقصة جداً . ويرجع أساس الشرافة الى الاختلاف الذى كان سائداً بين سكان جبال اليمن وعسير وسكان التهائم . فان الاولين تشيعوا واتبعوا الامام زيد بن علي وظل أهل التهائم شوافع سنيّين . فنشأ عن الاختلاف مشيخات قبائلية وضعية فى أماكن عديدة أهمها حكومة زبيد التى كانت تشرف على شئون الشوافع فى تهامتى اليمن وعسير وتدفع أئمة صنعاء الزيديين عنها .

بدأت شرافة أبو عريش تظهر منذ احتلال الجيوش العثمانية لجنوبى الحجاز ولعسير واليمن ففى عام ١٠٠٦ ﻫ (١٥٩٧ م) اتفق مشايخ تهامة وفيهم شريف أبو عريش على القيام ضد الوالى حسن باشا الذى تولى من ٩٨٨ – ١١٠٣ ﻫ[١] .

---

(١) كتاب ظهور ائمة صنعاء تأليف ا . س . تريتون ص ٧ .

وجهز الترك حملة بقيادة أحد موظفيهم واشترك فيها بعض أشراف أبو عريش وصبيا للاستيلاء على صعدة، فالتقى بها جنود الامام الزيدى قبل وصولها وأفنوها وهرب قائدها الى الساحل عام ١٠٢٤ هـ.(١)

وفى عام ١٠٣٤ هـ ثار إمام صنعاء على العثمانيين وتمكن صالح بن أحمد المؤيدى من ضبط أبو عريش من أيديهم، ومن الاستيلاء على صبيا، والحاقها بالإمام الزيدى(٢).

وبعد ذلك بخمس سنوات أرسل والى مصر قائداً جديدا الى اليمن اسمه أحمد قانصوه فتمكن من استعادة البرك وصبيا وأبو عريش من أيدى أئمة اليمن الى حظيرة الدولة العثمانية(٣).

وتنقطع عنا أخبار شرافة أبو عريش الى أوائل القرن الماضى حينما ظهرت الدعوة السلفية فى نجد على يد حكومة آل سعود الاولى. فان الدعاة نشروها بين قبائل عسير وجنوبى الحجاز، وتبعها أكثر قبائل عسير السراة وعسير تهامة، وكان سعود بن عبد العزيز يجند قبائل عسير تحت امرة عبد الوهاب بن عامر المسمى أبو نقطة وهو أمير عسير ورجال المع ويرسلهم تارة الى الحجاز وطوراً الى اليمن، وهذه القبائل هى التى فتحت اللحية والحديدة(٤).

ففى عام ١٢٢٤ كان صاحب أبو عريش الشريف حمود أبو مسمار وكان قبل ذلك قد بايع سعودا وحالفه ودفع عشوره اليه وأوفد ابنه الى الدرعية لزيارته، ثم حصل بينه وبين عبد الوهاب أمير عسير السراة نزاع أدى الى رفعه الى سعود

---

(١) كتاب ظهور أئمة صنعاء تأليف ا. س. تريتون ص ٦١
(٢) « « « « « « « ص ٨٧
(٣) « « « « « « « ص ١٠٢
(٤) تاريخ ابن بشر ص ١٣٢ – ١٣٤.

للاصلاح بينهما ، فلم تنجح وساطة ابن سعود فى ذلك ، فاصدر أمره الى الشريف حمود لكى يجهز قوة و يذهب بها الى صنعاء فلم يفعل فحقد سعود عليه وأمر القوات بالمسير لقتاله ، والتقت القوات قوات آل سعود وفيها قبائل عسير و رجال المع وأهل الوديان وأهل بيشة وقحطان وشهران ، وقوات الشريف حمود وفيها دهم وحاشد و بكيل وهمدان و يام ، فى وادى بيشة . فقتل عبد الوهاب أمير عسير فى الوقعة الا أن الغلبة كانت لعساكر آل سعود ، ففر الشريف حمود الى تهامة ولجأ الى حصنه أبو عريش واحتلت العساكر بلاد صبيا وجيزان[1] .

وفى العام المقبل جهز عثمان المضايفى قوة من الحجاز وسار بها مع قوات عسير للقضاء على حمود واقتتلوا فى محل يسمى وَحلة فكسر حمود وفر هارباً واحتل طامى ابن شعيب أمير عسير الجديد أبو عريش وتقدم منها الى اللحية و الحديدة[2].

و توفى الشريف حمود عام ١٢٢٣ وتولى ابنه أحمد مكانه وحصل بين أحمد و بين حسن بن خالد أمير صبيا نزاع ثم اتفقا . وفى هذه الاثناء جاءت القوات العثمانية والمصرية الى أبو عريش يقودها خليل آغا فألقت القبض على أحمد بن حمود وأرسلته الى مصر[3] ولكن احتلال أبو عريش لم يدم طويلا فاضطرت القوات المصرية الى الانسحاب وتسليمها الى امام صنعاء الزيدى .

وعقد محمد على باشا اتفاقا مع الشريف حسين ، شريف أبو عريش ، للعمل معاً ضد امام صنعاء وضد قبائل عسير المنحازة الى آل سعود ، وتقدمت قوات الاثنين الى الجبال فاحتلت ابها عاصمة عسير عام ١٢٥٠ ه (١٨٣٤ م) ولكنها لم تتمكن من البقاء فيها طويلا[4] .

---

(١) ابن بشر ص ١٤٤ — ١٤٥

(٢) ابن بشر ص ١٤٩

(٣) ابن بشر ص ٢١١

(٤) تاريخ بلاد العرب لهو غارث ص ١٠٦

وحينما انسحب المصريون من البلاد العربية عام ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩ـ١٨٤٠م) وجد الشريف حسين نفسه قادراً على بسط نفوذه على سائر تهامة والحاقها بأبو عريش فوصلت قواته الى مخا جنوبي الحديدة واستولت عليها باسمه وظلت حكومته فيها وفى سائر تهامة الى أن شرع الترك فى استعادة قوتهم فى البلاد العربية فجردوا بتحريض الشريف محمد بن عون أمير مكة قوة عسكرية عام ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) أنزلت فى الحديدة وتمكنت القوة من فتح تهامة ودخول أبو عريش[1] .

وفى زمن حكم الشريف حسين المشار اليه قدم السيد أحمد بن ادريس الى صبيا ونال من عطفه ومساعدته ماجعل له شهرة عظيمة بين القبائل تمكن حفيده من الاستفادة منها حينما قام لتأسيس حكومة الادارسة فى مطلع القرن الحالى . وتوفى السيد أحمد بن ادريس فى صبيا عام ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧ م) وظل أحفاده فيها . ولا ندرى كيف تغلب الادارسة على أشراف أبي عريش ولا كيف كانت آخرة الشريف حسين وأولاده وانما نعلم ان حكمهم ظل فى تهامة عسير واليمن ضعيفاً الى أن أزيل تماما على يد السيد محمد على الادريسى .

ذكر الشيخ عبد الواسع اليمانى فى حوادث عام ١٢٦٤ هـ ان امام صنعاء المتوكل عزم على انتزاع تهامة من يد الشريف حسين فجهز قوة تمكنت من أسر الشريف وحبسه في قلعة القطيع فى تهامة فاستشارت ابنته قبائل نجران فخلصته من أسر المتوكل واستولت باسم الشريف على زبيد ونهبتها[2] .

وذكر فى موضع آخر ان الشريف حسين ذهب الى الاستانة مستنصراً الحكومة

(١) كتاب بلاد العرب وضم وزارة الخارجية البريطانية ص ٢٤ وتاريخ بلاد العرب لهوغارث ص ١٠٦ ـ ١١١ .

(٢) تاريخ اليمن ص ٧١

العثمانية فأمدته بقوة قادها توفيق باشا وكان ذلك بدء استرجاع آل عثمان لعسير واليمن[١] .

٢ — آل عائض

ينتسب آل عائض الى عشيرة آل أبو سراح من نخذ آل يزيد من بطن مغيد من قبيلة عسير وهم رؤساء قبيلة عسير المنقسمة الى أربع بطون كبيرة ذكرناها فى بحث القبائل العربية ومركزها بلدة ابها[٢] وسط جبال السراة فى عسير .

امارة آل عائض فى عسير ، حديثة العهد ترجع الى أيام حكومة آل سعود وفتحهم عسير . وكانت الامارة قبل ذلك فى رجال المع ووليها أيام فتح سعود الكبير للحجاز رجل اسمه عبد الوهاب بن عامر المكنى بأبى نقطة صاحب الوقائع المشهورة فى الحجاز مع الشريف غالب وفى تهامة مع الشريف حمود أبو مسمار شريف أبو عريش[٣] . و بعد موته وليها ابن عمه طامى بن شعيب عام ١٢٢٤ الذى خانه حسن بن خالد أمير صبيا وسلمه الى قوات محمد على باشا فأرسلته الى مصر وصلب فيها . ثم ولى امارة عسير بعد ذلك على بن مُجثّل عام ١٢٤٩[٤] ، ومن بعد على هذا تبدأ امارة آل عائض فى عسير السراة .

أما كيفية انتقال الامارة من قبيلة رجال المع الى قبيلة عسير فغير معلومة على وجه الصحة . وقد ذكر الريحانى أن عائض مؤسس العائلة كان من الرعاة فاستبسل

---

(١) تاريخ اليمن ص ٧٣ وايراد القصة على هذا النحو يخالف ماقاله من كتاب وزارة الخارجية البريطانية عن بلاد العرب وتاريخ هوغارث .

(٢) تعرف انها باسم مناظر وهى مؤلفة من أربع قرى كبيرة واقعة فى منبسط تحيط به جبال مرتفعة عليها ابراج تحمى البلد .

(٣) أنظر النبذة السابقة وابن بشر ص ١٣٢ — ١٣٤ .

(٤) ابن بشر م ٢ ص ٤٦

فى القتال ضد الجنود المصرية فقر به ابن مجثل اليه وأوصى به عند ابن سعود بعده فاثبته فى الامارة . [1]

بلغت قوة آل عائض أوجها أيام محمد بن عائض الذى ولى الامارة بعد والده ووسع حكمه على سائر عسير السراة وقسم من الحجاز غامد وزهران ، وقسم كبير من تهامتى عسير واليمن . فرأت الدولة العثمانية التى كانت من أقوى الدول أيام السلطان عبد العزيز أن ترك الامر على غاربه مضيع لهيبتها ومخرج لبلاد عسير واليمن من يدها . فجهزت حملة كبيرة بقيادة رديف باشا واحمد مختار باشا وسيرتها عام ١٢٨٥ . [2] وتوسط الشريف محمد بن عون بين الدولة وبين ابن عائض على أن يسلم العسيرى بلاده وأن تحفظ له الدولة أمواله وخيوله وحصونه وأن تعين له ولعائلته ولبعض الرؤساء مرتبات ومشاهرات . فوصل الفرمان بالامان من السلطان عبد العزيز بينما كانت الجيوش العثمانية بقيادة مختار باشا محاصرة ابها فاستسلم محمد الى مختار باشا وهذا أرسله الى رديف باشا فلم يعبأ بالفرمان واعدم ابن عائض وصارت عسير منذ ذلك اليوم تابعة للدولة العثمانية . وجعلت متصرفية مركزها ابها . ويتبعها ستة أقضية وهي : (١) بنى شهر أو النماص . (٢) غامد ومركزها رغدان . (٣) رجال المع ومركزها الشعبين . (٤) محايل ومركزها محائل . (٥) القنفذة . (٦) صبيا وأبو عريش .

ونقم آل عائض على الدولة وابتعدوا عنها الى أن كانت فتنة السيد محمد على الادريسى عام ١٣٢٩ فعادوا اليها . وعينت حسن بن على بن محمد بن عائض معاوناً للمتصرف سليمان شفيق كمالى باشا .

---

(١) تاريخ نجد الحديث ص ٢٦٩ ومما نلاحظه أن ابن مجثل لم يكن أميراً على عسير أيام سعود الكبير فقد كان ولاة عسير الاشخاص الذين ذكرناهم عبد الوهاب وابن عمه .

(٢) تاريخ اليمن ص ١٠٦ .

وظل حسن على ولائه للدولة طيلة الحرب العمومية وتعاون مع محيي الدين باشا متصرف عسير وقائد فرقتها لدفع عدوان الادريسي . واستقل بعد جلاء الترك عقيب الحرب بالبلاد وشرع في ادارتها على شكل احفظ الناس وجعلهم يوسطون الملك عبد العزيز آل سعود في أمرهم . فرفض حسن الوساطة وكان من الملك عبد العزيز أن جهز عليه قوة بقيادة الامير عبدالعزيز بن مساعد عام ١٣٣٨هـ (١٩٢١ م) وحصلت بين الفريقين معركة في حجلة بين أبها وخميس مشيط انهزم آل عائض فيها وهربوا الى تهامة فأسر الادريسي حليف ابن سعود بعضهم واستسلم حسن ومحمد ابن عمه لابن مساعد فذهب بهما الى الرياض .

ووصلهما الملك عبد العزيز بالجوائز وأعاد حسناً ومحمداً الى أبها . ولكنهما عادا الى سابق سيرتهما وحاصرا أمير ابن سعود في ابها واحتلاها . فلما رأى الملك عبد العزيز خيانتهما وما كان من غدرهما جهز حملة جديدة من أهل نجد بقيادة نجله الثاني سمو الامير فيصل عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢ م) فوصلت الى عسير وحصلت عدة وقائع آخرها واقعة بين السرية التي أنفذها الشريف حسين بن على من مكة لامداد محمد بن عائض فقضى على السرية كما قضى على حصون ابن عائض وقلاعه واتبعت عسير السراة نهائياً بالمملكة النجدية واستيق حسن بن عائض الى الرياض ولا يزال فيها الى الآن .

٣ — السيد محمد على الادريسي

يبدأ تاريخ امارة الادارسة من محمد بن على بن احمد بن ادريس . وكان جده السيد احمد بن ادريس من أهل العلم والصلاح هاجر من المغرب وأقام في مكة المكرمة برهة ثم ذهب الى تهامة اليمن لزيارة بعض تلاميذه ومريديه واستقر به النوى عام ١٢٤٦ (١٨٣٠) في صبيا في جوار الشريف حسين شريف أبوعريش

وأقام هنالك يبشر بطريقته الادريسية الى أن توفى بعد ذلك بنحو سبع سنوات .

قامت امارة السيد محمد حفيد السيد احمد على التراث الدينى الذى خلفه له جده بين القبائل وأعانته الظروف السياسية . وما كانت عليه الدولة العثمانية من تضعضع واهمال فى أواخر أيام السلطان عبد الحميد فراح يدعو الى نفسه دعوة اصلاح دينى أملا فى الوصول الى أغراضه السياسية .

ولد السيد محمد عام ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) فى صبيا وجاء الى مكة مجاوراً عام ١٣١٣ هـ ثم رحل الى القاهرة ودخل الازهر الشريف ثم ذهب الى واحة الكفرة مركز السنوسية وانصرف عنها الى دنقلة حيث أخواله بالسودان . ثم عاد الى صبيا مسقط رأسه فى أواخر سنى السلطان عبد الحميد فوجد مرتعا خصيبا لعمله وساعده على ذلك فساد الادارة وانتشار الرشوة وبعد البلاد عن مركز الحكومة ، والاستبداد القاهر ، فالتفت حوله الناس من كل حدب وصوب . وأرادت الحكومة العثمانية عجم عوده فارسلت اليه وفداً سار خلفه جيش كبير يقوده القائد سعيد باشا . فافهم الادريسى حالة البلاد للوفد وأنه وجدها معطلة فاسدة الادارة معدومة الامن فقام هو باصلاح أحوالها عن طريق الاصلاح الدينى وذلك فى مصلحة الدولة فخدع الوفد بأقواله ونال الادريسى من قائد الجيش اعلانا للقبائل يفوضه فيه بقيامه ببعض المهام فكان ذلك سببا فى ازدياد سطوته ونفوذه وعينته الحكومة قائمقاما لصبيا وأبى عريش .

وبعد برهة قصيرة ألب على الحكومة العثمانية وأرسل من قبله قواداً لاحتلال البلاد ، ووجه ابن عمه السيد مصطفى الادريسى الى عسير السراة لاحتلال أبها وكان ذلك فى ذى القعدة عام ١٣٢٨ . وشدد الادريسى الحصار على أبها وفيها المتصرف سليمان شفيق كمالى باشا الى أن فك الحصار عنها على يد القوة التى قادها

الشريف حسين بن على أمير مكة فى السنة التالية .

و تحصن السيد محمد بعد وصول القوات اليه فى جبل فيفاء ولكنه عاد الى تهامة بعد أعلان الحرب بين ايطاليا و الحكومة العثمانية و استولى على صبيا وجيزان وأبو عريش واتفق مع الحكومة الايطالية التى أمدته ببعض الذخيرة . غير أن علاقات السيد محمد مع ايطاليا وقفت عند هذا الحد واستبدل بها صداقة جديدة مع الحكومة البريطانية فى السنة الاولى من اعلان الحرب العمومية ، فانه عقد عام ١٩١٥ معاهدة صداقة ثم جددت هذه المعاهدة عام ١٩١٧ و أعترفت له بريطانيا بالسيادة على تهامة حتى اللحية فى الجنوب والقنفذة فى الشمال و تعهدت له بحمايته من أى تعد خارجى ، كما انه تعهد بعدم تأسيس علاقات سياسية أو تجارية مع أية حكومة أجنبية .

و اشتد ساعد السيد محمد بعد الحرب العمومية و استولى على الحديدة و تعاقد مع الملك عبد العزيز بن سعود للقيام معاً لتأمين مصالح الجانبين وظلت صلاتهما حسنة الى آخر أيام السيد محمد ، غير أن موقف السيد كان عصيباً نظراً لوقوعه بين عدوين كبيرين الامام يحيى فى اليمن والشريف حسين فى الحجاز و وقعت بلاده بعد وفاته فى شعبان عام ١٣٤١ ه (١٩٢٣ م) فريسة فى براثن الفتنة فاستولى الامام يحيى على القسم الجنوبى منها و انضمت الاقسام الاخرى الى ممالك ابن سعود .

٤ — زوال امارة الادارسة

بعد وفاة السيد محمد الكبير ولى الامارة ولده على فاغتنم الامام يحيى حميد الدين الفرصة لاسترجاع تهامة منه فوفق الى ضبط الحديدة والاستيلاء على الساحل حتى مدينة ميدى . فثار أهل البلاد على علىّ و بايعوا عمه الحسن فلجأ السيد على الى جلالة الملك عبد العزيز أثناء فتحه للحجاز وما زال مقيما فى بلاطه حتى الآن .

أما السيد الحسن فانه أراد أن يقلد أخاه محمد الكبير ففاوض جهات عديدة . فاوض الملك عبد العزيز مذكراً إياه بصداقة العائلتين . وفاوض الامام يحيي ، وفاوض الايطاليين ، وفاوض كذلك الانكليز بواسطة ابن عمه مصطفى . وأثمرت مفاوضاته مع الانكليز أنه أعطى لشركة أجنبية امتيازاً باستخراج الزيت من فرسان بشروط مجحفة بحقوق البلاد والاهلين ، وبينما كان مندوبوه يفاوضون الامام يحيي فى صنعاء نجح مندوبه الآخر وابن عمه مرغنى فى عقد معاهدة مكة بين الملك عبد العزيز والحسن عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٦ م) ووضعت المقاطعة بموجب المعاهدة تحت حماية نجد وقطعت جهيزة قول كل خطيب .

ولم يباشر الملك عبد العزيز حقوق الحماية فى أول الأمر إلا فيما يتعلق بامتياز شركة الزيت فى فرسان فانه رأى فيه إجحافاً وغبناً فوفق الى الغائه ، وأبقى ادارة البلاد فى يد هيئة حاكمة تحت رئاسة السيد واكتفى بارسال مندوب يكون الى جانب الحسن يعاونه فى أعماله وحضر مندوبون من قبل الحسن الى بلاط الملك عبد العزيز فى الطائف عام ١٣٤٧ لوضع القواعد الاساسية لادارة البلاد فوافق الملك على اقتراحات وفد الحسن وجعل الادارة الداخلية وتأمين الامن واعداد الجند للدفاع فى يد الحكومة المحلية واحتفظ بالشؤون الخارجية فقط . إلا أن الادارة المحلية عجزت بعد سنتين عن ادارة الامور وتأمين الاحكام ، ولم تكن قادرة على جباية الاموال الاميرية اللازمة لقيامها بالرغم عن مد الملك عبد العزيز يد المساعدة لها .

وفى ١٧ جمادى الاولى عام ١٣٤٩ أبرق الحسن الادريسى الى الملك عبد العزيز ما يأتى : « كتبكم برفقة العبدلى وصلت وتذاكرنا مع وفدكم فتقرر بموافقتنا ورضانا اسناد إدارة بلادنا وماليتنا الى عهدة جلالتكم[1] . » وعهد الى مندوبين من

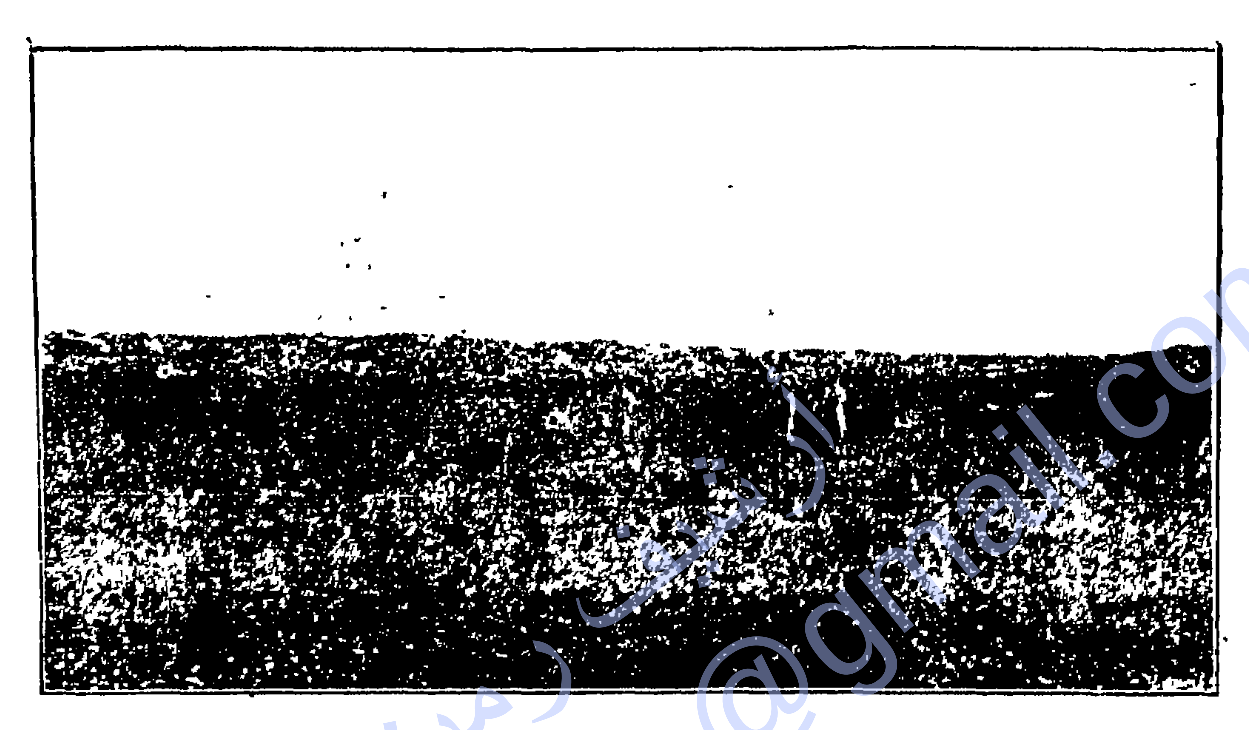
---

(١) مجموعة معاهدات وزارة الخارجية العربيه ص ٦٦

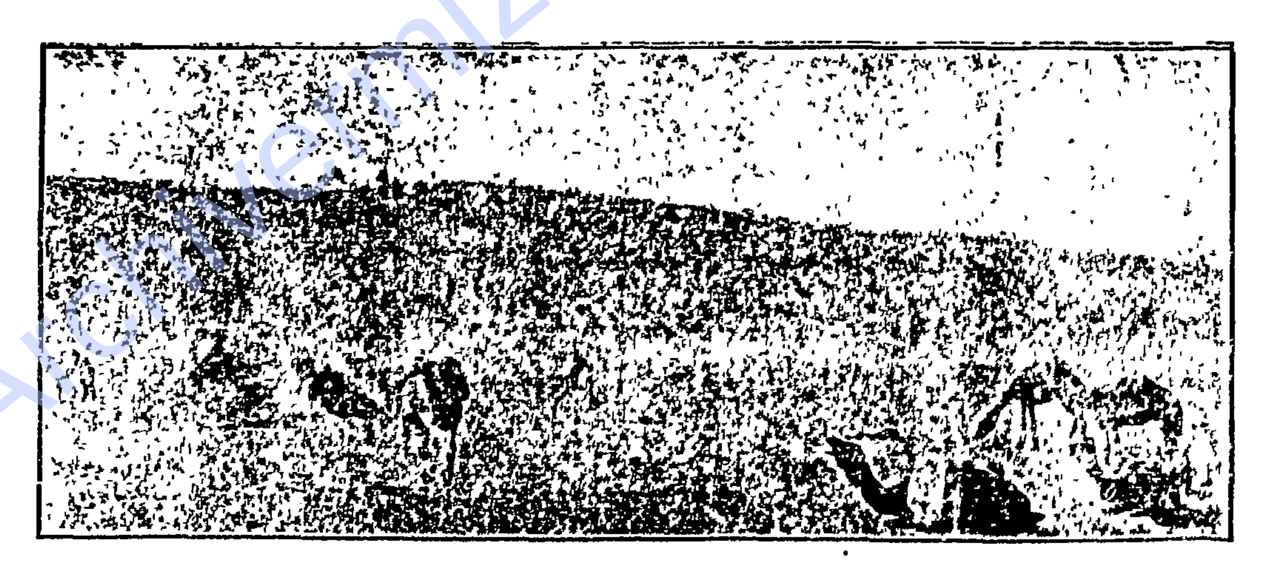
الجانبين لوضع التعليمات الاساسية التي تتمشى عليها المقاطعة بعد ذلك ، وأصبحت المقاطعة الادريسية مقاطعة من مقاطعات المملكة الحجازية والنجدية وملحقاتها وجعل للسيد الحسن مقام استثنائي ممتاز محافظة على كرامته وكرامة عائلته [1].

وبعد إعلان توحيد أجزاء المملكة الحجازية والنجدية وملحقاتها ، وجعلها مملكة واحدة باسم المملكة العربية السعودية كان من المنتظر اعادة تنقيح التشكيلات الادارية في المقاطعة إلا أن الحسن اغتر بمواعيد بعض المفسدين لحاول أن ينقض بالقوة ماتعهد به من قبل برضاه التام ورفع علم الثورة ضد الحكومة فجردت عليه حملة تأديبية قضت على فتنته ، ووضعت حداً لحكم الاسرة الادريسية في صبيا وجيزان وأبو عريش.

(١) أنظر الوثائق الخاصة بذلك في مجموعة المعاهدات ص ٦٥ ـ ٧٦



١٨ — فوهة النيزك فى بلدة وبار الخرافية



١٩ — رمال الربع الخالى : غين سلى

الفصل الخامس عشر

الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود

نشأته ــ الاستيلاء على الرياض ــ التوسع فى الخرج والافلاج ــ الاستيلاء على سدير والوشم والجبل والقصيم ــ القصيم بين ابن سعود والحكومة العثمانية وابن رشيد ــ الرشيد وأبا الخيل والعرائف والهزازنة ــ الاستيلاء على الحسا ــ الاخوان وتأسيس الهجر ــ موقف ابن سعود فى الحرب العمومية ــ احتلال تربة والخرمة ــ احتلال بلاد ابن رشيد ــ احتلال الجوف ووادى السرحان وعسير ــ فتح الحجاز ــ المملكة العربية السعودية .

---

١ ــ نشأته

ولد جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود فى الرياض فى شهر ذى الحجة عام ١٢٩٧ ﻫ (الموافق لشهر ديسمبر ١٨٨٠م) فى وقت كانت الاهواء السياسية فيه تتقاذف بمقدرات آل سعود ، وحكمهم فى نجد ، وتجعل من الاخ عدواً ومن الاصدقاء أضداداً وأخصاما . شاهد عبد العزيز اختلاف أعمامه وما جره على نجد عموما وعلى آل سعود خصوصاً من ذلة واستكانة ، ورأى محمد بن رشيد الظافر مستولياً على نجد ومنتزعاً السلطة نهائياً من آل سعود . ورأى والده المغفور له الإمام عبد الرحمن ، وقد انسحب من ميدان هذه الفوضى السياسية

والاخلاقية السائدة بين قومه ، تاركا نجداً وأهلها لحكم التقادير والظروف ، ورآه فى قطر ضيفاً غير مرغوب فيه ، ورآه فى الكويت وبين قبائل العرب ارحل باحثاً عن موطن يستقر به بافراد عائلته ـ الى أن سمحت الحكومة العثمانية له بالاقامة فى الكويت عام ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ م) .

أقام عبد العزيز فى الكويت مدة تقرب من عشر سنوات رأى فيها مبارك الصباح يقتل أخويه محمد وجراح و يرقى الكرسىّ الملطخ بالدم ؛ ورأى محمد بن رشيد فى إبان مجده وقد خلا له جو الحرب والسياسة فى أواسط بلاد العرب ، ورأى النزاع المستمر بين أمراء العرب فى الجزيرة ، ورأى التنافس الشديد بين السلطنة العثمانية والامبراطورية البريطانية ـ الهندية لبسط النفوذ والتوسع فى ساحل الخليج الفارسى ، واستجلاب هذا الامير واسترضاء ذلك الزعيم ، فكانت إقامته هذه المدة خير معلم له ، وكان له من مشاهداته واختباراته أيام شبابه الاولى ما جعله يعد نفسه لليوم الاكبر ، يوم شروعه فى عمله العظيم لاعادة مجد آل سعود ولإقامة صرح هذا الملك العربى الوطيد .

تولى مبارك الصباح حكم الكويت بعد قتل أخويه عام ١٣١٣ هـ . وكان له أعداء سعوا به لدى الدولة العثمانية ، وأغروا ابن رشيد به . ويقال ان الانكليز حرضوا الدولة علي التنكيل بمبارك مباشرة و بواسطة حليفها ابن رشيد على أمل أن يجد مبارك نفسه فى موقف حرج فيزج نفسه فى أحضان الأسد البريطانى الرابض فى الخليج . وسواء صدقت الرواية أم لم تصدق فان مبارك الصباح لجأ بناء على اشارة شيخ البحرين الى الانكليز وطلب حمايتهم لحموه من الترك ومن ابن رشيد وبذلك انقسم أمراء العرب الى مخيمين متعاديين : أحدهما ينضوى تحت لواء الدولة بزعامة ابن رشيد والثانى ينضوى تحت لواء الانكليز بزعامة ابن صباح و بكلام أوضح حل النزاع بين الكويت وحائل بعد أن ساد بينهما الوفاق

زماناً وكان من مصلحة مبارك الاضرار بالرشيدى مهما كانت الاحوال . فاهتبل عبد العزيز بن سعود فرصة هذا النزاع وقام فى عصبة من قومه الاقربين للثأر من آل رشيد واسترجاع المجد التالد المضاع . ووفقه الله الى ما صبت اليه نفسه .

٢ — الاستيلاء على الرياض

استولى الشاب عبد العزيز على الرياض مرتين خلال مدة لاتزيد عن السنة . ولكنه اضطر لاخلائها بعد الاستيلاء عليها بمدة أربعة أشهر فى المرة الاولى الى أن تيسر له فتحها نهائياً عام ١٣١٩ هجرية (١٩٠٢ ميلادية) .

أما قيامه للاستيلاء على الرياض فى المرة الاولى فانه نشأ عن المنافسة الحادة التى كانت قائمة بين مبارك الصباح وعبد العزيز بن رشيد أمير حائل ، وكان من جراء المنافسة هذه أن مبارك جهز عام ١٣١٨ جيشاً عظيما بلغ العشرة آلاف مقاتل وسار هو على رأسه يرافقه الامام عبد الرحمن آل سعود والشاب عبد العزيز وأبناء عمومته وأقاربه من آل سعود ، فلما وصل الجيش الى الشوكى الواقعة على حافة الدهناء الغربية رأى عبد العزيز أن قيادة الجيش لاتبعث الاطمئنان الى النفوس فى ادارتها فعزم على عدم المجازفة والمغامرة بنفسه وبشباب آل سعود فاستأذن من مبارك بالذهاب الى أواسط نجد عله يستطيع افادته من تلك الناحية ضد ابن رشيد وألفى مبارك الخطة معقولة فوافق عليها . أما حملة مبارك فقد أحاق بها الفشل والخسران فى المعركة الحامية التى دارت رحاها بين قواته وقوات الرشيدى فى مكان يدعى الصريف بقرب بلدة الطرفية التابعة لبريدة فى القصيم . وأما عبد العزيز فانه احتلّ الرياض ماعدا الحصن ولكن نتائج معركة الصريف أجبرته على الانسحاب من العارض الى الكويت لانتظار فرصة أخرى يثب بها الى غرضه .

وفى العام التالى وفق بمعونة مبارك الصباح الى تأليف سرية صغيرة لايزيد عدد

أفرادها عن أربعين شخصاً من آل سعود وأتباعهم الموجودين فى الكويت وسار بها الى قلب نجد لاعادة الكرة على الرياض . قوة قليلة العدد ناقصة العدة ، تضرب فى البادية ، لامعين لها إلا الله ، فى دبرة العدو القاهر الغالب ، معتمدة على صدق العزيمة وحرارة الايمان ، مؤمنة بفوز قضية الحق وبتأييد الواحد القهار .

إن قصة هذه الحملة الصغيرة من أروع قصص البطولة ، وأعظمها شأناً وأجلها قدراً ، أربعون رجلا قليلون بأنفسهم كثيرون باعتمادهم على الله ، يعلنونها حرباً شعواء على ابن رشيد وأتباعه وأحلافه ، ويضربون فى فلوات الارض غازين محاربين . اجتمع عليهم خلق عظيم ولكنهم حينما اشتدت الازمة وضيق القائمون بالأمر فى الحسا ونجد عليهم عادوا بعد أربعة أشهر أربعين وانضم اليهم فيما بعد عشرون فصاروا ستين رجلا فتح بهم عبد العزيز بلدة الرياض وجعلها نواة مملكته ونقطة دائرتها تم له خلال الثلاثين السنة المقبلة أن يجعلها مطمح أنظار مملكة طويلة عريضة ، المملكة العربية السعودية .

طورد عبد العزيز وقومه فلجأ الى أطراف الربع الخالى الشمالية ومن هنالك تحرك فى أوائل رمضان سنة ١٣١٩ لضرب ضربته القاضية عليه أو على خصمه . فوصل أطراف الرياض بعد ذلك بشهر تقريباً وقسم فرقته ثلاثة أقسام : عشرين للاحتياط و ٣٠ للرديف و ١٠ سار على رأسهم الى مدينة الرياض نفسها ، وكان عجلان أمير الرياض من قبل الرشيدى حذراً ينام فى الحصن ليلا ويأتى الى بيته الخاص بعد صلاة الفجر ، فكمن له العشرة فى بيته الخاص منتظرين خروجه من الحصن فما كاد يخرج منه الى منزله المقابل له حتى أخرج المهاجمون روحه من بين ضلوعه واستولوا على البلدة ثم على الحصن واستعاد عبد العزيز عاصمة ملك آبائه وأجداده وشرع فى بناء السور الجديد حولها استعداداً للضربات التى كان يتوقعها من خصمه العنيد عبد العزيز الرشيد .

٣ — التوسع فى الخرج والافلاج

بعد أن ثبت عبد العزيز قدمه فى الرياض وأطرافها شرع فى استخلاص البلاد النجدية الواقعة الى جنوب الرياض فى الخرج و الافلاج و الحوطة و وادى الدواسر ورفع السيطرة الرشيدية عنها .

جاء عبد العزيز بن رشيد بعد أن بدا له من سميه السعودى ما بدا لضرب الرياض ضربة قاضية فوقع فى شرك نصبه له عبد العزيز بانسحابه من الرياض وترك والده الامام عبد الرحمن فيها وأذيع أن ابن سعود خائف من ابن رشيد وأنه هرب من وجهه الى الجهات الجنوبية فان هجم ابن الرشيد على الرياض صمد له فيها الامام عبد الرحمن وأهلها الى أن تصل الامدادات من الجنوب وإن تركها وهجم الى الجنوب وقع فى الشرك الآخر المنصوب له فاختار الشرك الثانى وحاد عن الرياض فى شهر ربيع الاول من عام ١٣٢٠ هـ .

حصلت الواقعة فى نخيل بلدة الدلم عاصمة الخرج وكانت شديدة الوطأة على ابن رشيد وجماعته فرحل عن الدلم وقصد السليمية فى الجنوب ولكنه أخرج منها أيضاً ثم رحل الى الشمال تاركا بلدان الجنوب الى خصمه ابن السعود .

٤ — الاستيلاء على سدير و الوشم والمحمل و القصيم

فى السنة المقبلة (١٣٢١ هـ) استنصر مبارك الصباح حليفه ابن السعود لصد عادية عبد العزيز بن رشيد عن الكويت ، فلبى عبد العزيز الدعوة وقدم الكويت بازعاً ثم خرج منها مع جابر بن مبارك على رأس قوة عظيمة من الجند قاصدين ابن رشيد فلما وصلت القوه الى طوال الظفير بلغ ابن سعود أن ابن رشيد ينوى مهاجمة الرياض وأنه توجه اليها فعلا . قاوم أهل الرياض هجمة الغازى بشدة فرحل

عنها خائباً لاسيا لانه سمع بقدوم عبد العزيز بن سعود للقصيم لاحتلاله وتوجه ابن رشيد الى الوشم لمنع سرية للامام عبدالرحمن من الاستيلاء على شقرا مثلما استولت على المحمل والشعيب ، عاد عبد العزيز بن سعود خلال هذه الفترة الى الرياض وعلم بأن ابن رشيد محاصر شقرا التى كانت سرية الامام احتلتها فسارع الى نجدتها وفك الحصار عنها .

تعاقبت الحوادث بسرعة فانسحب ابن رشيد من الوشم وسدير والمحمل نهائياً واستولى ابن سعود عليها — ماعدا بلدة المجمعة بقرب الزلفى — .

وفى أواخر شهر ذى الحجة عام ١٣٢١ هـ عزم ابن سعود على استخلاص القصيم وسار من الرياض بقوة كبيرة فوصل الى مكان بقرب بلدة عنيزة التى كانت فيها سرية لابن رشيد بقيادة قائد من السبهان وفيها أيضاً آل بسام واليحيا مع ابن رشيد فاستولى ابن سعود على عنيزة وأمّر عليها آل سليم وظلت عنيزة وظل آل سليم مخلصين لابن سعود منذ ذلك اليوم .

وفى هذه الوقعة انهزم ماجد بن رشيد وقتل فهيد السبهان وأسر ابن سعود أبناء عمه الذين كانوا فى حائل وخلصهم من القتل وعُرفوا منذ ذلك الوقت بالعرائف .

وتم فتح عنيزة فى خامس محرم سنة ١٣٢٨ وفتح بريدة عاصمة القصيم فى ١٥ ربيع الاول وأصبح القصيم كله تابعاً لابن سعود .

٥ — القصيم بين ابن سعود والحكومة العثمانية وابن رشيد

لم يثر احتلال ابن السعود للرياض وبلاد نجد الجنوبية اهتمام الدولة العثمانية كما أن مبارك الصباح لم يبال به ولكن احتلال القصيم وامتداد سلطان ابن سعود وتعاظم شأنه أثار فى الحكومة العثمانية وفى ابن صباح كوامن القلق الشديد . أما مبارك فلجأ الى الحيلة والوقيعة ، وأما الحكومة العثمانية فانها عضدت ابن رشيد

خصم ابن سعود وشدت أزره بالمال والجند والذخيرة وأمدته بقوة عسكرية مشت من السماوة ووصلت الى القصيم مع ابن رشيد فى أواخر ربيع الاول عام ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) فالتقت بقوات ابن سعود فى البكيرية بقرب بريدة وحصلت بين الجانبين ملحمة كبيرة قتل فيها أكثر من الف من جنود الدولة ومثل ذلك من أتباع ابن سعود وعدد كبير من أتباع ابن رشيد وقتل فيها أيضا اثنان من كبار الرشيد ماجد بن حمود وعبد العزيز الجبر . وحصلت فى البكيرية واقعة أخرى بعد ذلك ببرهة قصيرة بين الجانبين كان النصر فيها بجانب ابن سعود فاستولى على البكيرية وطارد قوات شمر والدولة الى الخبرا ومنها الى الرس وظلت المناوشات بين الفريقين مدة أربعة أشهر الى أن حصلت معركة كبيرة فى الشنانة كسرت فيها قوات ابن الرشيد والدولة فى ١٨ رجب ١٣٢٢ (سبتمبر ١٩٠٤) وغنم فيها أهل نجد غنائم عظيمة جداً .

فلما رأت الدولة كسيرتها استعظمت شأن ابن سعود وشرعت فى مفاوضته لحل المشكلة بينه وبين ابن رشيد سلما وقد اقترح والى البصرة فخرى باشا على الامام عبد الرحمن حينما اجتمعا للمفاوضة بقرب الزبير أن تجعل القصيم منطقة محايدة بين ابن سعود وابن رشيد وأن يكون فيها حامية للدولة ويكون لابن سعود قائم مقام عليها فلم يوافق الامام على ذلك ورجع بالاقتراح الى نجد فلم يقبل به إلا بعض آل مهنا من بريدة . غير أن الدولة أرادت تنفيذ خطتها مهما كلفها الأمر فأنفذت قوة كبيرة بقيادة المشير احمد فيضى باشا عن طريق العراق وأردفتها بقوة أخرى من المدينة المنورة بقيادة صدقى باشا .

اختلف فيضى باشا فى الرأى مع ابن رشيد فان الاخير أراد حل القضية باستعمال القوة والعنف حالة كون الأول يريد السلم وينشد حلها عن طريقة المفاوضة والمسالمة . فحنق ابن رشيد على الباشا وتركه وشأنه .

تم الاتفاق على أن يجتمع الامام عبد الرحمن بالمشير فى بلدة عنيزة لاتمام عملهما

السلمى فاجتمعا و تفاوضا وكانا على وشك الوصول الى اتفاق متوسط يصبح ابن سعود فيه قائمقاما على القصيم ويكون للدولة مركزان عسكريان أحدهما فى بريدة وثانيهما فى عنيزة . ولكن فيضى باشا غادر القصيم قبل أن يتمكن من ابرام الاتفاق لاضطراره الى الرحيل الى المدينة فاليمن لفك الحصار عن جيوش الدولة فى صنعاء وترك الامر الى صدقى باشا الذى لم تكن له المؤهلات التى تمكنه من اتمام القضية فوقف موقف المتفرج منتظراً ما تأتى به الحوادث المقبلة بين السعودى والرشيدى .

انسحب عبد العزيز بن سعود من القصيم بعد سفر فيضى باشا وسار لنجدة ابن ثانى فى قطر فدب دبيب الخلاف بين أهل القصيم وأصبحوا فرقاً وشيعاً كان قسم منهم يريد ابن سعود وهو الاعظم وقسم منهم يريد الدولة والقسم الثالث يريد ابن رشيد .

فلما اتصل بابن رشيد خبر ابتعاد ابن سعود عن نجد وسفره الى قطر أرسل بسرية الى الرس فاحتلها و تقدمت الى بريدة فقابلها أهل القصيم غير أنهم علموا ضعفهم فى جانب قوة خصمهم ابن رشيد فاستنجدوا بابن سعود فأمدهم بحملة قادها بنفسه فى أوائل محرم عام ١٣٢٤ هـ (مارس ١٩٠٦ م) وصل ابن سعود الى مكان قريب من الزلفى فعلم أن ابن رشيد مقيم فى روضة مهنا فحمل عليه ليلة ١٨ صفر (١٤ ابريل) فتفرقت قوة ابن رشيد وقتل الامير عبد العزيز بن رشيد نفسه و تولى متعب بن عبد العزيز الرشيد الامارة فى حائل بعد أبيه فرأى الخير فى الصلح مع ابن سعود ففاوضه و عقد معه اتفاقا تنازل بموجبه عن حقوقه فى القصيم وسائر بلاد نجد . مقابل اعتراف ابن سعود له بالامارة على حائل وأطرافها وعلى كافة شمر .

أراد القائد صدقى باشا أن ينصاع الى الحاج صالح بن مهنا و تحريضه لاحتلال

بريدة فلم توافقه الدولة على ذلك وأبدلته بالقائد سامى باشا الفاروقى الذى قدم على رأس جيش من المدينة فوصل الى قرب حائل وفاوض ابن رشيد على أن تكون القصيم للدولة وتوجه الباشا من الجبل الى الشيحية على الطريق بين حائل وبريدة واجتمع بعبد العزيز بن سعود فى البكيرية فلم يقبل ابن سعود باقتراح الباشا وافترقا على خصام .

وفى أوائل شوال عام ١٣٢٤ (١٩٠٦) أرسل ابن سعود انذاراً أخيراً الى سامى باشا بأن أهل البلاد لا يريدون الاتراك ولا يقبلون بهم وان عليه الانسحاب فوراً وخيره بين الحرب والرحيل فقرر الباشا الرحيل وتعهد ابن سعود بترحيل جيش العراق الى العراق وجيش الحجاز الى المدينة وشرع كل فريق فى انفاذ ما يخصه من التعهد فوراً ، وتم لابن سعود السيادة على القصيم بدون منازع وطويت صحيفة آل عثمان منها كما طويت صحيفة آل رشيد من قبل .

٦ — الرشيد وابا الخيل والعرائف والهزازنة

لم يسترح عبد العزيز بن سعود بعد ذلك طويلا . فان متعب الرشيد قتل غدراً بسيوف سلطان واخوته من آل عبيد وأصبح أمر الاتفاق الذى وضع لتحديد سلطة آل سعود وآل رشيد معلقاً على ميول سلطان الرشيد . واتفق فيصل الدويش كبير مطير ونائف المذال كبير العمارات من عنزة ومحمد أبا الخيل أمير بريدة الذى أثبته ابن سعود عليها مع سلطان بن رشيد على مقاومة ابن سعود ، وانضم اليهم فيما بعد مبارك الصباح . فشرع عبد العزيز فى تأديبهم واحداً واحداً : ضرب الدويش قبل الجميع فى جهات سدير وقصد أبا الخيل فى بريدة فوجد عنده سلطان ابن رشيد بقوة شمر المدافعة عنه ، فتقابل الجيش السعودى والرشيدى فى الطرفية فى شعبان سنة ١٣٢٥ (سبتمبر سنة ١٩٠٧) وكان النصر فيها حليف ابن سعود مع انه كان

قد كبت به فرسه وكسر عظم كتفه الايسر وفر ابن رشيد الى حائل وفر أبا الخيل الى بريدة .

وفى العام المقبل توجه ابن سعود من نجد الى الجبل لضرب ابن رشيد فى عاصمته ولكنه عاد عنه بعد ان جدد معه عهد الصلح الذى وضع أيام متعب بن رشيد . فلما تم ذلك وأمن عبد العزيز جانب ابن رشيد سار لقتال أبا الخيل وأهل بريدة المنشقين عليه فوصل الى بريدة فى أواخر ربيع الثانى عام ١٣٢٦ ﻫ (مايو ١٩٠٨ م) وتمكن منها بواسطة بعض المقربين ففتحوا له الابواب وقت صلاة العشاء فدخلها فاتحاً للمرة الثالثة وعزل محمد أبا الخيل عنها فرحل الى العراق وعين عبد العزيز الاميرُ عبد الله بن جلوى أمير الحسا الحالى أميراً على القصيم كله .

وفى هذا العام قتل سعود بن عبيد بن رشيد أخاه الامير سلطان فى حائل وارتقى كرسى الحكم عوضاً عنه ، وصالح عبد العزيز بن سعود على ما صالح أخوه عليه من قبل . ولكنه قتل بعد سنة وبضعة أشهر فتجددت الاضطرابات ونقض العهد وعادت الفتنة بين آل سعود وآل رشيد الى سابق عهدها .

وفى العام المقبل ١٣٢٧ ﻫ (١٩٠٩ م) حصلت فتنة الهزازنة فى الحريق وهؤلاء ينتسبون الى عنزة فهم من أقارب آل سعود ، كانوا مقيمين فى الحريق ولهم فيها نفوذ ووجاهة فاختلفوا مع آل ختلان ووقعت حوادث قتل فيها أناس من الجانبين فتدخلت الرياض لفض المشكل فلم يقبل الهزازنة بذلك فجرد ابن سعود على الهزازنة وسار من الرياض الى الحريق بقوة قليلة فوجد الهزازنة محاصرين فى قلعتهم . وفتقت له قريحته عن عمل حربى جليل فحفر نفقاً الى الحصن وهدد المحاصرين بنسفه ان لم يرضخوا فاستسلموا عن يد وهم صاغرون فنقلهم الظافر الى الرياض وأحلهم فيها ضيوفاً مكرمين .

ولكنهم بعد مدة نالوا عفو عبد العزيز وأذن لهم بناء على توسط أمير قطر ،

بالعودة الى ديرتهم فعادوا اليها ليثوروا مرة أخرى أيام فتنة العرائف من آل سعود في العام التالى (١٣٢٨ هـ) فذهبوا ضحية غدرهم واحتزت رؤوس أكثرهم ولم يعفُ عبد العزيز الا عن راشد المزانى الذى فر بعد ذلك الى الحجاز وحارب ابن سعود ثم فر بولده من مخيم الشريف الى ابن سعود فى أثناء حصار جدة .

وما كادت فتنة المزازنة الاولى تنتهى حتى ذر قرن فتنة العرائف من آل سعود . وهم أبناء سعود بن فيصل الذين كانوا فى حائل وجاءوا فى جيش ماجد بن حمود الرشيد يوم فتح عنيزة فوقعوا فى اسر ابن عمهم فأكرمهم وجعلهم فى مقام الاعزاز والاكرام . غير انهم كانوا يطمعون فى الحكم ، فشرعوا يدسون الدسائس لنوال مأربهم وأخيراً رحلوا الى الحسا ونزلوا على أخوالهم من العجمان ثم رحلوا من الحسا الى الخرج والافلاج و الحريق واتفقوا مع المزازنة على الفتنة واستولى أحدهم على بلدة السيح فى الوادى وأصبحوا خطراً عظيما يهدد كيان عبد العزيز بن سعود فى الصميم فجهز عليهم حملة قادها بنفسه واحتل الحريق وأسر فيها المزازنة وقتلهم كما ذكرنا وخير ابن عمه سعود بن عبد الله بالبقاء عنده أو اللحاق باخوانه فأقام عنده . ورحل العرائف الى الحجاز فأكرم الشريف حسين مثواهم وقربهم اليه على أمل الاستفادة منهم فى موقفه مع ابن سعود .

قبل ذهاب عبد العزيز لتأديب العرائف حصل ان الشريف حسين بن على تقدم بموافقة الحكومة العثمانية عام ١٣٢٨ (١٩١٠) الى نجد ونزل القويعية وتوجه منها الى شعرا الى أن وصل القصيم وكان قد أسر بخيانة بعض العتبان سعد بن عبد الرحمن شقيق عبد العزيز بن سعود وتم الصلح بينهما على النحو الذى أشرنا اليـه فى النبذة الخاصة بالشريف حسين .

٧ — الاستيلاء على الحسا

الاسباب التى استعجلت عبد العزيز بن سعود فى فتح الحسا كثيرة : منها ان تركى بن عبد الله من العرائف الذين نجوا يوم وقعة الحريق جاء الى أخواله العجمان يحرضهم على ابن سعود ، ومنها ان الشريف حسين فى الحجاز ضيق على أهل نجد وعلى تجارتهم بواسطة الحجاز ، ومنها ان القبائل المعادية لابن سعود كانت تعرقل سير قوافله من نجد الى الكويت وتعتدى عليها ثم تلجأ الى الحسا ، ومنها ان الدولة اتخذت الحسا قاعدة لاعمالها السياسية والحربية فى الجزيرة ، ومنها بل وأهمها طمع ابن سعود فى الاستيلاء على مايمكنه الاستيلاء عليه من أملاك الدولة ووضعه تحت سيطرته لتحقيق أمنيته التى كتب عنها الى الحكومة العثمانية فى ذلك الوقت بواسطة والى البصرة وهى ايجاد ولايات عربية مستقلة فى داخليتها ضمن السلطنة العثمانية وتحت نفوذها .(١)

خرج عبد العزيز من الرياض فى ربيع الثانى من عام ١٣٣١ (١٩١٣ م) قاصدا الحسا فنزل على ماء الخفس الواقع على حافة جبال العرمة وترك معظم الجيش فيها وذهب الى الحسا ليستطلع أخبار الدولة وقوتها ويرسم خطته عن كثب . وحينما سأله الترك عن سبب مجيئه اعتذر بمشترى الارزاق منها وعاد الى الخفس فالرياض لاخفاء حقيقةماينويه .

وفى ليلة الخامس من جمادى الاولى (١٣ ابريل ١٩١٣) تسلق بعض رجاله سور الكوت فى الحسا ورموا بالحبال لرفاقهم حتى أصبح عددهم كافياً للقيام بالعمل الذى كلفوا به .

وكانت هذه المجازفة الخطرة من جملة المجازفات العديدة التى أتاها عبد العزيز فى حياته وهو رابط الجأش شديد اليقين . تكاثر رجال ابن سعود داخل الكوت

(١) انظر كتاب ابن سعود الى والى البصرة فى تاريخ نجد الحديث للريحانى ص ١٨٢

وصاحوا بصوت واحد ان البلد دخلت فى حكم ابن سعود فلجأ الجند العثمانى الى قلاعه وفى اليوم التالى سلمت الحامية بأجمعها فأرسلها عبد العزيز الى العقير ومنها الى البحرين وتم برحيلها استيلاء ابن سعود على منطقة من أغنى المناطق فى البلاد العربية .

وأرسل سرية الى واحة القطيف فاحتلتها وفر الجنود العثمانيون منها وأصبحت مملكة ابن سعود ممتدة من الكويت شمالا الى قطر جنوبا - مسافة تزيد عن ٤٠٠ كيلومترا ، ومن الخليج الفارسى الى الحجاز . وبات عبد العزيز متصلا بالعالم الخارجى رأساً فتبدل موقفه كما تبدل موقف الخليج اجمالا بدخول هذا العنصر الجديد فى حياته السياسية .

وأرادت الحكومة العثمانية أن تستثمر موقف عبد العزيز بن سعود ففاوضه الوالى العثمانى فى البصرة بواسطة طالب النقيب ، وبالرغم عن دسائس مبارك الصباح عقدت بين الجانبين اتفاقية اعترفت الحكومة فيها بالامير عبد العزيز بن سعود والياً لنجد ومتصرفا للحسا وأهدته وساما رفيع الشان مع رتبة الوزارة .

٨ — الاخوان وتأسيس الهجر

لامراء فى ان الدعوة السلفية التى قام بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، وجدت مرتعاً خصباً بين البادية فى نجد وأطرافه ؛ ولا شك فى ان كثيرين أقبلوا على الدعوة عن عقيدة صالحة ونية طاهرة . الا ان داء البداوة المستعصى كائن فى شيء آخر غير اهمال نواهي الدين ، انه كائن فى طبيعة معاشهم وما هم عليه من ترحال وتجوال ، لاوطن يحنون اليه ولا ملك ثابت يخشون ضياعه ، فهم بهذا الاعتبار قوم تتناذفهم الاهواء والمنافع ، ولا يمكن الاعتماد عليهم فى تأسيس ملك دائم ، وهم على حد قول الشاعر :

يوماً يمان اذا لاقيت ذا يمن ... وان لقيت معدّيا فعدنانى

فلما وفق الله الملك عبد العزيز بن سعود الى ماوفقه اليه ، من بسطة فى الملك وقوة فى السلطان ، ورأى حال أهل البادية وما هم عليه من تقلب وتذبذب فى عقيدتهم ومعاشهم وصدقهم وعدائهم ، نشر بينهم الدعاة والمرشدين يهدونهم الى سواء السبيل فكان له ماأراد . غير انهم مع ذلك مافتئوا عنصر قلق وعدم استقرار . ففكر فى طريقة مثلى هى من أجل أعمال الاصلاح الاجتماعى والدينى ، يخلص بها هؤلاء البدو من معيشتهم الشاقة ويخفف من حدة الجدال الدائم ، القائم بينهم لاستحصال الكفاف من القوت والتنازع فى الحياة الدنيا ، ووجد العلاج فى الدين أولا وفى حياة الاستقرار ثانياً .

أرشدهم بالدين الى واجباتهم الدينية نحو الخالق ، ونحو اخوانهم فى البشرية وبنى لهم القرى لينتقلوا اليها من حياة البادية المتنقلة ودعاهم الى حياة الهجر . فمن ترك حياة البدو الرحل الى حياة الهجر يكون قد هاجر من الجهل الى النور ، ومن حياة الرعى الى حياة الزراعة والفلاحة ، ومن حياة التنقل والسفر الى حياة السكون والاستقرار .

أنشئت الهجرة الاولى على آبار الارطاوية الواقعة على الطريق بين الزلفى والكويت عام ١٣٣٠ ه (١٩١٢ م) وسكنها سعد بن مثيب من حرب ثم أعطيت لفيصل الدويش وجماعته من مطير وأصبحت خلال بضع سنوات مدينة عامرة فيها من السكان ما يزيد عن العشرين الف .

وتلى انشاء هجرة الارطاوية حركة عامة بين البدو لترك حياتهم البدوية والسكنى فى قرى جديدة كانوا ينشئونها بمعونة بيت مال المسلمين : تحفر البئر ، ويبنى المسجد الذى هو مجتمع القرية ومدرستها ، وتبنى البيوت بسرعة .

وكانت أول هجرة البدو من بداوتهم الى دار الهجرة ، هجرة دينية محضة فباعوا الابل وأهملوا أمرها وشرعوا فى دراسة الدين ، فغصت المساجد بهم .

فأصدر العلماء فتوى شرعية بضرورة العمل للكسب من التجارة والزراعة فأقبل أهل الهجر عليها وقد دعوا أنفسهم « الاخوان » دلالة على رفع الفروق من بينهم وصيرورتهم اخواناً فى الله بعد ان كانوا بالأمس أعداء ألداء .

ذكر الريحانى فى تاريخ نجد الحديث لائحة الهجر وعدد الذين يلبون الجهاد منها فكانت ٧٢ هجرة لمختلف القبائل النجدية إلا أن هذا العدد أقل بكثير من عدد الهجر الحقيق . فقد ورد فى كشف الهجر التى حضر مندوبوها إجتماع الجمعية العمومية التى عقدت فى الرياض فى جمادى الاولى عام ١٣٤٧ اسم ١٢٢ هجرة .

الهجر من حيث الحرب والسياسة معسكرات منتشرة فى أنحاء البادية ، والاخوان جنود هذه المعسكرات يسيرون بأمر القائد الاعظم عبد العزيز بن سعود فى أى وقت شاء .

والهجر من حيث الدين مساجد غاصة بأهلها ممن تركوا الخرافات والبدع وعادات الجاهلية وعُرف البوادى وانقلبوا إلى الحياة الدينية الوادعة، حياة الطهارة والعفاف ، والفضيلة والايمان .

والهجر من حيث العمران والاجتماع ، مباآت أوجدها العمران لنقل البدوى المنتقل من حياة الراعى والصياد ، إلى حياة الزراع المستقر ، وهى الخطوة الاولى فى العمران البشرى ، والحياة المدنية الدائمة .

٩ — موقف ابن سعود فى الحرب العمومية

كان موقف ابن سعود غداة اعلان الحرب العمومية ، موقف القلق الذى لا يعلم أى طريق يسلك . كان موقفه تجاه الترك موقف المسالم الراغب فى ادامة التفاهم الذى تم فى العام السابق لاعلان الحرب . إلا أن الاتراك حالفوا خصمه ابن رشيد وقدموا له الاعانات المالية والحربية ، ورضوا عن أعمال الشريف حسين فى الحجاز وتوسعه فى نجد . وصديق عدوك ، عدوك أيضاً . ارسل إلى أمراء العرب يسألهم

الاجتماع على توحيد خططهم فلم تسفر دعوته عن شيء وانقطعت تجارة نجد مع سائر الاقطار العثمانية نظراً لوقوع ابن رشيد فى شماليه والحسين فى غربيه ، واحتل الانكليز البصرة ، وكانت الكويت تحت حمايتهم . فلم يبق لنجد منفذ الا ساحل الخليج وهنالك ملكة البحار واقفة بالمرصاد .

أرسل الانكليز الكابتن شكسبير فى مطلع الحرب الى بلاط ابن سعود لتحريضه على الدولة العثمانية ، فلم يقبل بحربها ووقف على الحياد تجاهها ولم يتعرض للشريف حسين فى الحجاز ولا للقوة العثمانية فى عسير واليمن ولم يعترض مسير الرسل من الشمال الى اليمن لنقل الاموال والمخابرات عن طريق بلاده . ولكنه كان مضطرباً من شيء واحد هو غدر ابن رشيد ونكثه العهد واستعداده لحربه بمعونة الدولة . ابن رشيد عدو ابن سعود وحليف الدولة ، والانكليز أعداء الدولة وأصدقاء ابن سعود ، فاجتمعت المصلحة على قتال ابن رشيد والتقى الجيشان فى ربيع الاول عام ١٣٣٣ هـ (يناير ١٩١٥) فى جراب وكانت المعركة شديدة أسفرت عن انكسار الجانبين دون أن يفوز أحدهما بطائل وقتل الانكليزى شكسبير فى المعركة .

ثار العجمان ، أهم قبائل الحسا وأشدها مراساً ، على ابن سعود فى هذا العام وقتلوا أخاه سعداً فجرد عليهم جمعاً كبيراً ، واستنصر بابن صباح فامده بعدد قليل من المحاربين ولكنه خانه وسط الطريق واتفق مع العجمان . وقبل أن يضرب ابن سعود العجمان نهائياً قدم السر برسى كوكس المقيم البريطانى فى الخليج الفارسى الى القطيف وطلب مقابلة ابن سعود لامور هامة . فاجتمعا فى جزيرة دارين المقابلة للقطيف ووقعا على معاهدة جائرة بين الجانبين فى ديسمبر ١٩١٥ ومع أن قيمتها سقطت قبل إلغائها بسنوات عديدة فانها لم تلغ الا بعد فتح الحجاز وعقد معاهدة الصداقة وحسن التفاهم فى مايو من عام ١٩٢٧ .

وكان موقف ابن سعود من الشريف حسين ، موقف الحذر والريبة . فانه لم يكن جاهلا بمطامع الشريف فى توسيع حدود شرافته ، ولا بالطرق التى توسل بها

للوصول الى أغراضه . لأن الشريف وحاسنه القول ولكن الحسين خدع بعهوده مع السرهنرى مكماهون فظن أن تلك العهود اولته حق ملك أمراء العرب ووضعهم تحت سيطرته و نفوذه ولم يعلم أن الانكليز كانوا قبل ان عقدوا اتفاقهم معه ، قد عقدوا اتفاقين اثنين أحدهما مع الادريسي وثانيهما مع ابن سعود ، وضمنوا لهما استقلالهما ومنع التعدى عليهما . فمن الضرورى اذن ان يقابل سعى الحسين لبسط سيطرته على ابن سعود ، بالاعتراض ، وأن يمنع من التمتع بلقب ملك العرب الذى أعلنه لنفسه . وأن يعلم أنه لابد من تحديد حدود صريحة بين مملكته الحجازية و بين جيرانه .

بعد رفع الشريف حسين علم الثورة على الدولة فى شعبان ١٣٣٦ (يونيو ١٩١٦) أرسل الى ابن سعود هدايا ومنحا مالية لم يقدر ابن سعود أن يتفهم الداعى لها . فكتب الى الحسين من أجل تحديد الحدود بين الحجاز و نجد فغضب الحسين لذلك غضباً شديداً . لأنه كان يعتقد أن نجداً له بموجب عهوده مع الانكليز وان ابن سعود من رجاله . وقد طلب ابن سعود من الانكليز تعيين موقف حليفهم الحسين فتعهدوا له أولا بعدم تدخله فى شؤون نجد ، ثانياً بعدم التكلم بلسان العرب عموماً . ولم يفلح الانكليز فى مسعاهم للتوفيق بين الاثنين ، وجل ما أمكنهم عمله منع أحدهما من الاعتداء على الآخر .

وفى أواخر عام ١٩١٧ أوفدت بريطانيا الى بلاط ابن سعود وفداً مؤلفاً من ثلاثة أعضاء لمفاوضته فى ثلاثة أمور مهمة : الاول الاصلاح بينه و بين الحسين ، الثانى استنهاضه على ابن رشيد وأحلافه من العشائر العراقية ، والثالث التشديد فى مراقبة تهريب الارزاق والمؤون والذخائر من طريق الخليج الفارسى والكويت الى البلاد العثمانية . وانشطر الوفد الى قسمين قسم عاد الى الكويت وقسم آخر قدم

بطريق البادية الى الحجاز لاتمام الغرض الاول من أغراض البعثة فلم ينجح فى مهمته ولم يقبل الحسين بالتفاهم .

أرسل الانكليز بعد ذلك المستر فلبى مرة أخرى الى ابن سعود لتحريضه على حرب ابن رشيد ، وكان ابن سعود فى هذه المدة قد تعاهد مع مشايخ شمر على بعض الشروط على أن يعرضوها على ابن رشيد فان قبلها حل الاشكال والا فالحرب بينهما لا بد منها . ولكن ابن رشيد رفض الشروط فزحف ابن سعود فى أواخر صيف عام ١٩١٨ الى الجبل وحارب ابن رشيد أمام حائل وانتصر على جموعه ولم ير فى حصاره حائل فائدة فتركها وقفل الى الرياض .

وفى هذه الاثناء وردت الأخبار بانتهاء الحرب العمومية عن انهزام دول الوسط وعن عقد الهدنة والشروع فى مفاوضات الصلح فتوقفت الحركات الحربية فى البلاد العربية أيضاً .

١٠ — احتلال تربة والخرمة

تَرَبة والخُرمة واحتان واقعتان الى الشرق من الطائف وراء جبل حَضَن فى وادى سبيع يقطنهما أفراد من سبيع والبقوم وبعض عتيبة والاشراف . والسيادة فى كليهما بيد الاشراف العبادلة وكان أهلهما من أيام حكومة آل سعود الاولى قبلوا الدعوة الاصلاحية السلفية وظلوا يحسبون آل سعود حكامهم وأئمتهم . غير أن الشريف حسين اتخذ وجود الاشراف فيهما حجة للادعاء بتبعيتهما للحجاز . فنشأ عن اختلاف وجهتى النظر تنافس شديد سعى حلفاء ابن سعود والشريف أيام الحرب العمومية لحله بالحسنى فوفقوا لتسكينه مؤقتاً .

الا أن الشريف حسين جهز فى آخر سنوات الحرب العمومية قوة بقيادة عبد الله بن حمزة الفعر لاحتلالها فرد الاهالى الحملة وكسروها ، فأرسل الشريف حملة

أخرى وكان فيها الشريف شاكر بن زيد بعد ذلك بشهور ولكنها لم تفز بطائل وجاءت القوة ، للمرة الثالثة أيضاً ، فلم يكن نصيبها أحسن من نصيبها في المرتين السابقتين .

فلما بلغت أخبار هجمات القوات الشريفية الى ابن سعود واستغاث به أهلها للدفاع عنهم ، كان يعد معداته لغزو حائل – كما وضحنا في النبذة السابقة – فأخبر الانكليز بأنه لا يقدر أن يهاجم ابن رشيد بينما أن رعاياه يهاجَمون ويطلبون المدد منه . فتعهد الانكليز بحمل الشريف حسين على عدم التعرض للواحتين الى أن تنتهى الحرب فتحل القضية سلماً .

فلما انتهت الحرب بانكسار دول الوسط واستسلم فخرى باشا في المدينة المنورة للامير عبد الله بن الحسين ، صدر الامر من الحسين الى ولده عبد الله بالهجوم على تربة والخرمة لتأديب أهلهما واحتلالهما عنوة . ولم تجد احتجاجات ابن سعود شيئاً ، فتقدمت القوة من عشيرة الى البديّع في سفح حضَن وكانت مؤلفة من أكبر عدد تمكنت الحكومة الشريفية من جمعه تحت لوائها ، ومجهزة بالمعدات الحديثة المأخوذة من مستودعات فخرى باشا بالمدينة يقودها ضباط عديدون من خيرة ضباط العرب .

وصل الامير عبد الله الى ترَبة يوم ٢٤ شعبان ١٣٣٧ (٢٤ مايو سنة ١٩١٩) واحتلها بدون قتال وأرسل يدعو القبائل للاستسلام وتقديم الطاعة ، ودعا أهل رنية للتسليم أيضاً وحذرهم من التورط في الوقوف أمامه .

وكان أهل الواحات قد تركوا الديرة وعلى رأسهم خالد بن لؤى منتظرين ما يأتيهم من ابن سعود الذى لم يأذن لهم بالحرب إلا اذا اعتُدى عليهم لا سيما لأن الانكليز أنذروه بعدم التعرض للشريف ، وكان بعض الاخوان من عتيبة بقيادة

سلطان بن بجاد كبير هجرة الغطغط فازعين لاخوانهم أهل تربة والخرمة ، فتجسسوا على الامير عبد الله ومواقع جيشه وهاجموه فى الليل البهيم (٢٥ شعبان ١٣٣٧) . اصبح الصباح فاذا بالقوات الهاشمية ممزقة واذا بالامير القائد قد فرّ سالماً برأسه من المعركة قبل احتدامها واذا بالارض مكسوّة بأشلاء القتلى وجثث الجاريح واذا بالخيم المنصور قد استولى الاخوان عليه وغنموا ما فيه من أسلحة ومعدات وذخائر .

وكانت نتائج هذه المعركة الفاصلة وخيمة على حكومة الحسين ، لانها أفقدتها القوة العظيمة التى كانت لها ووسعت شقة الخلاف بين نجد والحجاز .

١١ — احتلال بلاد ابن رشيد

ذكرنا فى النبذة التاسعة من هذا الفصل أن الحركات الحربية التى قام بها الملك عبد العزيز على حائل انتهت برجوعه عنها وتفاهمه مع ابن رشيد على وقف القتال والصلح ، إلا أن ابن رشيد رأى نفسه بعد زوال سيطرة الحكومة العثمانية تجاه موقف جديد كان فيه وحيداً منعزلا ، فحاول أن يثبت مركزه بمراجعات مختلفة للسلطات البريطانية فى العراق وللحسين فى الحجاز . ولا يخفى أن موقف الحسين وابن رشيد زمن الحرب كان موقفاً عدائياً الا أن اشتراكهما فى عداء عدوّ واحد هو ابن سعود ، جعل من عدائهما صفاء وخلق من تجافيهما توادداً . وقضت معركة تربة على الحسين بشد أزر ابن رشيد وإمداده بالعتاد والاموال وبالتأييد الادبى فانقاد ابن رشيد للحسين وعزم على نقض عهده مع ابن سعود وجرد حملة من أجل ذلك الغرض . إلا أنه وقع بين رؤساء شمر اختلاف أدى الى احجام سعود الرشيد عن الاقدام على ما عزم عليه من نقض العهد وتجديد الحرب مع ابن سعود ، ووجد عذراً يعتذر به لدى الملك حسين بظهور فتنة فى وادى السرحان والجوف وضرورة

معالجتها . فعوضا عن الذهاب لحرب ابن سعود فى الجنوب ، سار لحرب الرولا وابن شعلان فى الشمال . وتمكن ابن رشيد من احتلال الجوف والحاقه بحائل عام ١٣٣٨ هـ (١٩١٩ — ١٩٢٠ م) .

ولكنه بعد عودته منتصراً الى حائل قتله ابن عمه عبد الله بن طلال ثم قتل ابن طلال ونصب عبد الله المتعب أميراً . فكان أول عمل قام به ارساله الرسل الى ابن سعود فى الرياض يطلب تجديد العهد والصلح ، ولكن مسعاه لم يثمر الثمرة المطلوبة لان الملك عبد العزيز اشترط شروطاً لم ترق فى عيون المتزعمين من الرشيد والسبهان وعبيد القصر فكان لا بد من الاشتباك فى القتال مرة أخرى .

أما شروط الملك عبد العزيز ، فقد أملتها عليه التجربة ، وحتمتها الضرورة القصوى ، فانه رأى النفوذ فى حائل فى أيدى نساء القصر ، وعبيده وبعض المتزعمين الطامعين فى الاستفادات المادية ، وكل هؤلاء لا يركن اليهم فى تسيير دفة الامور ولا سيما الخارجية على الوجه الذى يكون أميناً فيه على نفسه وبلاده . وقدشاهد من حركات شمر مارابه جداً . فانهم أرادوا أو أرادوهم على مخالفة الحسين ضد أهل نجد ، وعلى مفاوضة الانكليز فى العراق والاتفاق معهم على أمور ليست من مصلحة نجد وعلى التفاهم مع ابن صباح ضد أهل نجد أيضاً ، فلم يجد عبد العزيز بداً من أن يضمن شروطه شرطاً قاسياً مؤداه تنازل أمير حائل عن النظر فى علاقات شمر مع جيرانهم وهذا الشرط قضى على مسعى الصلح المشار اليه .

حدث فى هذه الاثناء اختلاف بين ابن سعود والشيخ سالم الصباح على موضعين بقرب الحدود أحدهما بَلْبُول والثانى قَرَية وأراد سالم احتلال هجرة قرية التابعة لمطير ، إلا أن الاخوان بقيادة فيصل الدويش تغلبوا على قوات الكويت بقرب قرية ونهبوا أموالها ، فعرض ابن سعود على الشيخ سالم اعادة المنهوبات ولكنه رفض العرض وتجهز للقتال ، واستنجد بحائل فأمدته بقوات من شمر برأسها ضارى

ابن طواله ، غير أن الاخوان تمكنوا من التغلب على القوة الكويتية واحتلوا الجهرى وحاصروا الشيخ سالم حصاراً شديداً ولكنهم عادوا عن الكويت فى أواخر المحرم عام ١٣٣٩ هـ .

وقضت السياسة الدولية آنئذ بأن تقوم فى أطراف البلاد العربية حكومات هاشمية فى الحجاز وشرق الأردن والعراق أحاطت ببلاد ابن سعود من كل جانب احاطة السوار بالمعصم ، فخشى ابن سعود مغبة سكوته عن حائل ، ورأى فى بقائها خطراً جسيما يهدده فصمم الآن على انجاز أمرها ، فجهز قوة كبيرة بقيادة أخيه الامير محمد وابنه سعود وعهد الى الاول بحصار حائل والى الثانى بمهاجمة قبائل شمر فى أنحاء الجبل ثم عهد بالحصار أيضاً الى سعود فظل مرابطاً حول حائل أكثر من شهرين فلم يتمكن من احتلالها . إلا أن الظروف ساعدته على قبول استسلام أمير حائل عبد الله المتعب الذى فر الى معسكر سعود خوفاً من محمد بن طلال حين قدم من جهات الجوف لامداد ابن متعب فى الظاهر وللاستيلاء على الامارة فى الباطن . وقد تم لابن طلال ماأراد بعد فرار ابن متعب ورجوع سعود عن حائل الى الرياض فشرع فى تأديب القرى المحيطة بحائل ، والتنكيل بالموالين لابن سعود .

وجهز عبد العزيز بن سعود (وكان فى هذا الوقت تلقب بسلطان نجد وتوابعها) قوة جديدة قادها بنفسه وأصدر أمره الى فيصل الدويش بالتوجه الى حائل ومحاصرتها ، فالتقت قوة الدويش بقوة ابن طلال فى محل يدعى الجثامية ووقعت بينهما مناوشات عديدة الى أن قدم السلطان عبد العزيز فى أوائل المحرم سنة ١٣٤٠ (سبتمبر سنة ١٩٢١) فانهزم ابن طلال الى حائل وفاوض ابن سعود فى تسليم المدينة على أن يظل هو أميرها الا أن ما قاساه ابن سعود فى السابق من نكث العهود ونقض المواثيق جعله يرفض أن يشترط عليه المغلوب شروطاً هى من

حق الغالب فأمر بحصار حائل وتضييق الخناق على من فيها والاستيلاء على الحصون والقرى المحيطة بها .

وفى ٢٩ صفر سنة ١٣٤٠ (٢ نوفمبر سنة ١٩٢١) رضخت حائل للتقادير وسلم محمد بن طلال نفسه للفاتح فأرسل الى الرياض ، وانقضى بتسليمه حكم آل الرشيد من الجبل ، ودخلت البلاد فى حكم ابن سعود .

١٢ — احتلال الجوف ووادى السرحان وعسير

لسنا هنا فى معرض الدخول فى تفاصيل الاحداث التى انتابت الاقطار العربية عقيب الحرب العمومية ولكن سياق الحديث يضطرنا بعض الاحيان الى عطف نظرنا عليها بالنظر لما كان لها من الأثر المباشر فى تكييف التطور السياسى الاخير فى هذا القسم من الجزيرة .

أشرنا فى السابق الى بعض الاسباب التى أدت بابن سعود الى اتخاذ تدابيره النهائية للقضاء على حائل ، وذكرنا من بينها قيام حكومتين هاشميتين فى كل من العراق وشرق الاردن تعضدان حكومة الحسين فى مكة وتسيران بوحيها وإلهامها فى علاقاتها مع نجد وابن سعود . ونزيد الآن على ذلك أن قيام هاتين الحكومتين نشأ عام ١٩٢١ على أثر مؤتمر الشرق الادنى الذى عقده المستر تشرشل وزير المستعمرات البريطانية فى القاهرة والقدس فى مارس وابريل من ذلك العام . فان المسئوليات البريطانية كانت الى ذلك الحين ملقاة على عاتق وزارة الخارجية إلا انها بعد تطور الموقف الحربى والسياسى نهائيا عهد بها الى وزارة المستعمرات فجاء المستر تشرشل الى الشرق مستعينا بجيش من الاخصائيين الحكوميين وقرر فى مؤتمره ثلاثة أمور جوهرية :

الاول : تثبيت السياسة البريطانية فى الشرق وجعلها سياسة هاشمية مثلما

قال اللورد كرزن : *Our Policy is a Husein Policy*

الثانى : — تنصيب الملك فيصل على العراق .

الثالث : — تنصيب الامير عبد الله على شرق الاردن .

فلما أحيط ابن سعود علماً بما كان ، ولما أدرك بثاقب نظره عواقب ترك أمور حائل فى أيدى النساء والعبيد قام بحملته على شمر وثل عرش آل رشيد وكسر حلقة مهمة من حلقات الاتصال بين الحكومات الهاشمية الثلاثة ، غير انه وجد نفسه بعيد فتح حائل فى مركز لايختلف كثيراً بالنسبة الى الهاشميين عما كان عليه قبل فتحها . فان الهاشميين وجدوا الحلقة فى صِلاتهم وضموها الى السلسلة الكبرى بعد ان وسعوا محيطها الى ماوراء بلاد آل رشيد من جهة العراق وشرق الاردن ووجد ابن سعود ان سياسة التطويق قد أحاطت به مرة أخرى يساعدها عاملان قويان ،

أحدهما : قبائل شمر التى لجأت الى العراق بعد فتح حائل وشرعت فى شن الغارة على نجد .

ثانيهما : قبائل الرولا التى كانت تأتمر بأمر ابن شعلان وتخابر الامير عبد الله فى شرق الاردن للقيام بحركات جديدة يقصد بها مد السيطرة الهاشمية ـ ومن ورائها البريطانية ـ الى الجوف ومحاربة الوهابيين وابن سعود .

ترددت السياسة البريطانية كثيراً فى موقفها تجاه ابن سعود والهاشميين . ولكن تفاقم الخطر من الغارات والغزوات التى قام بها شمر اللاجئون الى العراق على بلادهم الاصلية ، والغزوات المتقابلة التى قامت بها القبائل النجدية على شمر والعراق ، جعل البريطانيين ينصاعون الى الحق ويعترفون بعدم جواز بقاء تلك الحال ورأوا أيضاً ان من مصلحتهم المستقبلة الشروع فى وضع أساس جديد لتحديد خط الحدود بين المناطق التى لهم فيها نفوذ وبين ممالك ابن سعود . فعقد فى ربيع سنة ١٩٢٢

مؤتمر نجدي ـ عراقي ـ بريطاني لحل قضية القبائل ومنع غزوات شمر ووضعت لذلك معاهدة بين نجد والعراق عرفت باسم معاهدة المحمرة[1] ورفض ابن سعود قبول هذه المعاهدة لان مندوبه فيها تجاوز الصلاحية المعطاة له وأقر للعراق بقبائل نجدية مقابل اعتراف العراق بشمر لنجد ولكنه بعد بضعة أشهر صدقها مقابل تعهد العراق لنجد ببعض المنافع والحقوق في ملحقين وقعا في شهر ديسمبر ١٩٢٢ في العقير وعرفا باسم بروتوكولي العقير[2] وقد نشأ عن اجتماع العقير أمور جوهرية نلخصها فيما يلي :

الاول : قبول مبدأ تخطيط خط للحدود على الارض بين بلاد عربية كانت ولا تزال منذ الخليقة بلاداً واحدة .

الثاني : — تثبيت القبائل العائدة لكل فريق حسبما ورد في معاهدة المحمرة مع منح الدهامشة حق الانضمام الى الجانب الذي يريدونه .

الثالث : — تعيين خط الحدود بين نجد والعراق ونجد والكويت .

الرابع : — تأسيس منطقتين محايدتين بين نجد والعراق ونجد والكويت ومنع انشاء الابنية والمخافر على أطراف الحدود .

الخامس : — تثبيت تابعية قريات الملح ووادي السرحان لنجد .

كان ابن سعود في الفترة التي انقضت بين عقد معاهدة المحمرة في مايو سنة ١٩٢٢ وعقد بروتوكولي العقير في ديسمبر سنة ١٩٢٢ ، قد توسع في حدوده الشمالية والغربية الموالية لبلاد شمر وضم واحتل تيماء وخيبر في يوليو سنة ١٩٢٢ والجوف ووادي السرحان في نفس ذلك الشهر الى بلاده ، وذلك أنه بعد وفاة نواف الشعلان قنع والده النوري بالاقامة في دمشق وترك في الجوف حفيده سلطان . وكان موقف ابن شعلان بعد سقوط حائل مذبذباً فانه أرسل ابن عمه مجحم الى

(١) انظرها في مجموعة المعاهدات التي نشرتها وزارة الخارجية في مكة المكرمة
(٢) انظرهما في مجموعة المعاهدات

ابن سعود طالباً موالاته كما أنه فاوض الامير عبد الله فى شرق الاردن و كما فاوض الفرنساويين وغيرهم . غير أن أهالى سكاكا — وهى أهم قرى واحات الجوف — أعلنوا ميلهم لابن سعود ورغبتهم فى الانضمام الى بلاده وتألفت لذلك الغرض هيئة برئاسة حمد بن مويشر وثارت على سلطة سلطان الشعلان فرحل سلطان من الجوف الى القريات تاركا وراءه عبداً له . وجاءت قوة من الاخوان الى وادي السرحان واشتبكت مع قوات سلطان بقرب قريات الملح وكانت هذه القوة طليعة لقوات الاخوان الكبيرة التى استولت على الجوف وسكاكا وماجاورهما .

وبعد الاستيلاء على الجوف ووادى السرحان قامت فرقة من الاخوان بمغامرة عجيبة فى بابها فان بعض الحروب هبّوا من هجرتهم النيفى بقيادة ابن نهيّر وقطعوا المسافات الشاسعة الى أن وصلوا الى أبواب عمّان ولكن مغامرتهم كانت شؤماً عليهم فان الطيارات البريطانية تقفت آثارهم ونكلت بكثير منهم .

أرسل الامير عبد الله بعد الواقعة قوة لاحتلال مدة كاف أ كبر قرى قريات الملح فى أعالى وادى السرحان بموافقة الحكومة البريطانية ولكنه اضطر الى استرجاعها بعد بضعة أشهر وتركها لابن سعود على أثر مؤتمر العقير المشار اليه فيما سبق .

أما فتح عسير فقد أوردنا تفصيله فى الفصل الذى عقدناه على آل عائض والادارسة من هذا القسم وما اعادتنا له هنا إلا سياق البحث فى سيرة الملك عبد العزيز واتماما لبحث نشوء هذه المملكة ذلك النشوء الطبيعى الذى بدأ صغيراً ثم نما وأخصب باضافة المقاطعات الواحدة تلو الاخرى

كانت الصلات بين عسير ونجد ـ الدينية والسياسية والاقتصادية ـ قديمة ، ولكنها قويت بعد الحرب العمومية والحاق تَرَبة والخرمة وبيشة ورنية بنجد . إلا أن الحسن بن عائض الذى استولى على عسير بعد زوال السيطرة العثمانية عنه لم يحسن السيرة بين القبائل ولم ينصع الى نصائح مندوبى ابن سعود اليه وهددهم

قائلا : ان لم يكف ابن سعود رجاله عن المداخلة مع قبائل عسير فانني أجهز على بيشة وأستولى عليها . فأثار تهديده هذا حنق ابن سعود فجهز ابن عمه عبد العزيز ابن مساعد فى مايو ١٩٢١ بقوة من أهل نجد وأنفذه الى عسير . وتم للقوة الاستيلاء على أبها وأسر محمد وحسن ابنى على بن عائض وجابهما الى الرياض ، فأكرم ابن سعود وفادتهما وأعادهما الى بلادهما . ولكن الحسن نكث عهده بعد وصوله الى بلدته حرملة واغتر بتشويق رؤساء قبيلة بنى شهر الموالية للحسين فى مكة وبتشويق الحسين نفسه فهاجم أبها وحاصر الامير المنصوب من قبل ابن سعود فيها واستولى عليها وعلى أكثر بلاد عسير .

فما كاد ابن سعود يفرغ من حرب حائل حتى أنفذ نجله الثانى الامير فيصل على رأس قوة كبيرة من الاخوان فى شهر شوال ١٣٤٠ (يونيو ١٩٢٢) وتمكن بالتدريج من تدويخ بنى شهر وقبائل عسير وفتح حرملة حصن ابن عائض الحصين وشتت شمل قوات ابن عائض والقوة الشريفية التى أنفذها الحسين من الحجاز بقيادة عبد الله بن حمزة الفعر والضابط حمدى حسن وتم بذلك الاستيلاء على منطقة عسير السراة حتى حدود اليمن من الجنوب وحدود الادريسى من الغرب حتى القنفذة وديار غامد وزهران فى الشمال .

١٣ — فتح الحجاز

لفتح الحجاز أسباب ومقدمات قد سردناها متفرقة فى مواضع عديدة من هذا القسم من الكتاب .

ويمكن تلخيص العوامل الاساسية الاصلية فى : (١) ادعاءات الشريف حسين ومحاولاته التى قام بها لجعل امراء البلاد العربية — ومنهم ابن سعود تحت سلطانه . (٢) الخلاف بينه وبين نجد على الحدود الشرقية للحجاز عند تربة والخرمة.

ومسعى الحسين للاخذ بثارات واقعة تربة . (٣) قلقه من توسع ابن سعود فى عسير وفى بلاد ابن رشيد . (٤) استيلاء ابن سعود على تيماء وخيبر والجوف ووادى السرحان . (٥) تضييق الحسين على أهل نجد ومنعهم من القدوم الى الحجاز . (٦) تكامل حلقات التطويق حول ممالك ابن سعود .

أما الاسباب المباشرة فانها تظهر من سردنا للوقائع الآتية :

بعد انعقاد مؤتمر العقير فى ديسمبر ١٩٢٢ طالبت نجد بانفاذ ما تم الاتفاق عليه من إعادة قبائل شمر اللاجئين الى العراق لنجد والاخذ على أيديهم فتلكأت حكومة العراق فى الأمر ، وكان من نتيجة ذلك حصول غزوات متقابلة من شمر وأحلافهم على نجد ومن القبائل النجدية على شمر والعراق . وزاد تعقد الامور بما لابسها من قيام قبائل شرق الاردن على القبائل النجدية المارة من شرق الاردن الى سوريا ونهب أموالها وقتل رجالها .

فاقترحت الحكومة البريطانية أن يعقد مؤتمر فى الكويت لتسوية المسائل المعلقة بين الممالك العربية المتجاورة على أن يمثل فيه كل من الحجاز والعراق وشرق الاردن ونجد . فوافق ابن سعود على عقد المؤتمر على شرط أن تكون مفاوضات مندوبيه فى الشؤون التى بينه وبين احدى تلك الحكومات على حدة وبدون أن يشترك فيها مندوبو الحكومات كلها . والقصد : الاحتراز من تشكيل مندوبى الحكومات الهاشمية الثلاث جبهة متحدة ضد مندوبيه . وقد قبل اقتراح ابن سعود هذا ، وحضر مندوبو العراق ونجد الى الكويت وعقدوا عدة اجتماعات فى منتصف شهر ديسمبر ١٩٢٣ (أوائل جمادى الاولى ١٣٤٢) ووضعوا بعض القواعد الاساسية التى تسير عليها الحكومتان فى اعادة شمر ومعاملة القبائل على الحدود وتأديب المعتدى . واشترط مندوبو العراق أن لا يصبح الاتفاق نافذاً الا بعد اتفاق نجد والحجاز . فرفض مندوبو ابن سعود هذا الشرط وانفض المؤتمر الذى لم يحضره مندوبو شرق الاردن والحجاز على أن يستشير كل وفد حكومته ثم يعود للكويت فى أوائل السنة الجديدة .

وافق الشريف حسين ـ وكان إذ ذاك فى عَمّان ـ على الاشتراك بأعمال مؤتمر الكويت وعين ابنه الامير زيد مندوبا ولكنه لم يحضر الاجتماع ، وأرسل الامير عبد الله وفداً يمثل شرق الاردن الا أن تعليماته كانت على ما يظهر بأمر الحسين نفسه ، ومع أن الاتفاق الاساسى على عقد المؤتمر قضى بأن لا يبحث كل وفد إلا فى الشؤون العائدة لحكومته فان وفد شرق الاردن طالب بامور تعود لشرق الاردن والحجاز أيضاً ، وكانت خطته نفس الخطة المعلومة عن الشريف حسين رحمه الله : ارجاع القديم الى قدمه ـ أى ان كل التطورات التى طرأت على البلاد العربية بعد الحرب العمومية لا يعترف بها الحسين و يجب على ابن سعود أن يعود الى ما كان عليه قبل الحرب وأن يعيد البلاد التى احتلها الى أصحابها ، وتتلخص المطاليب فيما يأتى :

(١) اعطاء الجوف ووادى السرحان لشرق الاردن مع أن السر برسى كوكس تمهد بها لابن سعود فى مؤتمر العقير .

(٢) اعادة تيماء وخيبر الى الحجاز .

(٣) اعادة تربة والخرمة الى الحجاز أيضاً .

(٤) اعادة آل رشيد الى حائل .

(٥) اعادة آل عائض الى عسير .

فازاء مطالب شاذة كهذه لم يكن امام المؤتمر أى أمل بالنجاح . وحدث آنئذ أنّ صبر فيصل الدويش نفد فهجم ببعض قومه على عربان العراق فاحتج العراقيون وانسحبوا من المؤتمر وانسحب مندوبو نجد احتجاجا على شطط مطاليب شرقى الاردن وفشل المؤتمر فشلا مريعاً وعلم الناس انه لم يبق محيص عن تحكيم السيف فيما عجزت المفاوضات عن حله .

بعد فشل مؤتمر الكويت عقد اجتماع حافل فى الرياض لتقرير السياسة التى يجمل بأهل نجد أن يسيروا عليها فى علاقاتهم مع الحكومات الهاشمية وبحثت مسألة

الحج وامتناع الحسين عن السماح لأهل نجد بها فتقرر الالتجاء الى السيف . فصدر أمر ابن سعود الى بيارق أهل نجد بأن تكون على قدم الاستعداد وجهز عدة حملات لتسييرها الى الاطراف .

ومشت البيارق فى مطلع العام الهجرى الجديد ١٣٤٣ (أغسطس ١٩٢٤) من نجد الى شرق الاردن والعراق والحجاز . أما حملة شرق الاردن فقد كانت عاقبتها الفشل وأما حملة الحجاز فانها سارت من تربة ومرت بتخفر كلاخ فوصلت الاخيضر ومنها الى الطائف فدخلتها بعد مقاومة يسيرة فى ٦ صفر ١٣٤٣ . وكانت قوات نجد بقيادة خالد بن لؤى وسلطان بن بجاد وقوات الحجاز بقيادة الشريف على بن الحسين واشتبكت القوتان بعد الطائف فى معركة الهدى واندحرت قوات الشريف فى ٢٦ صفر (٢٦ سبتمبر ١٩٢٤) .

وفى أوائل شهر ربيع الاول تنازل الشريف حسين بن على عن العرش وانتخب بكره الشريف على فى الخامس منه ملكا دستوريا على الحجاز وسافر الحسين بعد أسبوع الى العقبة . وانسحب الشريف على من مكة الى جدة حينما علم ان قوات الاخوان قد بلغت بلدة الزيمة فى ١٥ من الشهر (١٤ اكتوبر) وفى ١٧ ربيع الاول ١٣٤٣ (الموافق ١٦ اكتوبر ١٩٢٤) دخلت القوات النجدية الى مكة المكرمة محرمة بالعمرة ودخلت عاصمة الحجاز فى حكم آل سعود .

لم يصل السلطان عبد العزيز بن سعود الى مكة حتى اليوم السابع من شهر جمادى الاولى ١٣٤٣ (٤ ديسمبر ١٩٢٤) وبعد وصوله اليها دارت بينه وبين بعض الرسل الساعين فى السلام والوئام مفاوضات لم تثمر الا اطالة الوقت على الشريف على لكى يستعد فى جدة للحرب والكفاح .

احتل جنود ابن سعود القنفذة والليث وفتحوا الطريق منهما الى مكة ، ثم احتل الاخوان رابغ وانفتحت طريق جديدة لتجارة مكة مع الخارج .

ولم تتقدم قوات ابن سعود الى جدة حتى أوائل شهر يناير ١٩٢٥ ومنذ وصولها

أقامت الحصار على جدة ثم أنفذ ابن سعود قوات أخرى لحصار المدينة المنورة .

دام حصار جدة مايقرب من سنة حصلت فى خلالها وقائع عديدة من الجانبين الا ان حالة الحكومة فيها كانت سيئة جداً والجنود الذين أحضروا من سوريا لم يقبضوا رواتبهم فاشتد العسر واستحكمت حلقات الضيق .

وفى ١٩ جمادى الاولى ١٣٤٤ (٥ ديسمبر ١٩٢٥) سلمت المدينة المنورة وبعد ذلك ببضعة أيام طلب الشريف على من المعتمد البريطانى أن يتوسط بينه وبين السلطان ابن سعود فى وضع حد للحرب والحصار . وعقدت بين الجانبين اتفاقية تنازل الشريف على بموجبها عن الحجاز وسافر من جدة فى اليوم السادس من جمادى الثانية . وخضعت الجهات الاخرى لحكم ابن سعود الذى نودى به فى مكة المكرمة فى ٢٢ جمادى الثانية ١٣٤٤ الموافق ٨ ينساير ١٩٢٦ ملكا على البلاد الحجازية .

١٤ — المملكة العربية السعودية

ان الصفحة الجديدة التى افتتحها عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود فى تاريخه باستيلائه على الحجاز وضمه الى مملكته تستغرق من البحث والاطناب مالا يتسع له المجال فى كتابنا هذا . ولذلك نكتفى بسرد أهم الوقائع بعد اعلان ملكيته على الحجاز مؤملين أن تتيح لنا الظروف فرصة ملائمة للكتابة عن هذا الدور من التاريخ العربى الحديث .

فى ٢٢ جمادى الثانية (٨ يناير ١٩٢٦) انتخب ملكا على الحجاز وأصبح عنوانه ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها .

وفى ٢٠ ربيع الثانى ١٣٤٥ (٢١ اكتوبر ١٩٢٦) بسط حمايته على تهامة عسير المعروفة باسم المقاطعة الادريسية .

وفى ٢٥ رجب ١٣٤٥ (١٩ يناير ١٩٢٧) غير لقب السلطان بملك وأصبح

اسمه ملك الحجاز ونجد وملحقاتها وأبلغ هذا التغيير الى الدول الاجنبية فاعترفت به .

وفى ٢١ جمادى الاولى ١٣٥١ (٢٢ سبتمبر ١٩٣٢) صدر مرسوم ملكى وحدت به أجزاء المملكة الحجازية والمملكة النجدية وملحقاتها وجعلت مملكة واحدة باسم :

— ﴿ المملكة العربية السعودية ﴾ —

﴿ انتهى ﴾



خرائب العينة بلدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

ملحق

يتضمن نتائج رحلة المستر فلبي في الربع الخالى

(اطلعت بعد طبع البحث الخاص بالربع الخالى على الكتاب الذى وضعه المستر فلبي عن رحلته فى الربع الخالى وعلى التقارير الفنية التى وضعها اخصائيو المتحف البريطانى للتاريخ الطبيعى عن النتائج العملية للرحلة ، فوجدت فيها معلومات جديدة ومهمة آثرت أن أضمها الى كتابى هذا . وقد نشرت فى مقتطف ابريل رسالة لخصت فيها الحقائق الجديدة وطلبت من المستر فلبي نفسه أن يتفضل بكتابة فصل مختصر عن نتائج رحلته فتفضل بكتابة ما يأتى :)

أما وقد انتهى درس النتائج الجغرافية والعلمية لرحلتى الاخيرة فى الربع الخالى فمن دواعى سرورى أن أضع هذا الملحق عن هذا الموضوع الهام ليضاف الى مؤلف صديقى فؤاد حمزة عن المملكة العربية السعودية . ولن أضيع هذه الفرصة دون أن أرفع الى صاحب الجلالة عبد العزيز خالص شكرى وامتنانى لما أولانى من الشرف العظيم والميزة الكبرى بجعلى عضواً فيما يصح أن يقال انها أول بعثة علمية نظمت تحت اشراف الحكومة الوهابية .

الربع الخالى هو بقعة صحراوية مترامية الاطراف تقع بين نجد وحضرموت من جهة وبين اليمن وعمان من جهة أخرى يحدها من الشمال خط ، يمتد من بلدة سلوى على خليج البحرين ماراً بواحة جبرين والافلاج ووادى الدواسر الى واحة نجران الكبرى الواقعة على الزاوية الشمالية الشرقية من حدود اليمن ، ومن نجران يمتد خط حد الربع الخالى جنوبا على حدود اليمن الشرقية مارا فى الجوف الى

مأرب ، ومن ثم الى الشرق محاذياً المناطق الجبلية فى وادى حضرموت الى مهرة وبقارا فرملة مغشن وهذه واحة فيها نخل وعيون ، ثم ينثنى الى الشمال تاركا جبال عُمان الى الشرق الى أن يبلغ سفح رأس (المسندم) فى الخليج الفارسى .

ولما كانت معرفة البدو بأرجاء الربع الخالى ضئيلة فلم نكن لنعلم إلا اليسير من هذه القفار الواسعة البالغة نحواً من ربع مليون ميلا مربعاً من المساحة حتى كشف الستار عن هذه المجاهل ، كما أشار فؤاد حمزة فى محله بعد رحلة المستر توماس ثم رحلتى المتواليتين .

ويمكننا الجزم الآن أن هاتين الرحلتين قد أظهرتا الشئ الكثير عن طبيعة القسم الأوسط من الربع الخالى الواقع بين خط الطول ٤٧° والخط ٥٢° شرقاً ، إنما لايزال هنالك قطعتان على جانب من السعة لم يجر اكتشافهما وهما : (١) بلاد المناصير بين خط الطول ٥٢° شرقاً وحدود عُمان (٢) البقعة الجنوبية الغربية الواقعة ضمن الزاوية المؤلفة من وادى الدواسر واليمن وحضرموت انما يمكن الاستخلاص أن هذه البقاع المجهولة كثيرة الشبه بتلك التى اكتشفت ولذلك حق لنا أن ننقل للعالم لأول مرة فى التاريخ صورة جلية عن بقعة من الارض كانت الى الامس مكتنفة بالغموض والاسرار .

يقسم الربع الخالى على وجه التقريب الى قسمين رئيسيين : الاول الى شرق خط الطول ٥٠ والآخر الى غربيه والقسم الشرقى معظمه سلاسل متوازية طويلة من الرمال الكثيفة مع كميات وافرة من المياه الضاربة الى الملوحة على أعماق ضئيلة مختلفة وهذه الاراضى وفيرة المرعى الذى أدى الى الاعتقاد بأنها الموطن الاصلى لاجسن أجناس الابل العربية . أما القسم الغربى الممتد الي وادى الدواسر ونجران فهو مفاوز مقفرة جافة قلما يصيبها المطر ، ينبت فى بعض أقسامها النبات الصحراوى القاسى (كالزهر والابال والعلقة والحض والبركان) ، ويعترض رماله فى بعض

الاماكن مساحات واسعة موحشة من الحصباء المسطحة كأبو بحر وسحمة ورعلا والجليدة وجدة الفرشة ، وفى الجهات الشمالية الشرقية من هذه القفار بعض الآبار الهائلة العمق ولذلك فهى تسمى الطوال كالمغينمة التى يبلغ عمقها ١٧١ قدماً ، وبئر فاضل ١٢٥ قدما ونميلة وطوبرفة وهاتان طُمرتا بالرمال حديثاً وكثير غيرها على شاكلتها كبئر مقرن وبئر المكسر الخ ، أما البدو فقد نسوا أسماء هذه الآبار من عهد بعيد وقد قمنا بالحفر عن فوهاتها وتسميتها من جديد .

ومما ظهر لنا فى رحلتنا هذه أن على الحدّ بين القسم الشرقى والقسم الغربى من الربع الخالى مساحات كبيرة وجدنا بعض أصداف الماء العذبة فى كثير من مواقعها وكان معها أيضاً كثير من الاسلحة الصوانية التى ترجع الى العهد الحجرى الحديث (١٠٠٠٠ عام — ٥٠٠٠ قبل المسيح) ثم بعض قطع من بيض النعام المتحجر وغيره من الآثار .

وتدل هذه الاكتشافات وتثبت أنه فى وقت من الازمنة البعيدة كانت البقاع الغربية من الربع الخالى بلاداً خصبة تجرى اليها الأنهار من جبال اليمن ومرتفعات الحجاز وتصب فى البحر الذى كان فى العهد الميوسينى ساتراً ماهو اليوم القسم الشرقى من الربع الخالى الى خط يمتد من رملة مغشن الى شنة فيئر زكرت بونيفا وعين سالا .

والذى أظنه أنه يمكن الآن تمييز أربعة مجار لأنهار قديمة ويكون مشروع البحث فى (١) مجموعة أودية الافلاج (٢) المجرى الحالى لوادى مقرن (٣) وادى الدواسر ثم (٤) وادى نجران وان صح هذا فان الفيافى الجافة المقفرة الآن كانت حوالى سنة ٥٠٠٠ ق . م . مراعى خصبة ترتادها مواشى الانسان الاول الذى لاشك أنه كان يعيش على صيد الغزلان والايائل والنعام وقام بوضع أساس صناعة تربية الجمال وانتاجها .

كانت هذه الأنهار على مايظهر تجرى على خط الطول ٥٠° أو ٥١° لكن عند ما أخذ البحر ينحسر ترك وراءه بحيرات ومستنقعات جفت بالتغيرات الجوية فى أوقات البليستوسين التى نشرت أرديتها الرملية على هذه الاراضى فاضطر الانسان والحيوان الى النزوح الى الاقسام الشرقية ذات الرمال الرقيقة والآبار القليلة العمق وتطلق العرب الآن على هذه البقاع اسم الرمال (أو الرملة) والخيران بينما نراهم يحتفظون بكلمة الربع الخالى للقسم الغربى الجاف .

يقطن الآن بعض جهات القسم الشرقى أو الرمال قبيلة (المناصير) وواحتها الرئيسية المركزية فى منطقة (الجوا) نحو الحدود العمانية ويوجد أيضا بعض قبائل مرة كالغفران والجرابة والجابر بينما يقطن الجهات الجنوبية كزيج من آل كثير والصعر والضروع والعوامر . أما القسم الغربى فى ملكية الدمنان من آل مرة وهم نفر من الرعاة المشاغبين قسم منهم يتعلق بنجران وقسم بالاحساء . وواحة جبرين الكبرى تخص (جبرين) وهم أيضاً من آل مرة بينما أن قسم البحيح منهم يقطنون صحراء الجافورة وهى قسم من الربع الخالى يبرز الى الشمال بين خليج جيبان وخليج الحسا .

وعلى جوانب هذين الخليجين يرى الانسان شواهق الصخور التى كانت تضم سواعد البحر الميوسيقى القديم وقد وجدت على هذه الصخور كثيراً من متحجرات العصر الميوسينى .

وقد قمنا ببحث دقيق عن الاماكن التى وردت فى أساطير البدو وزعموا أنها فى الربع الخالى كما نوهنا سابقا وقد وجدنا بعض الاسلحة الصوانية التى تثبت وجود الانسان فى وقت من الاوقات لكن لاشك أن هذا الانسان سكن أراضى الربع الخالى قبل أن عرف فن البناء والحياة الاجتماعية فى الاصقاع الاخرى لكن ماوجدناه وهو ليس ببعيد العهد فى التاريخ طريق قوافل واضحة الآثار ما بين مغينمة والافلاج وأخرى مابين مغينمة وبئر فاضل وهذه الطرق على مايظهر نشأت

فى أيام الجاهلية كطرق تجارة عمان مع مكة ويثرب ومدائن صالح والبطراء ولا شك أن القوافل كانت تمر من هنا حاملة البهارات والعطور من جنوبى الجزيرة الى شمالها ولا بد أنها بعد ذلك أصبحت طريق الحج من عمان الى مكة المكرمة لكنها على كل حال لم تكن تجتاز الربع الخالى بل كانت تحاذى حده الشمالى مارة بواحة الجوا الى الافلاج .

وقد تكلم البدو عن بعض الآثار وذكروا أن هنالك منازل وأعمدة وقطعاً كبيرة من الحديد وغيره فى موضع يدعى الحديدة وقد قرنوا هذه المشاهد بوبار مدينة عاد التى يقال ان الله أنزل عليها النيران ودمرها إذ أعرض ملكها وأهلوها عن النبى هود .

زرنا المكان وهو يقع بين بئر طويرفه وفراجة وأم الحديد وابراهيمه وتبين لنا أن المدينة المهدومة لم تكن سوى فوهات بركانية . ذلك ماحسبته لأول وهلة وقد أخذت قطعة من الحديد تزن ١١ كيلوغراماً مع بعض الرمال المحروقة السوداء وبعد فحصها الفنى ظهر أن الحديد من معدن النيازك وان ماظهر كالحريق ليس الا (سلكا) احترقت بالحرارة التى تولدت من وقوع النيزك الى الارض ببضع ثوان وأمثال هذه الفوهات نادرة ولم يعرف البدو غير أربعة أو خمسة قبل اكتشافنا (وبار) وعلى كل فان تلك الآثار لم تكن إلا فوهات نيازك وفى الحقيقة انه لايمكن أن يوجد آثار أى مدينة فى كل الربع الخالى لسبب بسيط وهو أن هذه الاصقاع جفت وصارت كما هى الآن قبل أن عرف الانسان بناء القرى فكيف بالمدن والتمدن . والربع الخالى كان خالياً فارغا من الحياة والمياه لما بدت طلائع التمدن الحميرى والسبأى فى الوديان والسهول حول حدوده الجبلية

استدراك

بينما الـكتاب فى الطبع لفت بعض الافاضل نظرى الى ملاحظات على مواضع وردت فيه رأيت أن أشير اليها هنا :

— ١ —

كلمة النفود الوارد ذكرها فى الصفحة ١٦ لم أجد لها ذكراً فى كتب اللغة . وقد تـكون مصحفة عن كلمة نهد ج نهود فأبدل البداة الفاء بالهاء . جاء فى تاج العروس مادة نهد : « النهد الشيء المرتفع ، والنهداء الرملة المشرفة كالرابية المتلبدة »

— ٢ —

انظر ما أوردته فى الملحق الخاص بالربع الخالى عن آثار وبار الوارد ذكرها فى الهامش الثانى من الصفحة ١٧ .

— ٣ —

أعلمنى من أطلعته على أصول الـكتاب أن ما ورد عن قبيلة الظفير فى الصفحة ١٢٦ قد يوهم كونهم من رتبة الشرارات وغيرهم مع انهم فى الحقيقة أرفع بكثير من ذلك . والحقيقة اننا لم نقصد الحط من كفاءة الظفير ولا من كفاءة غيرهم وانما ذكرنا ماروى لنا عن كونهم بطناً من بطون العرب المتحالفة وفيها أفراد ينتسبون الى أ[illegible] القبائل العربية

— ٤ —

ذكر لى أيضاً أن بين بنى خضير كثيرين من ذوى الانساب العربية الصحيحة وان القول بان أصلهم من الموالى مبالغ فيه . وان الصناع هم فى الاصل من بنى خضير

— ٥ —

لاتوجد قبيلة مستقلة باسم بنى ثواب الوارد ذكرها فى الصفحة ١٣٣ وصوابه هذه الـكلمة « ثوعة » ويوجد فخذ باسم ثواب من الاشراف .

فهـــرس

الاعـلام الواردة فى الـكتاب

ألف

(ب)

ت

ث

ج

ح

خ

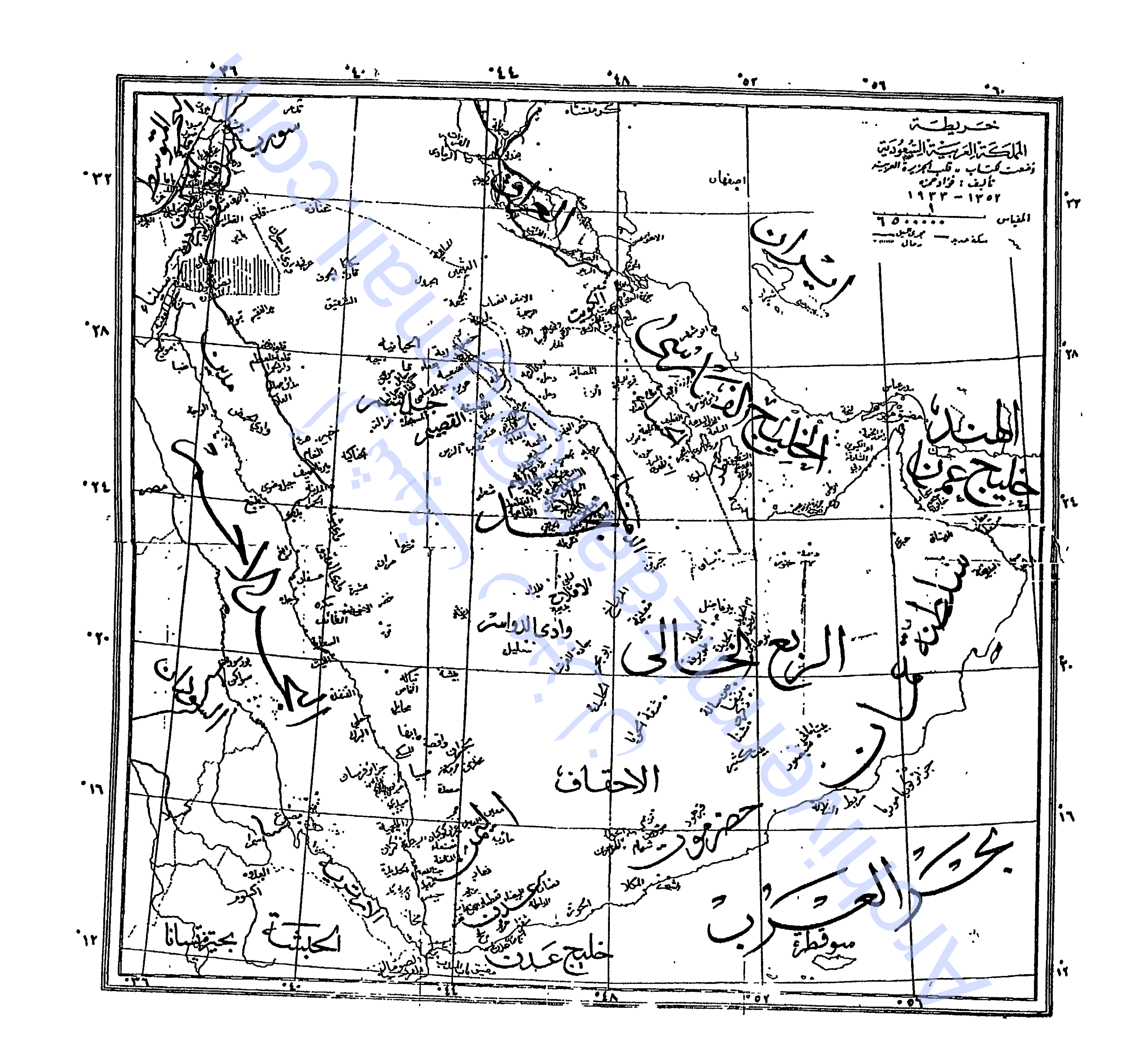
ذ

ص

ض

ن

تم


خريطة
المملكة العربية السعودية
وضعت لكتاب «قلب الجزيرة العربية»
تأليف: فؤاد حمزة
١٣٥٢ - ١٩٣٣
المقياس ١ / ٦٥٠٠٠٠٠
سوريا
العراق
اصفهان
ايران
الكويت
الخليج الفارسي
الهند
خليج عمان
نجد
القصيم
البحر الأحمر
وادي الدواسر
الربع الخالي
سلطنة عمان
الأحقاف
حضرموت
بحر العرب
سوقطرة
خليج عدن
الحبشة

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / الظاهر
ت. ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس. ٥٩٣٦٢٧٧